تفسير سورة النحل

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱتَّقُونِ (٢) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (٣)
خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ (٤) وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ
لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ (٥) وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ
حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ (٦) وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ
بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ (٧) وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ
وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٨) وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ
ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ (٩) هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠)
يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ
ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا
وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ
تَشۡكُرُونَ ١٤ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا
لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦ أَفَمَن يَخۡلُقُ
كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ
ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨

[النحل: ١-١٨]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿أَمْرُ ٱللَّهِ – فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ – سُبْحَٰنَهُۥ – وَتَعَٰلَىٰ – بِٱلرُّوحِ – أَنذِرُوٓاْ – فَٱتَّقُونِ – نُّطْفَةٍ –
خَصِيمٌ مُّبِينٌ – وَٱلْأَنْعَٰمَ – فِيهَا دِفْءٌ – وَمَنَٰفِعُ – تُرِيحُونَ – تَسْرَحُونَ – أَثْقَالَكُمْ –
بَٰلِغِيهِ – بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ – وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ – وَمِنْهَا جَآئِرٌ – تُسِيمُونَ – وَمَا ذَرَأَ –
يَذَّكَّرُونَ – حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا – ٱلْفُلْكَ – مَوَاخِرَ فِيهِ – وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ –
رَوَٰسِىَ – أَن تَمِيدَ بِكُمْ – وَسُبُلًا – وَعَلَٰمَٰتٍ – لَا تُحْصُوهَآ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾	أمره للملك بالنفخ في الصدور –يوم القيامة عذاب الله الكائن يوم القيامة.
﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾	فلاتطلبوا وقوعه قبل أوانه.
﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾	تنزه.
﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾	ارتفع قدره وعلا قدره.
﴿بِٱلرُّوحِ﴾	بالوحي، وقيل: بالنبوة.
﴿أَنذِرُوٓاْ﴾	خوِّفوا – حذِّروا.
﴿فَٱتَّقُونِ﴾	فاجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية.
﴿نُّطْفَةٍ﴾	قطرة المني.
﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾	مخاصمٌ لرب ومُعادي لربه قد أظهر خصومته وعداوته.

﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ ﴾	قيل: المراد الأنعام الثمانية (حمل وناقة وثور وبقرة وكبشر ونعجة وجدي وعنز). وقيل: عُني بها الإبل خاصة.
﴿ فِيهَا دِفۡءٞ ﴾	منها ما تستدفئون به (كالملابس المصنوعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها).
﴿ وَمَنَٰفِعُ ﴾	ما تنتفعون به (من الألبان والشعور وغيرها).
﴿ تُرِيحُونَ ﴾	ترجعون من مراعيكم إلى بيوتكم وإلى مُراح الإبل فيها.
﴿ تَسۡرَحُونَ ﴾	تخرجون من بيوتكم إلى مراعيكم وأعمالكم.
﴿ أَثۡقَالَكُمۡ ﴾	أمتعتكم.
﴿ بَٰلِغِيهِ ﴾	واصلين إليه.
﴿بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾	بجهد شديد على الأنفس.
﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾	وعلى الله بيان الطريق المستقيم الموصل إلى جنته ومرضاته.
﴿ وَمِنۡهَا جَآئِرٞ ﴾	من الطرق طرقٌ جائرة لا توصل إلى مرضاة الله ولا إلى جناته..
﴿تُسِيمُونَ ﴾	ترعون.
﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾	وما خلق.
﴿يَذَّكَّرُونَ ﴾	يتعظون - يعتبرون.

﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾	ما تتزينون به وتلبسونه للزينة (كاللؤلؤ والمرجان).
﴿ٱلْفُلْكَ﴾	السفن العظيمة الهائلة.
﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾	سائرةً بسرعة تشق المياه وتشق الرياح.
﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن﴾	لتلتمسوا أسباب الرزق الحلال الطيب.
﴿رَوَٰسِىَ﴾	جبالًا راسيات.
﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾	كي لا تضطرب الأرض بكم ولا تميل بكم.
﴿وَسُبُلًا﴾	طُرقًا.
﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾	معالم تستدلون بها في أسفاركم.
﴿لَا تُحْصُوهَا﴾	لا تستطيعوا حصرها.

❁ ❁ ❁

سورة النحل هي سورة النعم

س: هل لسورة النحل اسم آخر؟

ج: نعم من العلماء من أطلق عليها سورة النعم، وذلك لِذكر العديد من نعم الله تبارك وتعالى على خلقه في هذه السورة المباركة، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض الأدلة على أن الكفار كانوا يستعجلون العذاب، وكانوا يستعجلون قيام الساعة، وكانوا يستعجلون ربهم بذلك؟

ج: من الأدلة على استعجالهم بالعذاب، قوله تعالى: ﴿﴾، وقوله تعالى: ﴿﴾.

ومن الأدلة على استعجالهم يوم القيامة قولهم: ﴿﴾.

وقوله تعالى: ﴿﴾.

أما استعجالهم ربهم فدليله قوله تعالى: ﴿﴾ فاستعجلوا ربهم بإنزال العذاب وقولهم: ﴿﴾.

❁ ❁ ❁

س: لماذا عُبربلفظ الماضي في قوله تعالى: ﴿﴾.

ج: ذلك لقرب مجيء هذا اليوم، كما تقول للشخص إذا سألك متى ستأتي نقول: أنا قد جئت، أي: اقتربت منك.

أما الأدلى على اقتراب الساعة فمنها:

❁ قوله تعالى: ﴿﴾.

❁ وقوله تعالى: ﴿﴾.

❁ وثمَّ أدلة أُخر أوردناها عند تفسير الآيات المذكورة، وبالله التوفيق.

❁ ❁ ❁

س: وضـح معنـى قولـه تعـالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: اقترب أمر الله ﷻ الذي سيأمر فيه الملك بالنفخ في الصور، وذلك لقيام القيامة، لقيام الخلق من القبور للحساب والثواب والعقاب، فلا تستعجلوا نزول العذاب عليكم ولا تستعجلوا قيام الساعة فإنها آتية، ولا تستعجلوا ربكم بهذا وذاك، فقد تنزه ربنا عن العجز وتنزه ربنا عن الضعف وتنزه ربنا وتعالى عن أن يكون معه شريك في الملك، وتنزه ربنا عن أن يعبد معه إلهٌ غيره.

وهذه بعض أقوال العلماء في تفسير الآية الكريمة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أتى أمر الله فقرُب منكم أيها الناس ودنا، فلا تستعجلوا وقوعه.

ثم اختلف أهل التأويل في الأمر الذي أعلم الله عباده مجيئه وقُربه منهم ما هو، وأيّ شيء هو؟ فقال بعضهم: هو فرائضه وأحكامه(١).

وقال آخرون: بل ذلك وعيد من الله لأهل الشرك به، أخبرهم أن الساعة قد قَرُبت وأن عذابهم قد حضر أجله فدنا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: هو تهديد من الله أهل الكفر به وبرسوله، وإعلام منه لهم قرب العذاب منهم والهلاك وذلك أنه

(١) أورد الطبري ذلك بسندٍ ضعيف عن الضحاك.

عقَّب ذلك بقوله سبحانه وتعالى(عَمَّا يُشْرِكُونَ) فدلّ بذلك على تقريعه المشركين ووعيده لهم. وبعد، فإنه لم يبلغنا أن أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم استعجل فرائض قبل أن تُفرض عليهم فيقال لهم من أجل ذلك: قد جاءتكم فرائض الله فلا تستعجلوها. وأما مستعجلو العذاب من المشركين، فقد كانوا كثيرا.

وقوله سبحانه وتعالى(عَمَّا يُشْرِكُونَ) يقول تعالى تنزيها لله وعلوّا له عن الشرك الذي كانت قريش ومن كان من العرب على مثل ما هم عليه يَدِين به.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق (١) والوقوع لا محالة [كما قال تعالى] (٢) : { اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ } [الأنبياء : ١] ، وقال: { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ } [القمر : ١] .

وقوله: { فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ } أي: قرب ما تباعد فلا تستعجلوه.

يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ } [العنكبوت : ٥٣ ، ٥٤].

وقد ذهب الضحاك في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب، فقال في قوله: { أَتَى أَمْرُ اللهِ } أي: فرائضه وحدوده.

وقد رده ابن جرير فقال: لا نعلم أحدًا استعجل الفرائض (٣) والشرائع قبل وجودها (٤) بخلاف العذاب فإنهم استعجلوه قبل كونه، استبعادًا

وتكذيبًا.

قلت: كما قال تعالى: { يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ } [الشورى : ١٨].

قال ابن كثير:

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علوًا كبيرًا، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة، فقال: { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى : {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي تنزيها له عما يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة ، وذلك أنهم يقولون : لا يقدر أحد على بعث الأموات ، فوصفوه بالعجز الذي لا يوصف به إلا المخلوق ، وذلك شرك. وقيل : {عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي عن إشراكهم. وقيل : "ما" بمعنى الذي أي ارتفع عن الذين أشركوا به.

وقال الشنقيطي (أضواءالبيان):

قوله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللهِ}، أي: قرب وقت إتيان القيامة، وعبر بصيغة الماضي تنزيلاً لتحقق الوقوع منزلة الوقوع. واقتراب القيامة المشار إليه هنا بينه جل وعلا في مواضع أُخر، كقوله: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ} [٢١/ ١]، وقوله جل وعلا: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} [٥٤/ ١]، وقوله: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} [٣٣/ ٦٣]، وقوله: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ} [٤٢/ ١٧]، وقوله جل وعلا: {أَزِفَتِ الْآزِفَةُ

لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ} [٥٣/ ٥٧-٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

والتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي لتحقق وقوعه كثير في القرآن، كقوله: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ...} الآية [٣٩/ ٦٨]، وقوله: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ...} الآية [٧/ ٤٤]، وقوله: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا...} الآية [٣٩/ ٦٩-٧١].

فكل هذه الأفعال الماضية بمعنى الاستقبال، نزل تحقق وقوعها منزلة الوقوع.

قوله تعالى: {فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ}، نهى الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن استعجال ما وعد به من الهول والعذاب يوم القيامة، والاستعجال هو طلبهم أن يعجل لهم ما يوعدون به من العذاب يوم القيامة.

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله جل وعلا: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [٢٩/ ٥٣، ٥٤]، وقوله: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا} [٤٢/ ١٨]، وقوله: {وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ} الآية [١١/ ٨]، وقوله: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [٣٨/ ١٦]، وقوله: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ} [١٠/ ٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

والضمير في قوله: {فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ} [١٦/ ١] في تفسيره وجهان:

أحدهما: أنه العذاب الموعد به يوم القيامة، المفهوم من قوله: {أَتَى أَمْرُ اللهِ} [١٦/ ١].

والثاني: أنه يعود إلى الله؛ أي: لا تطلبوا من الله أن يعجل لكم العذاب؛ قال معناه ابن كثير.

❁ ❁ ❁

المراد بالروح في قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾

س: ما المراد بالروح، ولماذا أطلق عليه الروح؟

ج: المراد بالروح في هذا المقام الوحي، وأطلق على الوحي روح؛ لأن حياة القلوب تكون به ولا تتم إلا به، وذلك كما قال تعالى: ﴿ ﴾ فيوحى الله إلى أنبيائه ورسله، فيبلغ أنبياؤه ورسله خلقه ما أوحاه الله إليهم فتحيا به قلوبهم بعد مواتها.

هذا، ومما يدل على أن الروح الوحي قوله تعالى: ﴿ ﴾، مع قوله تعالى: ﴿ ﴾.

هذان ومن العلماء من أورد أقوالًا أُخر في المراد بالروح، منها النبوة – القرآن الرحمة – أوامر الله ﷻ ونواهيه – أرواح بني آدم... والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: يُنزل ربنا سبحانه وتعالى ملائكته الذين اختصهم بأن يكونوا رسلًا بينه وبين خلقه، وكبيرهم جبريل عليه السلام، ينزلهم ربنا بأمره بالوحي بالشيء الذي يريد أن يوحيه إلى رسله الذين اصطفاهم من

خلقهن وإلى من يريد أن يوحى إليه من عباده، وأعظم ما في ذلك لاوحي وأَجَلُّه أن أنذروا عبادي أن يشركوا بي شيئًا فإنه لا إله إلا أنا، لا إله معي ولا معبود سواء فاجعلوا بينكم وبين عذابي وقاية، وذلك بتوحيدكم لي وامتثالكم أمري واجتنابكم ما نهيتكم عنه، وتصديقكم برسلي وبما أنزلته عليهم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن أورد قراءتين في قوله ﴿﴾ واختار ما عليه الرسم الذي في المصحف:

فتأويل الكلام: ينزل الله ملائكته بما يحيا به الحقّ ويضمحلّ به الباطل من أمره(عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) يعني على من يشاء من رسله(أَنْ أَنْذِرُوا) فإن الأولى في موضع خفض، ردًا على الروح، والثانية في موضع نصب بأنذروا. ومعنى الكلام: ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده، بأن أنذروا عبادي سطوتي على كُفرهم بي وإشراكهم في اتخاذهم معي الآلهة والأوثان، فإنه لا إله إلا أنا ، يقول: لا تنبغي الألوهة إلا لي، ولا يصلح أن يُعبد شيء سواي، فاتقون : يقول: فاحذروني بأداء فرائضي وإفراد العبادة وإخلاص الربوبية لي، فإن ذلك نجاتكم من الهلكة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: { يُنزلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ } أي: الوحي كما قال تعالى: { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا } [الشورى : ٥٢].

وقوله: { عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } وهم الأنبياء، كما قال: { اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام : ١٢٤] ، وقال: { اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلا وَمِنَ النَّاسِ } [الحج : ٧٥] ، وقال: { يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } [غافر : ١٥ ، ١٦] .

وقوله: { أَنْ أَنْذِرُوا } أي: لينذروا { أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا } [كما قال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا }] (١) { فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء : ٢٥] ، وقال في هذه [الآية] (٢) : { فَاتَّقُونِ } أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

والباء في قوله : "بالروح" بمعنى مع ، كقولك : خرج بثيابه ، أي مع ثيابه. {مِنْ أَمْرِهِ} أي بأمره. {عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} أي على الذين اختارهم الله للنبوة. وهذا رد لقولهم : {لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف : ٣١]. {أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ} تحذير من عبادة الأوثان ، ولذلك جاء الإنذار ؛ لأن أصله التحذير مما يخاف منه. ودل على ذلك قوله : "فاتقون". و"أن" في موضع نصب بنزع الخافض ، أي بأن أنذروا أهل الكفر بأنه لا إله إلا الله ، "فأن" في محل نصب بسقوط الخافض أو بوقوع الإنذار عليه.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: {يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} ، أظهر الأقوال في معنى الروح في هذه الآية الكريمة أن المراد بها الوحي؛ لأن الوحي به حياة الأرواح، كما أن الغذاء به حياة الأجسام.

ويدل لهذا قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْأِيمَانُ} [٤٢/ ٥٢]، وقوله: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو

الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [٤٠/ ١٥، ١٦].

ومما يدل على أن المراد بالروح الوحي إتيانه، بعد قوله: {يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ} [١٦/ ٢]، بقوله: {أَنْ أَنْذِرُوا} [١٦/ ٢]؛ لأن الإنذار إنما يكون بالوحي، بدليل قوله: {قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ} الآية [٢١/ ٤٥]، وكذلك إتيانه بعد قوله: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [٤٠/ ١٥]، بقوله: {لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ...} الآية [٤٠/ ١٥]؛. لأن الإنذار إنما يكون بالوحي أيضًا، وقرأ هذا الحرف ابن كثير وأبو عمرو {يُنَزِّلُ} [١٦/ ٢]، بضم الياء وإسكان النون وتخفيف الزاي. والباقون بالضم والتشديد، ولفظه {مِن} [١٦/ ٢] في الآية تبعيضية، أو لبيان الجنس.

وقوله: {عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [١٦/ ٢]، أي: ينزل الوحي على من اختاره وعلمه أهلاً لذلك.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

{ يُنزلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ } أي: بالوحي الذي به حياة الأرواح { عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } ممن يعلمه صالحا، لتحمل رسالته.

وزبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها على قوله: { أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاتَّقُونِ } أي: على معرفة الله تعالى وتوحده في صفات العظمة التي هي صفات الألوهية وعبادته وحده لا شريك له فهي التي أنزل الله بها كتبه وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتحث وتجاهد من حاربها وقام بضدها، ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك فقال: {خلق السموات – إلى –

لهداكم أجمعين}.

❁ ❁ ❁

المراد بخلق السموات والأرض بالحق

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣﴾.

ج: في تفسير الآية الكريمة، ومعناها وجوه للعلماء:

أحدها: خلق السموات والأرض لإقامة الحق كي يختبر الناس ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته إلا أن يعفو الله عنه، وكي يأخذ للمظلوم من ظالمه.

الثاني: خلق السموات والأرض بالحق، وليس بالباطل خلقهما لحكمٍ وغاياتٍ، لم يخلقهما عبثًا ولا باطلًا قال تعالى: ﴿﴾، وقال تعالى: ﴿﴾.

الثالث: خلقهما الله ﷻ للحق، للاستدلال بهما على قدرة الله ﷻ ووحدانيته، وعلى البعث أيضًا.

الرابع: خلقهما الله ﷻ للزوال والفناء، كما يُقال الموت حق.

الخامس: خلقهما ﷻ وحده لم يشاركه في خلقهما أحدٌ.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: تعالى عن أن يكون معه إلهٌ يعبد، وتعالى عن أن يكون معه إلهٌ شاركه في خلقه. والله أعلم.

ثم هذه بعض أقوال العلماء في تأويل الآية الكريمة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره معرّفا خلقه حجته عليهم في توحيده، وأنه لا تصلح الألوهة إلا له: خلق ربكم أيها الناس السموات والأرض بالعدل وهو الحقّ

منفردا بخلقها لم يشركه في إنشائها وإحداثها شريك ولم يعنه عليه معين، فأنى يكون له شريك (تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) يقول جلّ ثناؤه: علا ربكم أيها القوم عن شرككم ودعواكم إلها دونه، فارتفع عن أن يكون له مثل أو شريك أو ظهير، لأنه لا يكون إلها إلا من يخلق وينشئ بقدرته مثل السموات والأرض ويبتدع الأجسام فيحدثها من غير شيء، وليس ذلك في قُدرة أحد سوى الله الواحد القَّهار الذي لا تبغي العبادة إلا له ولا تصلح الألوهة لشيء سواه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السماوات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث (٣) ، بل {ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} [النجم: ٣١] .

ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره [من الأصنام التي لا تخلق شيئا وهم يخلقون فكيف ناسب أن يعبد معه غيره] (٤) ، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق (٥) أن يعبد وحده لا شريك له.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: (خلق السماوات والأرض بالحق) أي للزوال والفناء. وقيل:" بالحق" أي للدلالة على قدرته، وأن له أن يتعبد العباد بالطاعة وأن يحيي الخلق بعد الموت. (تعالى عما يشركون) أي من هذه الأصنام التي لا تقدر على خلق شي.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذه السورة تسمى سورة النعم، فإن الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها، فأخبر أنه خلق السماوات

والأرض بالحق، ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما، وما له من نعوت الكمال ويعلموا أنه خلقهما مسكنا لعباده الذين يعبدونه، بما يأمرهم به في الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله، ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به فقال: {تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي: تنزه وتعاظم عن شركهم فإنه الإله حقا، الذي لا تنبغي العبادة والحب والذل إلا له تعالى، ولما ذكر خلق السماوات [والأرض] (١) ذكر خلق ما فيهما.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: خلق الله ﷻ الإنسان فسواه وعدله وأحسن صورته خلقه في أحسن تقويم، خلقه من نطفة من منيٍّ يُمنى، وبعد أن خلقه وسواه وأحسن صورته وعدله إذا به بدلًا من أن يشكر الله، إذا به مخاصم لربِّه ﷻ إذا به ينكر فضل الله ﷻ وينكر وحدانيته ويعبد معه غيره، إذا به يجادل في الله بغير علم، إذا به جاحدٌ لنعم الله ﷻ قد أظهر جحوده، وبيَّن نكرانه وكفرانه إذا به مخاصم لربه قد أبان عن خصومته وأظهرها يُنكر ما أخبر الله به، ينكر البعث والحساب والثواب والعقاب، ينكر قدرة الله ﷻ على البعث، ويضرب الأمثال يستدل بها على عدم قدرة الله، وليس له فيها أدنى دليل.

قال تعالى: ﴿﴾.

وقال تعالى: ﴿﴾.

وقال تعالى: ﴿﴾ أي: معاونًا لغيره على محاربة الله والشرك به وهذا في الإنسان الكافر والعياذ بالله.

أما أهل الإيمان حشرنا الله معهم وثبتنا الله على الإيمان، فإنهم يقرون لله بما هو أهله، يقرون بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبر به عنه رسوله ﷺ، وسائر رسله عليهم صلوات الله وسلامه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن حججه عليكم أيضا أيها الناس، أنه خلق الإنسان من نطفة، فأحدث من ماء مهين خلقا عجيبا، قلبه تارات خلقا بعد خلق في ظلمات ثلاث، ثم أخرجه إلى ضياء الدنيا بعد ما تمّ خلقه ونفخ فيه الروح، فغذاه ورزقه القوت ونماه، حتى إذا استوى على سوقه كفر بنعمة ربه وجحد مدبره وعبد من لا يضرّ ولا ينفع، وخاصم إلهه، فقال (مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) ونسِي الذي خلقه فسوّاه خلقا سويا من ماء مهين، ويعني بالمبين: أنه يبين عن خصومته بمنطقه، ويجادل بلسانه، فذلك إبانته، وعنى بالإنسان: جميع الناس، أخرج بلفظ الواحد، وهو في معنى الجميع.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم نبه على خلق جنس الإنسان {من نطفة} أي: ضعيفة مهينة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه، ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبدا لا ضدا، كما قال تعالى: {وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا * ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا} [الفرقان: ٥٤، ٥٥]، وقال: {أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم} [يس: ٧٧، ٧٩].

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ عَنْ بُسْرِ بْنِ جَحَّاش قَالَ: بَصَقَ رَسُولُ اللهِ فِي كَفِّهِ، ثُمَّ قَالَ: «**يَقُولُ اللهُ: ابْنَ آدَمَ، أَنَّى تُعجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ فَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ: أتصدقُ. وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟**»[(١)].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: (فإذا هو خصيم) أي مخاصم، كالنسيب بمعنى المناسب. أي يخاصم الله عز وجل في قدرته. و(مبين) أي ظاهر الخصومة. وقيل: يبين عن نفسه الخصومة بالباطل. والمبين: هو المفصح عما في ضميره بمنطقه.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله جل وعلا: {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} [١٦/ ٤]، أظهر القولين فيه: أنه ذم للإنسان المذكور، والمعنى: خلقناه ليعبدنا ويخضع لنا ويطيع؛ ففاجأ بالخصومة والتكذيب، كما تدل عليه {إِذَا} الفجائية، ويوضح هذا المعنى قوله: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [٥١/ ٥٦]، مع قوله جل وعلا: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [٣٦/ ٧٧-٧٩]، وقوله: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً} [٢٥/ ٥٤، ٥٥]، وقوله: {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ

(١) أحمد (٤/ ٢١٠)، وابن ماجه (٢٧٠٧).

مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا} [١٩/ ٦٦، ٦٧]، إلى غير ذلك من الآيات، وسيأتي إن شاء الله تعالى زيادة إيضاح لهذا المبحث في "سورة الطارق".

وقال:

وقوله: {مُبِينٌ} [١٦/ ٤]، الظاهر أنه اسم فاعل أبان اللازمة، بمعنى بان وظهر؛ أي بين الخصومة.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال: {خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ} لم يزل يدبرها ويرقيها وينميها حتى صارت بشرا تاما كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا استتم فخر بنفسه وأعجب بها {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته. ونسي خلقه الأول وما أنعم الله عليه به، من النعم فاستعان بها على معاصيه، ويحتمل أن المعنى: أن الله أنشأ الآدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طور، إلى طور حتى صار عاقلا متكلما، ذا ذهن ورأي: يخاصم ويجادل، فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

❁ ❁ ❁

فضل الله ﷻ على الخلق بخلق الأنعام

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: وخلق الله ﷻ الأنعام تستدلون بها على

قدرة الله ووحدانيته فتوحدوا الله ﷻ، ويعبدوه وحده لا شريك له فينفعكم ذلك في أُخراكم، وفي دنياكم كذلك، وأما عن الأنعام ففي الجملة هي الأنعام الثمانية الجمل - الناقة - الثور - البقرة - الكبش - النعجة - الجدي - العنز - قال تعالى: ﴿﴾.

وقال تعالى: ﴿﴾.

إلا أنه أحيانًا تطلق الأنعام على الإبل على وجه الخصوص، وعلى الإبل في هذا الموطن حملها بعض العلماء، كما قال تعالى: ﴿﴾، وقوله تعالى: ﴿﴾، أيضًا لمصالحكم في دنياكم، فلكم فيها ما تستدفئون به، تستخرجون منها الأصواف والأدبار والأشعار ما تصعنون منه ثيابكم وملابسكم ولحفكم التي تتعظون بها وتستدفئون بها، وكذا لكم في الأنعام منافع منها شربكم من ألبانها واستنفاعكم بجلودها ونسلها، وكذلك أكلكم منها وكذا لكم فيها جمالٌ، ترون جمالها أثناء رجوعكم بها من المراعي إلى مُراحها بمنازلكم، فقوله: ﴿﴾ أي: ترجعون بها بعد أن أكلت وشربت وعملت ترجعون بها إلى خطائرها وفراحها، وهي في أحسن أحوالها آنذاك، قد امتلأت ضروعها بالألبان، وارتفعت اسنمتها وامتدت خواصرها، وكذا لكم فيها، وعن ركوبكم عليها جمال حين تسرحون بها، أي: تخرجون بها من بيوتكم إلى حقولها وأماكن رعيها وعملها ولكم فيها جمال عند ركوبكم عليها.

وكذا فإن الله سخرها لكم تحمل أثقالكم، أمتعتكم وحوائجكم وبضائعكم من بلادكم إلا بلاد لم تكونوا مستطيعين الوصول إليها إلا بجهد الأنفس، وبمشقة على الأنفس، وقيل: إلا بفقدان لضعف قوتكم، على تفسير

الشق بالنصف - ﴿﴾ ذو رأفةٍ بكم إذ خلقها لكم ﴿﴾ إذ ذللها لكم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن حججه عليكم أيها الناس ما خلق لكم من الأنعام، فسخَّرها لكم، وجعل لكم من أصوافها وأوبارها وأشعارها ملابس تدفئون بها، ومنافع من ألبانها، وظهورها تركبونها (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) يقول: ومن الأنعام ما تأكلون لحمه كالإبل والبقر والغنم، وسائر ما يؤكل لحمه، وحذفت ما من الكلام لدلالة من عليها.

وأورد عدة آثار في تفسير قوله تعالى: ﴿﴾ أي: الثياب واللحف.

وأن المنافع ما ينتفعون به من الأطعمة والأشربة والنسل.

ثم قال الطبري:

ويقول تعالى ذكره: ولكم في هذه الأنعام والمواشي التي خلقها لكم (جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ) يعني: تردّونها بالعشيّ من مسارحها إلى مراحها ومنازلها التي تأوي إليها ولذلك سمي المكان المراح، لأنها تراح إليه عشيا فتأوي إليه، يقال منه: أراح فلان ماشيته فهو يريحها إراحة، وقوله (وَحِينَ تَسْرَحُونَ) يقول: وفي وقت إخراجكموها غدوة من مُراحها إلى مسارحها، يقال منه: سرح فلان ماشيته يسرحها تسريحا، إذا أخرجها للرعي غدوة، وسَرحت الماشية: إذا خرجت للمرعى تسرح سرحا وسروحا، فالسرح بالغداة، والإراحة بالعشيّ، ومنه قول الشاعر:

كأَنَّ بَقايا الأَتْنِ فَوْقَ مُتُونِهِ ... مَدَّبُّ الدَّبىِّ فَوْقَ النَّقا وَهْوَ سارِحُ

وأورد بسندٍ صحيح بطريقيه عن قتادة، قوله: (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) وذلك أعجب ما يكون إذا راحت عظاما ضروعها،

طوالا أسنمتها، وحين تسرحون إذا سرحت لرعيها.

وأيضًا: عن قتادة، قوله: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ ﴾ يقول: بجهد الأنفس.

قال الطبري:

وقوله (إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) يقول تعالى ذكره: إن ربكم أيها الناس ذو رأفة بكم، ورحمة، من رحمته بكم، خلق لكم الأنعام لمنافعكم ومصالحكم، وخلق السموات والأرض أدلة لكم على وحدانية ربكم ومعرفة إلهكم، لتشكروه على نعمه عليكم، فيزيدكم من فضله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة؛ ولهذا قال: {ولكم فيها جمال حين تريحون} وهو وقت رجوعها عشيا من المرعى (١) فإنها تكون أمده (٢) خواصر، وأعظمه ضروعا، وأعلاه أسنمة، {وحين تسرحون} أي: غدوة حين تبعثونها إلى المرعى.

{وتحمل أثقالكم} وهي الأحمال المثقلة (٣) التي تعجزون عن نقلها وحملها، {إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس} وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال، من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: {وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون}

[المؤمنون: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: {الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون} [غافر: ٧٩، ٨١]؛ ولهذا قال هاهنا بعد تعداد هذه النعم: {إن ربكم لرءوف رحيم} أي: ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كما قال: {أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون} [يس: ٧١، ٧٢]، وقال: {وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون} [الزخرف: ١٢ - ١٤].

قال ابن عباس: {لكم فيها دفء} أي: ثياب، والمنافع: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وشق الأنفس مشقتها وغاية جهدها، وقال بعد أن أورد من معاني الشق النصف، وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى، أي لم تكونوا بالغيه إلا بنقص من القوة وذهاب شق منها، أي لم تكونوا تبلغوه إلا بنصف قوى أنفسكم وذهاب النصف الآخر.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمراد بالدفء على أظهر القولين: أنه اسم لما يدفأ به، كالملء اسم لما يملأ به، وهو الدفاء من اللباس المصنوع من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها.

ويدل لهذا قوله تعالى: {وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} [١٦/ ٨٠]، وقيل: الدفء نسلها، والأول أظهر؛ والنسل داخل في قوله {وَمَنَافِعُ} [١٦/ ٥]، أي: من نسلها ودرها، {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

{وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ} أي: لأجلكم، ولأجل منافعكم ومصالحكم، من جملة منافعها العظيمة أن لكم {فِيهَا دِفْءٌ} مما تتخذون من أصوافها وأوبارها، وأشعارها، وجلودها، من الثياب والفرش والبيوت.

{وَ} لكم فيها {مَنَافِعُ} غير ذلك {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ} أي: في وقت راحتها وسكونها ووقت حركتها وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بثيابكم وأولادكم وأموالكم، وتعجبون بذلك.

{وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ} من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم {إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ} ولكن الله ذللها لكم.

فمنها ما تركبونه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاءون من الأثقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة، {إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} إذ سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه وسعة جوده وبره.

❀ ❀ ❀

ومن نعمه عليهم خلق
الخيل والبغال والحمير والإشارة إلى سائر وسائل المواصلات

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨ ﴾.

ج: هذا -والله أعلم-: وسخر الله ﷻ لكم الخيل والبغال والحمير لتركبوها لقضاء الحوائج والمصالح ولتركبوها أيضًا متزينين بركوبها، فأحيانًا تركب لقضاء الحوائج والمصالح، وأحيانًا تركبوها زينةً، أما قوله تعالى: ﴿﴾ قيل: من سائر المخلوقات التي لا تعلمونها، كالذي أعدَّه الله ﷻ لأهل الإيمان في الجنة، إذ النبي ﷺ قال: «**فِيهَا مَا لَا عَيۡن رَأَتْ وَلَا أُذنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلب بَشَر**»، وقال تعالى: ﴿﴾.

* وقيل: يخلق من المخلوقات في الدنيا مخلوقات لا تعلمونها.

* وقيل: يخلق أيضًا من المواصلات التي تركبونها ومن الزينة التي تتزينون بها ما لا تعلمون في زمانكم وسيعلمه غيركم أو لا يعلمون.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وخلق الخيل والبغال والحمير لكم أيضا لتركبوها وزينة: يقول: وجعلها لكم زينة تتزينون بها مع المنافع التي فيها لكم، للركوب وغير ذلك، ونصب الخيل والبغال عطفا على الهاء والألف في قوله (خَلَقَها)، ونصب الزينة بفعل مضمر على ما بيَّنت، ولو لم يكن معها واو وكان الكلام: لتركبوها زينة، كانت منصوبة بالفعل الذي قبلها الذي هي به متصلة، ولكن دخول الواو آذنت بأن معها ضمير فعل، وبانقطاعها عن الفعل الذي قبلها.

وقوله (وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ) يقول تعالى ذكره: ويخلق ربكم مع خلقه

هذه الأشياء التي ذكرها لكم ما لا تعلمون مما أعدّ في الجنة لأهلها وفي النار لأهلها مما لم تره عين ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده، يمتن به عليهم، وهو: الخيل والبغال والحمير، التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدل من استدل من العلماء -ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل -بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة، رحمه الله (١) ومن وافقه من الفقهاء (٢) ؛ لأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهي حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه[(١)] أكثر العلماء.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

{وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ} سخرناها لكم {لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً} أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل لأن البغال والحمر محرم أكلها، والخيل لا تستعمل -في الغالب- للأكل، بل ينهى عن ذبحها لأجل الأكل خوفا من انقطاعها وإلا فقد ثبت في الصحيحين، أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن في لحوم الخيل.

{وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ} مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها، لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه ولم

---

(١) يعني إلى تحريم لحوم الحمر الأهلية.

يفهموا المراد منه، فيذكر أصلا جامعا يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره، كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما لا نعرف له نظيرا في قوله: {فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ} فكذلك هنا ذكر ما نعرفه من المراكب كالخيل والبغال والحمير والإبل والسفن، وأجمل الباقي في قوله: {وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ}

❁ ❁ ❁

حلُّ أكل لحم الخيل

س: هل لحوم الخيل حلال أكلها؟

ج: نعم لحوم الخيل حلال، وبهذا جاءت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ وأصحابه ولم يرد نصٌّ صحيح بالمنع.

وهذه أقوال فريق من أهل العلم، وفي ثناياها الأحاديث المشار إليها، المجوِّزة لأكل لحوم الخيل.

وبداية فقد أورد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما أخرجه الإمام أحمد بسند ضعيف عن الْمِقْدَام بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ الصَّائِفَةَ، فقَرِم (١) أَصْحَابُنَا إِلَى اللَّحْمِ، فَسَأَلُونِي رَمَكة، فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهِمْ فحبلوها وَقُلْتُ (٢): مَكَانَكُمْ حَتَّى آتِيَ خَالِدًا فَأَسْأَلَهُ. فَأَتَيْتُهُ فَسَأَلْتُهُ، فقَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَةَ خَيْبَرَ، فَأَسْرَعَ النَّاسُ فِي حَظَائِرِ يَهُودَ، فَأَمَرَنِي أَنْ أُنَادِيَ: "الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُسْلِمٌ" ثُمَّ قَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ قَدْ أَسْرَعْتُمْ فِي حَظَائِرِ يَهُودَ، أَلَا لَا تَحِلُّ (٣) أَمْوَالُ الْمُعَاهَدِينَ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَرَامٌ عَلَيْكُمْ لُحُومُ الْأُتُنِ (٤) الْأَهْلِيَّةِ وَخَيْلِهَا وَبِغَالِهَا، وَكُلِّ ذِي نَابٍ

مِنَ السِّبَاعِ، وَكُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ"[١].

وَالرَّمَكَةُ: هِيَ الحِجْرَة. وَقَوْلُهُ: حَبَلوها، أَيْ: أَوْثَقُوهَا فِي الْحَبْلِ لِيَذْبَحُوهَا. وَالْحَظَائِرُ: الْبَسَاتِينُ الْقَرِيبَةُ مِنَ الْعُمْرَانِ.

وَكَأَنَّ هَذَا الصَّنِيعَ وَقَعَ بَعْدَ إِعْطَائِهِمُ الْعَهْدَ وَمُعَامَلَتِهِمْ عَلَى الشَّطْرِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

فَلَوْ صَحَّ هَذَا الْحَدِيثُ لَكَانَ نصًّا فِي تَحْرِيمِ لُحُومِ الْخَيْلِ، وَلَكِنْ لَا يقاوِمُ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ[٢]، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ، وَأَذِنَ فِي لُحُومِ الْخَيْلِ (٦).

وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ[٣] وَأَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادَيْنِ، كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: ذَبَحْنَا يَوْمَ خَيْبَرَ الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ، فَنَهَانَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ، وَلَمْ يَنْهَنَا عَنِ الْخَيْلِ (٧).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[٤]، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَتْ: نَحَرْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَسًا فَأَكَلْنَاهُ وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ.

فَهَذِهِ أَدَلُّ وَأَقْوَى وَأَثْبَتُ، وَإِلَى ذَلِكَ صَارَ جمهورُ الْعُلَمَاءِ: مَالِكٌ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ، وَأَصْحَابُهُمْ، وَأَكْثَرُ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وأورد الطبري من وجوهٍ في أسانيدها ضعف عن ابن عباس أنه كان يكره لحم الخيل ويستدل بقوله تعالى: ﴿﴾ وأورد أقوالًا في المنع من أكل الخيل، وأقوالًا في إباحتها واختار القول بإباحتها إذ قال: وذلك أنه لو كان في قوله

(١) أحمد (٤/ ٨٩)، رقم (١٦٨٦٧).

(٢) البخاري (٤٢١٩) و(٥٥٢٠)، ومسلم (١٩٤١).

(٣) أحمد (٣/ ٣٥٦)، وانظر مسلم (١٩٤١).

(٤) مسلم (١٩٤٢).

تعالى ذكره (لِتَرْكَبُوهَا) دلالة على أنها لا تصلح، إذ كانت للركوب للأكل - لكان في قوله (فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) دلالة على أنها لا تصلح إذ كانت للأكل والدفء للركوب. وفي إجماع الجميع على أن ركوب ما قال تعالى ذكره (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) جائز حلال غير حرام، دليل واضح على أن أكل ما قال (لِتَرْكَبُوهَا) جائز حلال غير حرام، إلا بما نص على تحريمه أو وضع على تحريمه دلالة من كتاب أو وحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأما بهذه الآية فلا يحرم أكل شيء. وقد وضع الدلالة على تحريم لحوم الحمر الأهلية بوحيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى البغال بما قد بيَّنا في كتابنا، كتاب الأطعمة بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع، إذ لم يكن هذا الموضع من مواضع البيان عن تحريم ذلك، وإنما ذكرنا ما ذكرنا ليدلّ على أنه لا وجه لقول من استدلّ بهذه الآية على تحريم لحم الفرس.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قلت: الصحيح الذي يدل عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل، وأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة. أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل. إذ لو دلت عليه لدلت على تحريم لحوم الحمر، والسورة مكية، وأي حاجة كانت إلى تجديد تحريم لحوم الحمر عام يبر وقد ثبت في الأخبار تحليل الخيل على ما يأتي. وأيضا لما ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من منافعها وأهم ما فيها، وهو حمل الأثقال والأكل، ولم يذكر الركوب ولا الحرث بها ولا غير ذلك مصرحا به، وقد تركب ويحرث بها، قال الله تعالى: " الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ". وقال في الخيل:" لتركبوها وزينة" فذكر أيضا أغلب منافعها والمقصود منها، ولم يذكر حمل

الأثقال عليها، وقد تحمل كما هو مشاهد فلذلك لم يذكر الأكل. وقد بينه عليه السلام الذي جعل إليه بيان ما أنزل عليه ما يأتي، ولا يلزم من كونها خلقت للركوب والزينة ألا تؤكل، فهذه البقرة قد أنطقها خالقها الذي أنطق كل شي فقالت: إنما خلقت للحرث. فيلزم من علل أن الخيل لا تؤكل لأنها خلقت للركوب وألا تؤكل البقر لأنها خلقت للحرث. وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها، فكذلك الخيل بالسنة الثابتة فيها. روى مسلم من حديث جابر قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل. وقال النسائي عن جابر: أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحمر. وفي رواية عن جابر قال: كنا نأكل لحوم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإن قيل: الرواية عن جابر بأنهم أكلوها في خيبر حكاية حال وقضية في عين، فيحتمل أن يكونوا ذبحوا لضرورة، ولا يحتج بقضايا الأحوال. قلنا: الرواية عن جابر وإخباره بأنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيل ذلك الاحتمال، ولين سلمناه فمعنا حديث أسماء قالت: نحرنا فرسا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة فأكلناه، رواه مسلم. وكل تأويل من غير ترجيح في مقابلة النص فإنما هو دعوى، لا يلتفت إليه ولا يعرج عليه.

❁ ❁ ❁

تحريم لحوم الحُمر الأهلية

س: هل لحوم الحمر حلالٌ أكلها؟

ج: لحوم الحُمر الأهلية (التي يركبها الناس) حرام، وذلك لأن النبي ﷺ

حرَّمها يوم خيبر.

❁ ❁ ❁

س: هل لحوم البغال حرام أكلها؟

ج: قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما البغال فإنها تلحق بالحمير، إن قلنا إن الخيل لا تؤكل، فإنها تكون متولدة من عينين لا يؤكلان. وإن قلنا إن الخيل تؤكل، فإنها عين متولدة من مأكول وغير مأكول فغلب التحريم على ما يلزم في الأصول. وكذلك ذبح المولود بين كافرين أحدهما من أهل الذكاة والآخر ليس من أهلها، لا تكون ذكاة ولا تحل به الذبيحة. وقد مضى في" الأنعام «١» " الكلام في تحريم الخمر فلا معنى للإعادة. وقد علل تحريم أكل الحمار بأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلوط، فسمي رجسا.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وعلى الله بيان الطريق المستقيم الذي يوصل إليه وإلى مرضاته وجناته، الطريق الذي ينبغي أن يقصده القاصدون، الطريق السوي الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، على الله بيانه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فكما أنه سبحانه يسر لكم السبل في دنياكم وأنعم عليكم فيها وسخر لكم الدواب تركبونها لبلوغ مقاصدكم، فكذا فإنه بيَّن لكم سبل مرضاته وجناته وأوضحهما لكم، كما قال: ﴿﴾.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: ومن السبل سائر جائرة مائلة معوّجة منحرفة لا

توصل إلى جنات الله وإلى مرضاته فاحذروها ولا تسلكوها.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فمعناه - والله أعلم - ولو شاء الله لهداكم إلى الإيمان كلكم ولوفقكم سلوك الإيمان كلكم.

كما قال تعالى: ﴿﴾.

وكما قال: ﴿﴾، وكما قال: ﴿﴾، وكقوله: ﴿﴾ إلى غير ذلك.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وعلى الله أيها الناس بيان طريق الحقّ لكم، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها، والسبيل: هي الطريق، والقصد من الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، كما قال الراجز:

فَصَدَّ عَنْ نَهْجِ الطَّرِيقِ القاصِدِ

وقوله (وَمِنْهَا جَائِرٌ) يعني تعالى ذكره: ومن السبيل جائر عن الاستقامة معوجّ، فالقاصد من السبيل: الإسلام، والجائر منها: اليهودية والنصرانية، وغير ذلك من ملل الكفر كلها جائر عن سواء السبيل وقصدها، سوى الحنيفية المسلمة، وقيل: ومنها جائر، لأن السبيل يؤنث ويذكر، فأنثت في هذا الموضع، وقد كان بعضهم يقول: وإنما قيل: ومنها، لأن السبيل وإن كان لفظها لفظ واحد فمعناها الجمع.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، في قوله: (وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) يقول: على الله البيان، بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته.

وبإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: (وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) قال: السبيل: طريق الهدى.

ومن وجوهٍ فيها مقالٌ عن ابن عباس ﴿ومنها جائر﴾ الأهواء المختلفة.

وبسندٍ يصحح بطريقيه عن قتادة: ﴿ ومنها جائر ﴾ أي: من السُّبل سبل الشيطان.

وبسندٍ صحيح عن ابن زيد ﴿ ومنها جائر ﴾ قال: من السبل جائر عنا لحق، قال: قال الله: ﴿ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾.

قال الطبري:

وقوله (وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) يقول: ولو شاء الله للطف بجميعكم أيها الناس بتوفيقه، فكنتم تهتدون وتلزمون قصد السبيل، ولا تجورون عنه، فتتفرّقون في سبل عن الحقّ جائرة.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله (وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) قال: لو شاء لهداكم أجمعين لقصد السبيل، الذي هو الحقّ، وقرأ (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا) الآية، وقرأ (وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) ... الآية.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيرا ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كما قال تعالى: {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى} [البقرة: ١٩٧] ، وقال: {يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير} [الأعراف: ٢٦] .

ولما ذكر في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يركبونها (١) ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن

البعيدة والأسفار الشاقة -شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: {وعلى الله قصد السبيل} كما قال: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} [الأنعام: ١٥٣]، وقال: {هذا (٢) صراط علي مستقيم} [الحجر: ٤١].

ثم أخبر أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: {ولو شاء لهداكم أجمعين} كما قال: {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا} [يونس: ٩٩]، وقال: {ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} [هود: ١١٨، ١١٩].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (وعلى الله قصد السبيل) أي على الله بيان قصد السبيل، فحذف المضاف وهو البيان. والسبيل: السلام، أي على الله بيانه بالرسل والحجج والبراهين. وقصد السبيل: استعانة الطريق، يقال: طريق قاصد أي يؤدي إلى المطلوب. (ومنها جائر) أي ومن السبيل جائر، أي عادل عن الحق فلا يهتدى به، ومنه قول امرئ القيس:

ومن الطريقة جائر وهدى ... قصد السبيل ومنه ذو دخل

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

ولما ذكر تعالى الطريق الحسي، وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه فقال:

{وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} أي: الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها موصل إلى الله.

وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله وهو: كل ما خالف الصراط المستقيم فهو قاطع عن الله، موصل إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضل الغاوون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة {وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} ولكنه هدى بعضا كرما وفضلا ولم يهد آخرين، حكمة منه وعدلا.

❁ ❁ ❁

مزيد بيان لنعم الله ﷻ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: الله ﷻ، الذي لا إله سواه، والذي تجب عليكم عبادته وحده لا شريك له، هو الذي أنزل من السماء ماءً، وهو المطر تشربون منه وتشرب أشجاركم منه كذلك فتنبت وتنمو وتزدهر، فترعون فيه أنعامكم، وتأكل من هذا الشجر دوابكم، فمعنى تسيمون، ترعون وينبت الله لكم بهذا المطر، الغيث النازل من السماء، وبعد أن تتشربه التربة ينبت الله لكم به جميع أنواع الزروع والثمار وكذا ينبت لكم به أشجار الزيتون المثمرة والنخيل كذلك، وكذلك حدائق الأعناب، وينبت الله لكم به من كل الثمرات، إن في ذلك لدلالة لقوم يتفكرون، فيستدلون بها على قدرة الله ﷻ ووحدانيته، ويتفكرون في ذلك، وفي مآلهم الذي سيؤولون إليه، فمن ثم يحملهم هذا على العلم الصالح. والله أعلم.

ثم هذه بعض أقوال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والذي أنعم عليكم هذه النعم، وخلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم، هو الربّ الذي أنزل من السماء ماء، يعني: مطرا لكم من ذلك الماء، شراب تشربونه، ومنه شراب أشجاركم، وحياة غروسكم ونباتها (فِيهِ تُسِيمُونَ) يقول: في الشجر الذي ينبت من الماء الذي أنزل من السماء تسيمون، ترعون، يقال منه: أسام فلان إبله يسيمها إسامة، إذا أرعاها، وسومها أيضا يسومها، وسامت هي: إذ رعت، فهي تسوم، وهي إبل سائمة ومن ذلك قيل للمواشي المطلقة في الفلاة وغيرها للرعي، سائمة. وقد وجَّه بعضهم معنى السوم في البيع إلى أنه من هذا، وأنه ذهاب كلّ واحد من المتبايعين فيما ينبغي له من زيادة ثمن ونقصانه، كما تذهب سوائم المواشي حيث شاءت من مراعيها، ومنه قول الأعشى:

وَمَشَى القَوْمُ بالعمادِ إلى المَرْ عَى وأعْيا المُسِيمَ أيْنَ المَسَاقُ

وأورد عدة آثار في معنى تسيمون، أي: ترعون.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: يُنبت لكم ربكم بالماء الذي أنزل لكم من السماء زرعَكم وزيتونكم ونخيلكم وأعنابكم، (وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) يعني من كلّ الفواكه غير ذلك أرزاقا لكم وأقواتا وإداما وفاكهة، نعمة منه عليكم بذلك وتفضّلا وحُجة على من كفر به منكم (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً) يقول جلّ ثناؤه: إن في إخراج الله بما ينزل من السماء من ماء ما وصف لكم (لآيَةً) يقول: لدلالة واضحة، وعلامة بينة (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) يقول: لقوم يعتبرون مواعظ الله، ويتفكَّرون في حججه، فيتذكرون وينيبون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما (١) ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم، في إنزال (٢) المطر من السماء -وهو العلو -مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: {لكم منه شراب} أي: جعله عذبا زلالا يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحا أجاجا.

{ومنه شجر فيه تسيمون} أي: وأخرج لكم به شجرا ترعون فيه أنعامكم.

وقوله: {ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات} أي: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها؛ ولهذا قال: {إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون} أي: دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: {أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون} [النمل: ٦٠].

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

ج: هذا – والله أعلم – مزيدُ بيان لنعم اله عَزَّوَجَلَّ التي أنعم بها على خلقه، فهو جل وعلا الذي سخر لكم أيها العباد اليل والنهار وأودع فيهما ما أودع لراحتكم، والليل والنهار يتعاقبان لما فيه مصالحكم فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون ﴿﴾.

وكذا فإن الشمس والقمر والنجوم، كل ذلك مسيرٌ بتسيير الله له، كما قال

تعالى: ﴿﴾.

وكذا النجوم سخرها الله فلا يسقط نجم على نجم إلا بإذن الله وبأمر الله، قال تعالى: ﴿﴾.

أما قوله: ﴿﴾ التسخير لليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ﴿﴾ لدلالات واضحات على وحدانية الله ﷻ وقدرته لكن الذي يستفيد منها العقلاء الألباء الذين يعقلون ويفهمون عنه مراده.

وكذا فإنه سبحانه وتعالى خلق لكم كل الصنوف التي في الأرض كل صنوف الزروع والمخلوقات المختلفة في ألوانها وطعومها وأشكالها وأحجامها، إن في ذلك التسخير لدلالات على وحدانيتنا وقدرتنا ولكن يستفيد أهل الاتعاظ والاعتبار والادكار.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن نِعَمه عليكم أيها الناس مع التي ذكرها قبل أن سخر لكم الليل والنهار يتعاقبان عليكم، هذا لتصرّفكم في معاشكم، وهذا لسكنكم فيه، (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) لمعرفة أوقات أزمنتكم وشهوركم وسنينكم، وصلاح معايشكم (وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ) لكم بأمر الله تجري في فلكها لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) يقول تعالى ذكره: إن في تسخير الله ذلك على ما سخره لدلالات واضحات لقوم يعقلون حجج الله ويفهمون عنه تنبيهه إياهم.

ويعني جلّ ثناؤه بقوله (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ) وسخر لكم ما ذرأ: أي ما خلق لكم في الأرض مختلفا ألوانه من الدوابّ والثمار.

وأورد بإسنادٍ يصح بطريقيه عن قتادة، قوله (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ)

يقول: وما خلق لكم مختلفا ألوانه من الدوابّ، ومن الشجر والثمار، نعم من الله متظاهرة فاشكروها لله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ينبه تعالى عباده على آياته العظام، ومننه الجسام، في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات، في أرجاء السموات نورا وضياء لمهتدين بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدرة، لا يزيد عليها ولا ينقص منها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره، كما قال: {إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين} [الأعراف: ٥٤]؛ ولهذا قال: {إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون} أي: لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

وقوله: {وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه} لما نبه سبحان على معالم السماوات (٥)، نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنباتات (١) [والجمادات] (٢) على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص {إن في ذلك لآية لقوم يذكرون} أي: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: والله ﷻ هو الذي سخَّر البحر، ذلَّلهُ وهيأه لكم، ولو شاء ما جعله مُسخرًا مذلَلًا، بل ذلَّله وسخره لتأكلوا منه لحمًا طريًّا، وهو لحم الحيتان والأسماك وغير ذلك من اللحوم الطرية التي تصطادونها منها، وكذا وسخره لتستخرجوا منه حليةً تتزينون بها، وتلبسونها كاللؤلؤ والمرجان وغير ذلك، ومن تسخيره لنا أنك ترى السفينة العظيمة الهائلة تسير فيه مسرعةً تشق ماءه وتشق الرياح ويسمع لجريانها صوت وهي تسير وتمخر، وذلك التسخير منه ﷻ لتسافروا عليها لالتماس الأرزاق في التجارات والصيد وغير ذلك، ولتقدموا شكرًا على ذلك لربكم وخالقكم.

فيفترض أن النعم تُشكر فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه.

ولقد قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ ﴾.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: والذي فعل هذه الأفعال بكم، وأنعم عليكم، أيها الناس هذه النعم، الذي سخر لكم البحر، وهو كلّ نهر، ملحا ماؤه أو عذبا (لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا) وهو السمك الذي يصطاد منه. (وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) وهو اللؤلؤ والمرجان.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: (لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا) يعني حيتان البحر.

وقد اختلف أهل التأويل في تأويل قوله (مَوَاخِرَ) فقال بعضهم: المواخر: المواقر.

وأورد أقوالًا أُخر بأسانيد فيها مقالٌ في معنى مواخر: تجرى فيه متعرِّضة.

ومنها: هي السفينة تقول بالماء هكذا يعني تشقه.

ومنها: ما أخذ عن يمين السفينة وعن يسارها من الماء فهو المواخر.

وبسندٍ صحيح عن ابن زيد: ﴿﴾ قال: تمخر الريح.

وبسندٍ يصح بطريقيه عن قتادة، قال: تجري مقبلة ومدبرة بريحٍ واحدة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والمخْر في كلام العرب: صوت هبوب الريح، إذا اشتدّ هبوبها، وهو في هذا الموضع: صوت جري السفينة بالريح إذا عصفت وشقها الماء حينئذ بصدرها، يقال منه: مخرت السفينة تمخر مخرا ومخورا، وهي ماخرة، ويقال: امتخرت الريح وتمخرتها: إذا نظرتَ من أين هبوبها وتسمَّعت صوت هبوبها، ومنه قول واصل مولى ابن عيينة. كان يقال: إذا أراد أحدكم البول فليتمخر الريح، يريد بذلك: لينظر من أين مجراها وهبوبها ليستدبرها فلا ترجع عليه البول وتردّه عليه.

وقوله (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) يقول تعالى ذكره: ولتتصرّفوا في طلب معايشكم بالتجارة سخر لكم.

وقوله (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) يقول: ولتشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم من ذلك سخر لكم ما سخر من هذه الأشياء التي عدّدها في هذه الآيات.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن تسخيره (١) البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم، وتيسيره للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله (٢) لعباده لحمها حيها وميتها، في الحل والإحرام (٣) وما يخلقه فيه من اللآلئ

والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل (٤) السفن التي تمخره، أي: تشقه.

وقيل: تمخر الرياح، وكلاهما صحيح بجؤجئها وهو صدرها المسنم – الذي أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك، إرثا عن أبيهم نوح، عليه السلام؛ فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرنا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، يسيرون من قطر إلى قطر، وبلد إلى بلد، وإقليم إلى إقليم، تجلب ما هنا إلى هنالك، وما هنالك إلى هنا (٥)؛ ولهذا قال تعالى: {ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون} أي: نعمه وإحسانه.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم–: وألقى الله ﷻ الجبال الرواسي على الأرض كي لا تميد الأرض ولا تضطرب بمن عليها، فجعلت الجبال أثقالًا لوزنها وضبطها، قال تعالى: ﴿ ﴾.

وكذا أجرى الله ﷻ في الأرض أنهار، وجعل في الأرض طرقًا لعلكم تتوصلون بها إلى مرادكم في الأسفار والتجارات وغير ذلك، وجعل في الأرض أيضًا علامات تستدلون بها في أسفاركم، فتعلمون بها الأماكن وتستدلوا بها على الطرق والبلاد، وهذه العلامات جائز أن تكون جبالًا وجائز أن تكون هِضابًا وجائز أن تكون وديانًا، وقيل أيضًا: إنها نجومٌ يستدل بها.

أما قوله تعالى: ﴿ ﴾ أي: والبشر يهتدون بالنجم كذلك في أسفارهم بل

وفي حضرهم كذلك، وقد جعلت النجوم – كما تقدم مرارًا – لأمور ثلاثة:

أحدها: يهتدي بها في ظلمات البر والبحر.

الثاني: زينة للسماء الدنيا.

الثالث: رجومٌ للشياطين.

ثمَّ وبعد أن بيَّن الله ﷻ نعمه على خلقه يقول تعالى: ﴿ ﴾ الأشياء كلها، ﴿ ﴾ كالوثن والصنم، وكأي معبود يُعبد من دون الله؟؟ أفلا تتعظون وتعتبرون كيف سويتم بين الله ﷻ خالق كل شيء، وبين من لا يخلق، كيف سويتم بين الخالق ﷻ وبين غيره؟ كيف أشركتم في عبادتكم الله ﷻ عبادة آلهة أخرى ﴿ ﴾ أفلا تتعظون وتعتبرون.

وقوله تعالى: ﴿ ﴾ فنعم الله لا تُحصى ولا تُعد فقدموا الشكر الذي تستطيعوا تقديمه لله ﷻ، ولن تطيقوا شركها، فقدموا ما استطعتم من الشكر، واعلموا أن الله غفور رحيم، يغفر لكم تقصيركم في شكره، إذا شكرتموه، فلن تفوا بحقه ولن تفوا بشكره، وهو جل ذكره غفور لمن قصر من عباده في شكره، رحيم بهم كذلك لا يكلفهم فوق طاقتهم.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن نعمه عليكم أيها الناس أيضا، أن ألقى في الأرض رواسي، وهي جمع راسية، وهي الثوابت في الأرض من الجبال. وقوله (أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) يعني: أن لا تميد بكم، وذلك كقوله (يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا) والمعنى: أن لا تضلوا. وذلك أنه جلّ ثناؤه أرسى الأرض بالجبال لئلا يميد خلقه الذي على ظهرها، بل وقد كانت مائدة قبل أن تُرْسَى بها.

وأورد بسنده، عن قتادة، عن الحسن، عن قيس بن عباد: أن الله تبارك وتعالى لما خلق الأرض جعلت تمور، قالت الملائكة. ما هذه بمقرّة على ظهرها أحدا، فأصبحت صبحا وفيها رواسيها.

وقوله (وأَنهَارًا) يقول: وجعل فيها أنهارا، فعطف بالأنهار على الرواسي، وأعمل فيها ما أعمل في الرواسي، إذ كان مفهوما معنى الكلام والمراد منه، وذلك نظير قول الراجز:

تَسْمَعُ فِي أَجْوَافِهِنَّ صَوْرَا   وفي اليَدَيْنِ حَشَّةً وبَوْرا

والحشة: اليُبس، فعطف بالحشة على الصوت، والحشة لا تسمع، إذ كان مفهوما المراد منه وأن معناه وترى في اليدين حَشَّةً.

وقوله (وَسُبُلا) وهي جمع سبيل، كما الطرق: جمع طريق، ومعنى الكلام: وجعل لكم أيها الناس في الأرض سُبلا وفجاجا تسلكونها، وتسيرون فيها في حوائجكم، وطلب معايشكم رحمة بكم، ونعمة منه بذلك عليكم ولو عماها عليكم لهلكتم ضلالا وحيرة.

وقوله (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) يقول: لكي تهتدوا بهذه السبل التي جعلها لكم في الأرض إلى الأماكن التي تقصدون والمواضع التي تريدون، فلا تضلوا وتتحيروا.

وقال في تأويل قوله تعالى: {وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)}

اختلف أهل التأويل في المعنى بالعلامات، فقال بعضهم: عني بها معالم الطرق بالنهار.

وقال آخرون: عني بها النجوم.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن إبراهيم: (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) قال:

منها ما يكون علامات، ومنها ما يهتدون به.

وأورد بإسنادين يصحان بمجموعهما عن قتادة، قوله: (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) والعلامات: النجوم، وإن الله تبارك وتعالى إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصلات: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدي بها، وجعلها رجوما للشياطين. فمن تعاطى فيها غير ذلك، فقد رأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلّف ما لا علم له به.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره عدّد على عباده من نعمه، إنعامه عليهم بما جعل لهم من العلامات التي يهتدون بها في مسالكهم وطرقهم التي يسيرونها، ولم يخصص بذلك بعض العلامات دون بعض، فكلّ علامة استدلّ بها الناس على طرقهم، وفجاج سبُلهم، فداخل في قوله (وَعَلامَاتٍ) والطرق المسبولة: الموطوءة، علامة للناحية المقصودة، والجبال علامات يهتدي بهن إلى قصد السبيل، وكذلك النجوم بالليل. غير أن الذي هو أولى بتأويل الآية أن تكون العلامات من أدلة النهار، إذ كان الله قد فصل منها أدلة الليل بقوله (وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) وإذا كان ذلك أشبه وأولى بتأويل الآية، فالواجب أن يكون القول في ذلك ما قاله ابن عباس في الخبر الذي رويناه عن عطية[1] عنه، وهو أن العلامات معالم الطرق وأماراتها التي يهتدى بها إلى المستقيم منها نهارا، وأن يكون النجم الذي يهتدى به ليلا هو الجدي والفرقدان، لأن بها اهتداء السفر دون غيرها من النجوم.

فتأويل الكلام إذن: وجعل لكم أيها الناس علامات تستدلون بها نهارا

---

(١) وعطية وهو العوفي ضعيف.

على طرقكم في أسفاركم. ونجوما تهتدون بها ليلا في سُبلكم.

وقال في تأويل قوله تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)}

يقول تعالى ذكره لعبدة الأوثان والأصنام: أفمن يخلق هذه الخلائق العجيبة التي عددناها عليكم وينعم عليكم هذه النعم العظيمة، كمن لا يخلق شيئا ولا ينعم عليكم نعمة صغيرة ولا كبيرة؟ يقول: أتشركون هذا في عبادة هذا؟ يعرّفهم بذلك عظم جهلهم، وسوء نظرهم لأنفسهم، وقلَّة شكرهم لمن أنعم عليهم بالنعم التي عدّدها عليهم، التي لا يحصيها أحد غيره، قال لهم جلّ ثناؤه موبخهم (أَفَلا تَذَكَّرُونَ) أيها الناس يقول: أفلا تذكرون نعم الله عليكم، وعظيم سُلطانه وقُدرته على ما شاء، وعجز أوثانكم وضعفها ومهانتها، وأنها لا تجلب إلى نفسها نفعا ولا تدفع عنها ضرّا، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه مقيمون من عبادتكموها وإقراركم لها بالألوهة؟

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) والله هو الخالق الرازق، وهذه الأوثان التي تعبد من دون الله تخلق ولا تخلق شيئا، ولا تملك لأهلها ضرّا ولا نفعا، قال الله (أَفَلا تَذَكَّرُونَ). وقيل (كَمَنْ لا يَخْلُقُ) هو الوثن والصنم، و "من" لذوي التمييز خاصة، فجعل في هذا الموضع لغيرهم للتمييز، إذ وقع تفصيلا بين من يخلق ومن لا يخلق، ومحكيّ عن العرب: اشتبه عليّ الراكب وجمله، فما أدرى من ذا ومن ذا، حيث جمعا، وأحدهما إنسان حسنت من فيهما جميعا. ومنه قول الله عزّ وجلّ (فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ) وقوله (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا) لا تطيقوا أداء شكرها،

﴿إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقول جلّ ثناؤه: إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، رحيم بكم أن يعذبكم عليه بعد الإنابة إليه والتوبة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم ذكر تعالى الأرض، وما جعل فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أي: تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: {والجبال أرساها} [النازعات: ٣٢].

وقوله: {وأنهارا وسبلا} أي: وجعل فيها أنهارا تجري من مكان إلى مكان آخر، رزقا للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق (١٠) الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله. وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة، وجنوبا وشمالا وشرقا وغربا، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حينا وتنقطع (١١) في وقت، وما بين نبع وجمع، وقوي السير وبطيئه، بحسب ما أراد وقدر، وسخر ويسر فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وكذلك جعل فيها سبلا أي: طرقا يسلك فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون (١) ما بينهما ممرا ومسلكا، كما قال تعالى: {وجعلنا فيها فجاجا سبلا} [الأنبياء: ٣١].

وقوله: {وعلامات} أي: دلائل من جبال كبار وآكام صغار، ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون برا وبحرا إذا ضلوا الطريق [بالنهار] (٢).

وقوله: {وبالنجم هم يهتدون} أي: في ظلام الليل، قاله ابن عباس.

وعن مالك في قوله: {وعلامات} يقولون: النجوم، وهي الجبال.

ثم قال تعالى منبها على عظمته، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان، التي لا تخلق شيئا بل هم يخلقون؛ ولهذا قال: {أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون}

ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم} أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازي على (٣) اليسير.

وقال ابن جرير: يقول: {إن الله لغفور رحيم} لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك، إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، {رحيم} بكم أن يعذبكم، [أي] (٤) : بعد الإنابة والتوبة (٥) .

❁ ❁ ❁

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا
يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ
يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ
وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا
يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ
ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ
يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ
وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ
أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ
ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ
أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى
ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

[النحل: ١٩-٢٩]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ تُسِرُّونَ - تُعْلِنُونَ - يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ - أَيَّانَ - قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ - مُّسْتَكْبِرُونَ - لَا جَرَمَ - أَوْزَارَهُمْ - يَزِرُونَ - فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ - فَخَرَّ - تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ - وَٱلسُّوٓءَ - فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ - مَثْوَى ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿تُسِرُّونَ﴾	تخفون (في صدوركم).
﴿تُعْلِنُونَ﴾	تظهرون (بألسنتكم أو بجوارحكم).
﴿يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾	يعبدون مع الله - يعبدون غير الله.
﴿أَيَّانَ﴾	متى.
﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾	يجحدون وحدانية الله - يجحدون الحق والقرآن، وبنة النبي عليه الصلاة والسلام.
﴿مُّسْتَكْبِرُونَ﴾	متعالون على قبول الحق والإذعان له والإقرار بعبوديتهم لله.
﴿لَا جَرَمَ﴾	حقًّا.
﴿أَوْزَارَهُمْ﴾	آثامهم (أحمالهم من الذنوب.
﴿يَزِرُونَ﴾	يحملون (من الذنوب).
﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾	فدمر الله أصل بنيانهم وقواعد بنيانهم.

﴿فَخَرَّ﴾	فسقط.
﴿تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾	تعاندون أنبيائي ورسلي بسببهم.
﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾	العقاب السيئ – الجزاء السيئ.
﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾	فأظهروا الخضوع والاستسلام والانقياد.
﴿مَثۡوَى﴾	مقام – مسكن – مستقر.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ۝١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ۝٢١﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: والله ﷻ الذي يجب أن يُفرد بالعبادة يعلم ما تخفونه في أنفسكم وما تظهرونه بجوارحكم أو بألسنتكم، كل ذلك يعلمه الله ﷻ، أما الأصنام والآلهة التي عبدتموها من دون الله فإنها لا تخلق شيئًا ولكنها تُخلق، ثم هي جمادات لا روح فيها.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فمعناه: أن الأصنام لا تشعر متى تبعث، لا تدري متى يوم القيامة، وعبَّر عن الأصنام بقوله: ﴿﴾ وكأنها تعقل قيل لأنها تُلهم النطق يوم القيامة لتتبرأ من عابديها وقيل: لأن قرناءها وسدنتها هم المعنيون بذلك.

وقال بعض العلماء: إن المراد بقوله: ﴿﴾ هم أهل الكفر والعياذ بالله.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والله الذي هو إلهكم أيها الناس، يعلم ما تسرّون في أنفسكم من ضمائركم فتخفونه عن غيركم، فما تبدونه بألسنتكم وجوارحكم وما تعلنونه بألسنتكم وجوارحكم وأفعالكم، وهو محصٍ ذلك كله عليكم، حتى يجازيكم به يوم القيامة، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء منكم بإساءته، ومُسائلكم عما كان منكم من الشكر في الدنيا على نعمه التي أنعمها عليكم فيها التي أحصيتم، والتي لم تحصوا، وقوله (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) يقول تعالى ذكره: وأوثانكم الذين تدعون من دون الله أيها الناس آلهة لا تخلق شيئا وهي تخلق، فكيف يكون إلها ما كان مصنوعا مدبرا، لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرّا.

ويقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين من قريش: والذين تدعون من دون الله أيها الناس (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ) وجعلها جلّ ثناؤه أمواتا غير أحياء، إذ كانت لا أرواح فيها.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) وهي هذه الأوثان التي تُعبد من دون الله أموات لا أرواح فيها، ولا تملك لأهلها ضرّا ولا نفعا، وفي رفع الأموات وجهان: أحدهما أن يكون خبرا للذين، والآخر على الاستئناف وقوله (وَمَا يَشْعُرُونَ) يقول: وما تدري أصنامكم التي تدعون من دون الله متى تبعث، وقيل: إنما عنى بذلك الكفار، إنهم لا يدرون متى يبعثون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها (٦) من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون، كما قال الخليل: {أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون} [الصافات: ٩٥، ٩٦].

وقوله: {أموات غير أحياء} أي: هي جمادات لا أرواح فيها (٧) فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل.

{وما يشعرون أيان يبعثون} أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرتجى (٨) ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ «أَيَّانَ» بمعنى: «متى».

وفي المشار إِليهم قولان:

أحدهما: أنها الأصنام، عبّر عنها كما يُعبّر عن الآدميين. قال ابن عباس: وذلك أن الله تعالى يبعث الأصنام لها أرواح ومعها شياطينها، فيتبرَّؤون من عبادتهم، ثم يُؤمر بالشياطين والذين كانوا يعبدونها إِلى النار.

والثاني: أنهم الكفار، لا يعلمون متى بعثهم، قاله مقاتل.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

{يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} بخلاف من عبد من دونه، فإنهم {لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا} قليلا ولا كثيرا {وَهُمْ يُخْلَقُونَ} فكيف يخلقون شيئا مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى؟ "

ومع هذا ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم، ولا غيره {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ} فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئا، أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين، فتبا لعقول المشركين ما أضلها وأفسدها، حيث ضلت في أظهر الأشياء فسادا، وسووا بين الناقص من جميع الوجوه فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال، وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فله العلم المحيط بكل الأشياء والقدرة العامة والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم، والحمد والمجد والكبرياء والعظمة، التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه.

❀ ❀ ❀

التنبيه على وحدانية الله عَزَّ وَجَلَّ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: معبودكم الحق الذي يستحق العبادة إنما هو إلهٌ واحدٌ فأهل الإيمان يعظمونه ويوحدونه ويفردونه بالعبادة، أما أهل الكفر والتكذيب الذين لا يقرون بالبعث ولا بالحساب قلوبهم منكرةٌ لوحدانية الله ﷻ ومنكرةٌ لقدرته على البعث ومنكرةٌ للقرآن الذي أُنزل عليك يا رسول الله ﴿﴾ عن عبادة ربهم ﷻ وعن الإقرار له بالوحدانية، فحقًّا أن الله يعلم ما تخفونه وما يظهرونه وسيجازيهم على ذلك، فإنه ﷻ لا يحب المستكبرين، المتعالين عن عبادته، والذين يبطرون الحق ويجحدونه، وكذا يحتقرون خلق الله، فالكبر هنا كبر عن توحيد الله وطاعته، والكبر من معاني أيضًا بطر الحق وغمط الناس، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ[(١)]، وبنحو ما ذُكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: معبودكم الذي يستحقّ عليكم العبادة، وإفراد الطاعة له دون سائر الأشياء: معبود واحد، لأنه لا تصلح العبادة إلا له، فأفردوا له الطاعة وأخلصوا له العبادة، ولا تجعلوا معه شريكا سواه (فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ) يقول تعالى ذكره: فالذين لا يصدّقون بوعد الله ووعيده، ولا يقرّون بالمعاد إليه بعد الممات قلوبهم منكرة، يقول تعالى ذكره: مستنكرة لما نقص عليهم من قدرة الله وعظمته، وجميل نعمه عليهم، وأن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

العبادة لا تصلح إلا له، والألوهة ليست لشيء غيره يقول: وهم مستكبرون عن إفراد الله بالألوهة، والإقرار له بالوحدانية، اتباعا منهم لما مضى عليه من الشرك بالله أسلافهم.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: (فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ) لهذا الحديث الذي مضى، وهم مستكبرون عنه.

ويعني تعالى ذكره بقوله: لا جرم حقا أن الله يعلم ما يسرّ هؤلاء المشركون من إنكارهم ما ذكرنا من الأنباء في هذه السورة، واعتقادهم نكير قولنا لهم: إلهكم إله واحد، واستكبارهم على الله، وما يعلنون من كفرهم بالله وفريتهم عليه (إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) يقول: إن الله لا يحب المستكبرين عليه أن يوحدوه ويخلعوا ما دونه من الآلهة والأنداد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: {أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب} [ص:٥]، وقال تعالى: {وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون} [الزمر:٤٥].

وقوله: {وهم مستكبرون} أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: {إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} [غافر:٦٠]؛ ولهذا قال هاهنا: {لا جرم} أي: حقا {أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون} أي: وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء، {إنه لا يحب المستكبرين}.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

{إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يكن له كفوا أحد.

فأهل الإيمان والعقول أجلته قلوبهم وعظمته، وأحبته حبا عظيما، وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله المقدسة، {فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ} لهذا الأمر العظيم الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلا وعنادا وهو: توحيد الله {وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} عن عبادته.

{لا جَرَمَ} أي: حقا لا بد {أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} من الأعمال القبيحة {إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم {إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين}.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وإذا قيل لأهل الكفر ماذا أنزل ربكم ﷻ على نبيه محمد ﷺ من الآيات قالوا: ما أنزل ربنا من شيء، كما في الآية الأخرى: ﴿ ﴾ فيقال لهم: فما قولكم فيما يتلوه محمدٌ ﷺ، فجوابهم أن ما يتلوه محمد ﷺ، ليس من عند الله إنما هي قصص وخرافات الأولين يتعلمها صباحًا ومساءً ويأتي يلقيها علينا، كما في قولهم: ﴿ ﴾ وقال تعالى: ﴿ ﴾.

فهذا هو قولهم في القرآن، يقولون عنه ﴿ ﴾ فتكون العاقبة أنهم يتحملوا

بذلك القول إثم كفرهم الذي كفروا، وإثم أعمالهم التي عملوها بناءً على كفرهم، وإثم شركهم بالله وجحودهم وإنكارهم، وكذا يتحملون إثم من أضلوه وصرفوه عن الحق، وأفتوه بالكذب والزور، فما أسوأ هذه الذنوب التي يتحملونها وما أسوأ عاقبتها، فاللام في قوله تعالى: ﴿﴾ لام العاقبة، أي: لتكون عاقبتهم أنهم يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة...

هذا، وسيأتي قول النبي ﷺ: «**فمن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»[1].

هذا، وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين، ماذا أنزل ربكم، أيّ شيء أنزل ربكم، قالوا: الذي أنزل ما سطَّره الأوّلون من قبلنا من الأباطيل.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: (مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) يقول: أحاديث الأوّلين وباطلهم، قال ذلك قوم من مشركي العرب كانوا يقعدون بطريق من أتى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم، فإذا مرّ بهم أحد من المؤمنين، يريد نبيّ الله صلى الله عليه وسلم، قالوا لهم: أساطير الأوّلين، يريد: أحاديث الأوّلين وباطلهم.

يقول تعالى ذكره: يقول هؤلاء المشركون لمن سألهم، ماذا أنزل ربكم الذي أنزل ربنا فيما يزعم محمد عليه: أساطير الأوّلين، لتكون لهم ذنوبهم التي هم عليها مقيمون من تكذيبهم الله، وكفرهم بما أنزل على رسوله صلى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٧٤).

الله عليه وسلم، ومن ذنوب الذين يصدّونهم عن الإيمان بالله يضلون يفتنون منهم بغير علم، وقوله (أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) يقول: ألا ساء الإثم الذي يأثمون، والثقل الذي يتحملون.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أي ذنوبهم وذنوب الذين يضلونهم بغير علم، (أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: {ماذا أنزل ربكم قالوا} معرضين عن الجواب: {أساطير الأولين} أي: لم ينزل شيئا، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي: مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: {وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا} [الفرقان: ٥] أي: يفترون على الرسول، ويقولون [فيه] (٢) أقوالا مختلفة متضادة (٣)، كلها باطلة (٤) كما قال تعالى: {انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا} [الفرقان: ٩]، وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون. ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي، لما {فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر} [المدثر: ١٨-٢٤] أي: ينقل ويحكى، فتفرقوا عن قوله ورأيه، قبحهم الله.

قال الله تعالى: {ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم} أي: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك فيتحملوا (٥) أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أي: يصير (٦) عليهم خطيئة

ضلالهم (٧) في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم.

كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مثلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ من آثامهم شيئًا**»[(١)].

وقال تعالى: {وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون} [العنكبوت: ١٣].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار إذا سئلوا عما أنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قالوا: لم ينزل عليه شيء، وإنما هذا الذي يتكلم به من أساطير الأولين، نقله من كتبهم. والأساطير: جمع أسطورة أو إسطارة، وهي الشيء المسطور في كتب الأقدمين من الأكاذيب والأباطيل. أصلها من سطر: إذا كتب؛ ومنه قوله تعالى: {وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ} [٥٢/ ٢]، وقال بعض العلماء الأساطير: الترهات والأباطيل، وأوضح هذا المعنى في آيات أخر؛ كقوله: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [٢٥/ ٥]، وقوله: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [٨/ ٣١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: {مَاذَا}، يحتمل أن تكون "ذا" موصولة و"ما" مبتدأ، وجملة {أَنْزَلَ} صلة الموصول، والموصول وصلته خبر المبتدأ. ويحتمل أن يكون مجموعهما اسماً واحداً في محل نصب، على أنه مفعول {أَنْزَلَ}، كما أشار له

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٧٤).

في الخلاصة بقوله:

ومثل ماذا بعد ما استفهام أو من إذا لم تلغ في الكلام

وبين جل وعلا كذب الكفار في دعواهم أن القرآن أساطير الأولين، بقوله: {قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ..} الآية [٢٥/ ٦]، وبقوله هنا: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [١٦/ ٢٥].

وقال الشنقيطي أيضًا:

قوله تعالى: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن أولئك الكفار الذين يصرفون الناس عن القرآن بدعواهم أنه أساطير الأولين، تحملوا أوزارهم ـ أي: ذنوبهم ـ كاملة، وبعض أوزار أتباعهم الذين اتبعوهم في الضلال؛ كما يدل عليه حرف التبعيض الذي هو {مِنْ}، في قوله: {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ...} الآية [١٦/ ٢٥].

وقال القرطبي: {مِنْ} لبيان الجنس؛ فهم يحملون مثل أوزار من أضلوهم كاملة.

وأوضح تعالى هذا المعنى في قوله: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [٢٩/ ١٣]، واللام في قوله: {لِيَحْمِلُوا}، تتعلق بمحذوف دل المقام عليه؛ أي: قدرنا عليهم أن يقولوا في القرآن: أساطير الأولين؛ ليحملوا أوزارهم.

تنبيه

فإن قيل: ما وجه تحملهم بعض أوزار غيرهم المنصوص عليه بقوله: {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ...} الآية [١٦/ ٢٥]، وقوله:

{وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ} [٢٩/ ١٣]، مع أن الله يقول: {وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [٣٥/ ١٨]، ويقول جل وعلا: {وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا} [٦/ ١٦٤]، ويقول {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [٢/ ١٣٤، ١٤١]، إلى غير ذلك من الآيات.

فالجواب ـ والله تعالى أعلم ـ: أن رؤساء الضلال وقادته تحملوا وزرين: أحدهما: وزر ضلالهم في أنفسهم.

والثاني: وزر إضلالهم غيرهم؛ لأنه من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا، وإنما أخذ بعمل غيره؛ لأنه هو الذي سنه وتسبب فيه، فعوقب عليه من هذه الجهة لأنه من فعله، فصار غير مناف لقوله {وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ...} الآية [٣٥/ ١٨].

وأورد ما أخرجه مسلم[(١)] في صحيحه من حديث جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَيْهِمِ الصُّوفُ فَرَأَى سُوءَ حَالِهِمْ قَدْ أَصَابَتْهُمْ حَاجَةٌ، فَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَأَبْطَئُوا عَنْهُ حَتَّى رُئِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ بِصُرَّةٍ مِنْ وَرِقٍ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ، ثُمَّ تَتَابَعُوا حَتَّى عُرِفَ السُّرُورُ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**». اهـ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠١٧).

وأورد أيضًا ما أخرجه مسلم[١] من حديث أبي هريرة بلفظ: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مثلُ آثَامِ مَنِ اتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ من آثامهم شيئًا».

قال مقيده عفا الله عنه: هذه النصوص الصحيحة تدل على رفع الإشكال بين الآيات، كما تدل على أن جميع حسنات هذه الأمة في صحيفة النبي صلى الله عليه وسلم، فله مثل أجور جميعهم؛ لأنه صلوات الله عليه وسلامه هو الذي سنّ لهم السنن الحسنة جميعها في الإسلام، نرجو الله له الوسيلة والدرجة الرفيعة، وأن يصلي ويسلم عليه أتم صلاة وأزكى سلام.

وقوله في هذه الآية الكريمة: {بِغَيْرِ عِلْمٍ} [١٦/ ٢٥]، يدل على أن الكافر غير معذور بعد بلاغ الرسل المؤيد بالمعجزات، الذي لا لبس معه في الحق، ولو كان يظن أن كفره هدى؛ لأنه ما منعه من معرفة الحق مع ظهوره إلا شدة التعصب للكفر، كما قدمنا الآيات الدالة على ذلك في "الأعراف"؛ كقوله: {إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} [٧/ ٣٠]، وقوله: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [١٨/ ١٠٣-١٠٤]، وقوله: {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [٣٩/ ٤٧]، وحملهم أوزارهم هو اكتسابهم الإثم الذي هو سبب ترديهم في النار، أعاذنا الله والمسلمين منها.

وقال بعض العلماء: معنى حملهم أوزارهم: أن الواحد منهم عند خروجه من قبره يوم القيامة يستقبله شيء كأقبح صورة، وأنتنها ريحا؛ فيقول: من

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٧٤).

أنت؟ فيقول: أو ما تعرفني! فيقول: لا والله، إلا أن الله قبّح وجهك! وأنتن ريحك! فيقول: أنا عملك الخبيث، كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه فطالما ركبتني في الدنيا! هلم أركبك اليوم؛ فيركب على ظهره اهـ.

وقوله: {أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} [١٦/ ٢٥]، {سَاءَ} فعل جامد؛ لإنشاء الذم بمعنى بئس، {مَا}، فيها الوجهان المشار إليهما بقوله في الخلاصة:

ومـــا مميـــز وقيـــل فاعـــل في نحـــو نعـــم مـــا يقـــول الفاضـــل

وقوله: {يَزِرُونَ}، أي: يحملون، وقتادة: يعملون.اهـ.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى -مخبرا عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزلَ رَبُّكُمْ} أي: إذا سألوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد، فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها أم تكفرون وتعاندون؟

فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمجه، فيقولون عنه: إنه {أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} أي: كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلا بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها، وحملوا وزرهم ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة.

وقوله: {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي: من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعوهم إليه، فيحملون إثم ما دعوهم إليه، وأما الذين يعلمون فكلٌّ مستقلٌّ بجرمه، لأنه عرف ما عرفوا {أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} أي: بئس ما حملوا من الوزر المثقل لظهورهم، من وزرهم ووزر من أضلوه.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: قد مكر أهل الكفر الذين كانوا قبل كفار قريش، مكروا بمن يريد الغيمان فحاولوا صرفه عن الإيمان، ومكروا بمن آمن فحاولوا تضليله وقتله وإلحاق الأذى به.

أما عن كيفية مكرهم، والمكر الذي مكروا فلأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن هذا الذي عناه الله بقوله: ﴿﴾ هو النمرود بن كنعان، والذي حاج إبراهيم في ربه بنى صرحًا عاليًا لمحاربة ربِّ ﷻ فاسقط الله سقف بيته عليه.

وقيل: إنه بختنصر البابلي.

قلت (مصطفى): والظاهر أن الذين مكروا ودمَّر الله عليهم قوم كثيرون، فقوم صالح، وهو التسعة رهط من قوم ثمود مكروا بصالحٍ ﷺ، قال تعالى: ﴿﴾.

ومكر بنو إسرائيل بعيسى عليه السلام، قال تعالى: مكروا بعيسى عليه السلام لصلبه فسلمه الله ﷻ ورفع إليه.

ومكر فرعون أيضًا لإضلال الناس إذ قال: ﴿﴾.

ومكر قوم نوحٍ بنوح عليه السلام كذلك، قال تعالى: ﴿﴾.

وغير هؤلاء الكثير والكثير مكروا بخلق الله لإضلالهم وإغوائهم وصرفهم عن دينهم، مكروا فأظهروا الخير وأبطنوا الشر وأظهروا الطيب،

وأبطنوا الخبيث.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فمحتملٌ لمعانٍ:

أحدها: أن يكون بعض هؤلاء الذين مكروا بنوا بنيانًا لصرف الناس عن دينهم فدمّره الله من أساسه وأصله وأسقط سقفه عليهم ونزل عليهم العذاب من حيث لا يتوقعون ولا يدرون.

والثاني: أن يكون المراد أن الله ﷻ أبطل كيدهم ومكرهم وأنزل على الذين يريدون المكر بالعباد وإغوائهم عذابًا من حيث لا يتوقعون ولا يدرون، ويحتمل أن يكون المكر بالبنيان والعذاب بما سوى إسقاط السقف، والمراد أن العذاب فجأهم من وجهٍ لا يتوقعونه، والظاهر الموافق لسياق الآية الكريمة هو الوجه الأول، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: ولا يقتصر عذاب الله لهؤلاء الذين مكروا على عذاب الدنيا الذي عذبهم الله به، بل ويوم القيامة يفضحهم الله ﷻ، وأعظم الخزي إدخالهم النار والعياذ بالله، كما في الآية الكريمة ﴿﴾.

وقوله: ﴿﴾ معناه: والله أعلم أن الله ﷻ يقول لأهل الكفر أين شركائي، أين من جعلتموهم لي شركاء، وعاديتم أنبيائي ورسلي وأوليائي بسببهم؟!! أين هذه الآلهة الباطلة التي عبدتموها من دوني، ادعوها إن استطعتم فلتنصركم إن استطعتم، فحينئذٍ لم يدروا جوابًا فتكلم أهل العلم وأهل الإيمان، قالوا: إن الخزي اليوم والسوء على أهل الكفر والجحود والنكران، الذين جحدوا وحدانية الله ﷻ وعبدوا معه آلهة أخرى.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: قد مكر الذين من قبل هؤلاء المشركين الذين يصدّون عن سبيل الله، من أراد اتباع دين الله، فراموا مغالبة الله ببناء بَنَوه، يريدون بزعمهم الارتفاع إلى السماء لحرب من فيها، وكان الذي رام ذلك فيما ذُكر لنا جبار من جبابرة النَّبَط، فقال بعضهم: هو نمرود بن كنعان، وقال بعضهم: هو بختنصر، وقد ذكرت بعض أخبارهما في سورة إبراهيم. وقيل: إن الذي ذُكر في هذا الموضع هو الذي ذكره الله في سورة إبراهيم.

ثم قال أيضًا:

وقوله (فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ) اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: فخرّ عليهم السقف من فوقهم: أعالي بيوتهم من فوقهم.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ) إي والله، لأتاها أمر الله من أصلها (فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ) والسقف: أعالي البيوت، فائتفكت بهم بيوتهم فأهلكهم الله ودمرهم (وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ).

وقال آخرون: عنى بقوله (فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ) أن العذاب أتاهم من السماء.

وأولى القولين بتأويل الآية، قول من قال: معنى ذلك: تساقطت عليهم سقوف بيوتهم، إذ أتى أصولها وقواعدها أمر الله، فائتفكت بهم منازلهم لأن ذلك هو الكلام المعروف من قواعد البنيان، وخرّ السقف، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر الأعرف منها، أولى من توجيهها إلى غير ذلك ما وُجِد إليه سبيل (وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ) يقول تعالى ذكره: وأتى هؤلاء

الذين مكروا من قَبْل مشركي قريش، عذاب الله من حيث لا يدرون أنه أتاهم منه.

وقال الطبري أيضًا:

يقول تعالى ذكره: فعل الله بهؤلاء الذين مكروا الذين وصف الله جلّ ثناؤه أمرهم ما فعل بهم في الدنيا، من تعجيل العذاب لهم، والانتقام بكفرهم، وجحودهم وحدانيته، ثم هو مع ذلك يوم القيامة مخزيهم، فمذلهم بعذاب أليم، وقائل لهم عند ورودهم عليه (أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ) أصله: من شاققت فلانا فهو يشاقّني، وذلك إذا فعل كلّ واحد منهما بصاحبه ما يشقّ عليه. يقول تعالى ذكره يوم القيامة تقريعا للمشركين بعبادتهم الأصنام: أين شركائي؟ يقول: أين الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي اليوم، ما لهم لا يحضرونكم، فيدفعوا عنكم ما أنا مُحِلّ بكم من العذاب، فقد كنتم تعبدونهم في الدنيا، وتتولونهم، والوليّ ينصر وليه، وكانت مشاقتهم الله في أوثانهم مخالفتهم إياه في عبادتهم.

وقوله (إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ) يعني: الذلة والهوان والسوء، يعني: عذاب الله على الكافرين.

وأورد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى قولين في الذين عناهم الله ﷻ بقوله: ﴿﴾.

أحدهما: أنه النمروذ الذي بنى الصرح.

والآخر: أنه بختنصر.

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله

وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح، عليه السلام: {ومكروا مكرا كبارا} [نوح: ٢٢] أي: احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: {بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا} [الآية] (٢) [سبأ: ٣٣].

وقوله: {فأتى الله بنيانهم من القواعد} أي: اجتثه من أصله، وأبطل عملهم، وأصلها (٣) كما قال تعالى: {كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله} [المائدة: ٦٤].

وقوله: {فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار} [الحشر: ٢].

وقال هاهنا: {فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم يوم القيامة يخزيهم}

أي: يظهر فضائحهم، وما كانت تجنه ضمائرهم، فيجعله علانية، كما قال تعالى: {يوم تبلى السرائر} [الطارق: ٩] أي: تظهر وتشتهر، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ[1] عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اسْتِهِ بِقَدْرِ غَدْرَته، فَيُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ**».

وهكذا هؤلاء، يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر، ويخزيهم الله على رءوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعا لهم وموبخا: {أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم} تحاربون وتعادون في سبيلهم، [أي] (٤): أين هم عن نصركم وخلاصكم هاهنا؟ {هل ينصرونكم أو ينتصرون}

---

(١) البخاري (٣١٨٨)، ومسلم (١٧٣٨).

[الشعراء: ٩٣] ، {فما له من قوة ولا ناصر} [الطارق: ١٠] . فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار (٥) {قال الذين أوتوا العلم} -وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: {إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين} أي: الفضيحة والعذاب اليوم [محيط] (٦) بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضره ولا ينفعه.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار الذين كانوا قبل كفار مكة قد مكروا، وبين ذلك في مواضع أخر؛ كقوله: {وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً} [١٣/ ٤٢]، وقوله: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} [١٤/ ٤٦].

وبين بعض مكر كفار مكة، بقوله: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ...} الآية [٨/ ٣٠].

وذكر بعض مكر اليهود بقوله: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [٣/ ٥٤].

وبين بعض مكر قوم صالح، بقوله: {وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ} [٢٧/ ٥٠، ٥١].

وذكر بعض مكر قوم نوح، بقوله: {وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ..} الآية [٧١/ ٢٢-٢٣].

وبين مكر رؤساء الكفار،في قوله: {بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ...} الآية [٣٤/ ٣٣]، والمكر: إظهار الطيب وإبطان الخبيث، وهو الخديعة. وقد بين جل وعلا أن المكر السيىء لا يرجع ضرره إلا على فاعله؛ وذلك في قوله: {وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [٣٥/ ٤٣].

قوله تعالى: {فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ}، أي: اجتثه من أصله واقتلعه من أساسه؛ فأبطل عملهم وأسقط بنيانهم. وهذا الذي فعل بهؤلاء الكفار الذين هم نمروذ وقومه ـ كما قدمنا في "سورة الحجر ـ فعل مثله أيضاً بغيرهم من الكفار؛ فأبطل ما كانوا يفعلون ويدبرون؛ كقوله: {وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [٧/ ١٣٧]، وقوله: {كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ} [٥/ ٦٤]، وقوله: {فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} [٥٩/ ٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ}، أي: يفضحهم على رؤوس الأشهاد ويهينهم بإظهار فضائحهم، وما كانت تجنه ضمائرهم، فيجعله علانية.

وبين هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: {أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ} [١٠٠/ ٩-١٠]، أي: أظهر علانية ما كانت تكنه الصدور، وقوله: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} [٨٦/ ٩].

وقد بين جل وعلا في موضع آخر: أن من أدخل النار فقد ناله هذا الخزي المذكور، وذلك في قوله: {رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ} [٣/ ١٩٢]، وقد قدمنا في سورة "هود" إيضاح معنى الخزي.

قوله تعالى: {وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه يسأل المشركين يوم القيامة سؤال توبيخ، فيقول لهم: أين المعبودات التي كنتم تخاصمون رسلي وأتباعهم بسببها، قائلين: إنكم لا بد لكم أن تشركوها معي في عبادتي!

وأوضح هذا المعنى في مواضع أُخر، كقوله: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} [٢٨/ ٦٢، ٢٨/ ٧٤]، وقوله: {وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ} [٢٦/ ٩٢، ٩٣]، وقوله: {ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا...} الآية[٤٠/ ٧٣-٧٤]، وقوله: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا...} الآية [٧/ ٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

{قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} برسلهم واحتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاءوهم به وبنوا من مكرهم قصورا هائلة، {فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ} أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها، {فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ} فصار ما بنوه عذابا عذبوا به، {وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ} وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفعهم ويقيهم العذاب فصار عذابهم فيما بنوه وأصَّلوه.

وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه. فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم وجعلوا لهم أصولا وقواعد من الباطل

يرجعون إليها، ويردون بها ما جاءت [به] الرسل، واحتالوا أيضا على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكرهم وبالا عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم، وذلك لأن مكرهم سيئ {ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله} هذا في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى، ولهذا قال:

{ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ} أي: يفضحهم على رءوس الخلائق ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله.

{وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ} أي: تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم وتزعمون أنهم شركاء لله، فإذا سألهم هذا السؤال لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم فيقولون {ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين} {قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} أي: العلماء الربانيون {إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ} أي: يوم القيامة {وَالسُّوءَ} أي: العذاب {عَلَى الْكَافِرِينَ} وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتبارا عند الله وعند خلقه.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: الذين تقبض الملائكة أرواحهم وهم على الشرك بالله ﷻ، هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وأنزلوها أسوأ المنازل بسبب شركهم بالله، هؤلاء الذين يموتون على الكفر يوم القيامة يظهرون كمال الخضوع والانقياد والاستسلام ويكذبون مع ذلك في قيلهم، وينكروا أن

يكونوا قد أشركوا في الدنيا، كما في آية أُخرى إذ يقولون: ﴿﴾ فهاهنا ينكرون أيضًا فيقولون ما كنا نعمل في الدنيا سوءًا، فيجابون بقوله: ﴿﴾ أي: قد كنتم تعملون سوءًا في الدنيا، وأنتم كذبة في قولكم، فالله سبحانه وتعالى: ﴿﴾ فهو عليمٌ بما صنعتموه في دنياكم، فها هي جهنم المعدَّة لكم فادخلوا أبوابها ماكثين فيها لا تخرجون منها أبدًا فلبئس المقام مقام هؤلاء المتكبرين على ربهم المستكبرين عن عبادته وطاعته.

هذا، ومن العلماء من قال إن قوله: ﴿﴾ من قول أهل العلم المذكورين في الآية المتقدمة، ومنهم من قال إنه قول الله ﷻ.

هذا، ومن العلماء من نزل قوله تعالى: ﴿﴾ على آية النساء ﴿﴾ وأرى هذا التنزيل بعيدًا؛ لأن آية النساء في مسلمين ظلموا أنفسهم بمعاونة أهل الكفر، أما هذه التي نحن بصددها في الكفار الأصليين والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال الذين أوتوا العلم: إن الخزي اليوم والسوء على من كفر بالله فجحد وحدانيته (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ) يقول: الذين تقبض أرواحهم الملائكة، (ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) يعني: وهم على كفرهم

وشركهم بالله، وقيل: إنه عنى بذلك من قتل من قريش ببدر، وقد أخرج إليها كرها.

وأورد نحوًا مما تقدم في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿﴾ ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله (فَأَلْقَوُا السَّلَمَ) يقول: فاستسلموا لأمره، وانقادوا له حين عاينوا الموت قد نزل بهم، (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) وفي الكلام محذوف استغني بفهم سامعيه ما دلّ عليه الكلام عن ذكره وهو: قالوا ما كنا نعمل من سوء، يخبر عنهم بذلك أنهم كذّبوا وقالوا: ما كنا نعصي الله اعتصاما منهم بالباطل رجاء أن ينجوا بذلك، فكذّبهم الله فقال: بل كنتم تعملون السوء وتصدّون عن سبيل الله (إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) يقول: إن الله ذو علم بما كنتم تعملون في الدنيا من معاصيه، وتأتون فيها ما يسخطه.

وقال في تأويل قوله تعالى: {فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) }

يقول تعالى ذكره، يقول لهؤلاء الظلمة أنفسهم حين يقولون لربهم: ما كنا نعمل من سوء: ادخلوا أبواب جهنم، يعني: طبقات جهنم (خَالِدِينَ فِيهَا) يعني: ماكثين فيها (فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) يقول: فلبئس منزل من تكبر على الله ولم يقرّ بربوبيته، ويصدّق بوحدانيته جهنم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء

الملائكة إليهم لقبض أرواحهم: {فألقوا السلم} أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: {ما كنا نعمل من سوء} كما يقولون يوم المعاد: {والله ربنا ما كنا مشركين} [الأنعام: ٢٣] {يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم} [المجادلة: ١٨].

قال الله مكذبا لهم في قيلهم ذلك: {بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين} (٧) أي: بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان، لمن كان متكبرا عن آيات الله واتباع رسله.

وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، ويأتي (٨) أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت (٩) أرواحهم في أجسادهم، وخلدت في نار جهنم، {لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها} [فاطر: ٣٦]، كما قال الله تعالى: {النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب} [غافر: ٤٦].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: {فَأَلْقَوُا السَّلَمَ}، أي: الاستسلام والخضوع. والمعنى: أظهروا كمال الطاعة والانقياد، وتركوا ما كانوا عليه من الشقاق. وذلك عندما يعاينون الموت، أو يوم القيامة. يعني: أنهم في الدنيا يشاقون الرسل، أي: يخالفونهم ويعادونهم، فإذا عاينوا الحقيقة ألقوا السلم، أي: خضعوا واستسلموا وانقادوا حيث لا ينفعهم ذلك.

ومما يدل من القرآن على أن المراد بإلقاء السلم: الخضوع والاستسلام، قوله: {وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا} [٤/ ٩٤]، على قراءة

نافع وابن عامر وحمزة بلا ألف بعد اللام؛ بمعنى الانقياد والإذعان. وقوله: {فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ} [٤/ ٩٠]، وقوله: {فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ} الآية[٤/ ٩١].

والقول بأن السلم في الآيتين الأخيرتين: الصلح والمهادنة لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن المصالح منقاد مذعن لما وافق عليه من ترك السوء، وقوله: {وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [١٦/ ٨٧]، فكله بمعنى الاستسلام والخضوع والانقياد، والانقياد عند معاينة الموت لا ينفع، كما قدمنا، وكما دلت عليه آيات كثيرة؛ كقوله: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ} الآية [٤/ ١٨]، وقوله: {فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} الآية [٤٠/ ٨٥]، وقوله: {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [١٠/ ٩١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، يعني أن الذين تتوفاهم الملائكة في حال كونهم ظالمي أنفسهم إذا عاينوا الحقيقة ألقوا السلم، وقالوا: {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ} [١٦/ ٢٨]، فقوله: {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ}، معمول قول محذوف بلا خلاف.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ:

والمعنى: أنهم ينكرون ما كانوا يعملون من السوء، وهو الكفر وتكذيب الرسل والمعاصي، وقد بين الله كذبهم، بقوله: {بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [١٦/ ٢٨].

وبين في مواضع أخر: أنهم ينكرون ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي كما

ذكر هنا، وبين كذبهم في ذلك أيضـًا؛ كقوله: {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [٦/ ٢٣-٢٤]، وقوله: {قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ} [٤٠/ ٧٤]، وقوله: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [٥٨/ ١٨]، وقوله: {وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً} [٢٥/ ٢٢]، أي: حرامًا محرمًا أن تمسونا بسوء؛ لأنا لم نفعل ما نستحق به ذلك، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله هنا: {بَلَى} [١٦/ ٢٨]، تكذيب لهم في قولهم: {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ}.

قوله تعالى: {فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ} الآية،لم يبين هنا عدد أبوابها، ولكنه بين ذلك في "سورة الحجر"، في قوله جل وعلا: {لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} [١٥/ ٤٤]، أرجو الله أن يعيذنا وإخواننا المسلمين منها ومن جميع أبوابها! إنه رحيم كريم.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة فقال:

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} أي: تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيهم وقد علم ما يلقى الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة.

{فَأَلْقَوُا السَّلَمَ} أي: استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله وقالوا: {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ} فيقال لهم: {بَلَى} كنتم تعملون السوء فـ {إِنَّ

اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} فلا يفيدكم الجحود شيئا، وهذا في بعض مواقف القيامة ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظنا أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم وتبين ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم.

{فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّم} كلُّ أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم، {فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} نار جهنم فإنها مثوى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الحي القيوم، لا يفتَّر عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يوما من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ
ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ
يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ
ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ
ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ
أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

[النحل: ٣٠-٣٤]

س: وضح معنى ما يلي:
﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ - هَلْ يَنظُرُونَ - أَمْرُ رَبِّكَ - وَحَاقَ بِهِم - مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾	تقبض الملائكة أرواحهم وهم على الإيمان والإسلام وصالح الأعمال.
﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾	هل ينتظرون.
﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾	المراد أمره بقيام الساعة.
﴿وَحَاقَ بِهِم﴾	نزل بهم وحلَّ بهم.
﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾	جزاء استهزائهم.

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا
لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ
يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ
الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: وقيل لأهل الإيمان والتوحيد والإسلام، الذين اتقوا الشرك بالله ﷻ قيل لهم - لما نزل القرآن - ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أنزل ربنا خيرًا، ثم فصلوه بقولهم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، أي: للذين استقاموا على أمر الله ﷻ حسنةٌ في هذه الدنيا، وهي طمأنينة القلب بالإيمان ورضا القلب بذلك، والعيشة الهنيئة والحياة الطيبة، والتي منها الزوجة الصالحة وغير ذلك مما يرزقهم الله به، وأعظم ذلك كله في الدنيا رضا القلب بالإيمان والتوحيد ونطق اللسان بذلك، فضلًا عن سائر صور الحياة الطيبة.

هذا، ومن العلماء من قال: إن قوله: ﴿﴾ هو قول الله ﷻ.

وقال آخرون كما سبق إنه قول المتقين لما سئلوا ماذا أنزل ربكم.

هذا، وقوله تعالى: ﴿﴾ فيها نفس الوجهين المتقدمين، ومعناه: الدار الآخرة، وما أُعد فيها من النعيم المقيم خيرٌ للذين أحسنوا في الدنيا ولنعم الدار دار المتقين ﴿﴾ جنات إقامة يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كما قال تعالى: ﴿﴾.

وقوله: ﴿﴾ أي: هكذا يجازي الله ﷻ أهل التقوى.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فمعناه، والله أعلم الذين تقبض الملائكة أرواحهم عند استيفاء آجالهم، وهم طيبون، سلموا من الشرك وسلموا من الكبائر،

تقول لهم الملائكة عند الاحتضار سلام عليكم ادخلوا الجنة، يوم تقوم الساعة جزاء أعمالكم الصالحة التي عملتموها.

هذا، ومن العلماء من قال: إن قوله: ﴿﴾ ذلك يُقال لهم يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿﴾وكل ذلك صحيح فالبشارات تتوالى في الدنيا وعند الاحتضار وفي القبر ويوم يقوم الأشهاد، وكذا بعد دخول الجنان، والله أعلم.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره: وقيل للفريق الآخر، الذين هم أهل إيمان وتقوى لله (مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا) يقول: قالوا: أنزل خيرا. وكان بعض أهل العربية من الكوفيين يقول: إنما اختلف الأعراب في قوله (قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) وقوله (خَيْرًا) والمسألة قبل الجوابين كليهما واحدة، وهي قوله (مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ) لأن الكفار جحدوا التنزيل، فقالوا حين سمعوه: أساطير الأوّلين: أي هذا الذي جئت به أساطير الأوّلين، ولم ينزل الله منه شيئا، وأما المؤمنون فصدَّقوا التنزيل، فقالوا خيرا، بمعنى أنه أنزل خيرا، فانتصب بوقوع الفعل من الله على الخير، فلهذا افترقا ثم ابتدأ الخبر فقال (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) وقد بيَّنا القول في ذلك فيما مضى قبل بما أغنى عن إعادته.

وقوله (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) يقول تعالى ذكره: للذين آمنوا بالله في هذه الدنيا ورسوله، وأطاعوه فيها، ودعوا عباد الله إلى الإيمان والعمل بما أمر الله به،حسنة، يقول: كرامة من الله (وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ) يقول: ولدار الآخرة خير لَهُمْ مِنْ دَارِ الدُّنْيا، وكرامة الله التي أعدّها لهم فيها أعظم من كرامته التي عجلها لهم في الدنيا (وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) يقول: ولنعم دار الذين

خافوا الله في الدنيا فاتقوا عقابه بأداء فرائضه وتجنب معاصيه دار الآخرة.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) وهؤلاء مؤمنون، فيقال لهم (مَاذَا أَنزلَ رَبُّكُمْ) فيقولون (خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) : أي آمنوا بالله وأمروا بطاعة الله، وحثوا أهل طاعة الله على الخير ودعوهم إليه.

وقال في تأويل قوله تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) }.

يعني تعالى ذكره بقوله (جَنَّاتُ عَدْنٍ) بساتين للمقام، وقد بيَّنا اختلاف أهل التأويل في معنى عدن فيما مضى بما أغنى عن إعادته (يَدْخُلُونَهَا) يقول: يدخلون جنات عدن، وفي رفع جنات أوجه ثلاث: أحدها: أن يكون مرفوعا على الابتداء، والآخر: بالعائد من الذكر في قوله (يَدْخُلُونَهَا) والثالث: على أن يكون خبر النعم، فيكون المعنى إذا جعلت خبر النعم: ولنعم دار المتقين جنات عدن، ويكون (يَدْخُلُونَهَا) في موضع حال، كما يقال: نعم الدار دار تسكنها أنت، وقد يجوز أن يكون إذا كان الكلام بهذا التأويل يدخلونها، من صلة جنات عدن، وقوله (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ) يقول: تجري من تحت أشجارها الأنهار (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ) يقول: للذين أحسنوا في هذه الدنيا في جنات عدن ما يشاءون مما تشتهي أنفسهم، وتلذّ أعينهم (كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ) يقول: كما يجزي الله هؤلاء الذين أحسنوا في هذه الدنيا بما وصف لكم أيها الناس أنه جزاهم به في الدنيا والآخرة، كذلك يجزي الذين اتقوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه.

وقال في تأويل قوله تعالى: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ

عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) }.

يقول تعالى ذكره: كذلك يجزي الله المتقين الذين تَقْبِض أرواحَهم ملائكةُ الله، وهم طيبون بتطييب الله إياهم بنظافة الإيمان، وطهر الإسلام في حال حياتهم وحال مماتهم.

وقوله (يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ) يعني جلّ ثناؤه أن الملائكة تقبض أرواح هؤلاء المتقين، وهي تقول لهم: سلام عليكم صيروا إلى الجنة بشارة من الله تبشرهم بها الملائكة.

وأورد بسندٍ صحيح عن أبي صخر، أنه سمع محمد بن كعب القُرَظيّ يقول: إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك فقال: السلام عليك وليّ الله، الله يقرأ عليك السلام، ثم نزع بهذه الآية (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ) ... إلى آخر الآية.

وقوله (بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) يقول: بما كنتم تصيبون في الدنيا أيام حياتكم فيها طاعة الله، طلب مرضاته.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا خبر عن السعداء، بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: {ماذا أنزل ربكم} فقالوا معرضين عن الجواب: لم (١) ينزل شيئا، إنما هذا (٢) أساطير الأولين. وهؤلاء {قالوا خيرا} أي: أنزل خيرا، أي: رحمة وبركة وحسنا لمن اتبعه وآمن به.

ثم أخبروا عما وعد الله [به] (٣) عباده فيما أنزله على رسله فقالوا: {للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير} كما قال تعالى: {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم

بأحسن ما كانوا يعملون} [النحل: ٩٧]، أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة.

ثم أخبر بأن دار الآخرة خير، أي: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كما قال تعالى: {وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير} [القصص: ٨٠] (٤) وقال تعالى: {وما عند الله خير للأبرار} [آل عمران: ١٩٨] وقال تعالى {والآخرة خير وأبقى} [الأعلى: ١٧]، وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (٥): {وللآخرة خير لك من الأولى} [الضحى: ٤].

ثم وصفوا الدار الآخرة فقالوا (٦): {ولنعم دار المتقين}

وقوله: {جنات عدن} بدل من [قوله] (٧): {دار المتقين} أي: لهم في [الدار] (٨) الآخرة {جنات عدن} أي: إقامة (٩) يدخلونها {تجري من تحتها الأنهار} أي: بين أشجارها وقصورها، {لهم فيها ما يشاءون} كما قال تعالى: {وفيها ما تشتهيه (١٠) الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون} [الزخرف: ٧١]، وفي الحديث: وَفِي الْحَدِيثِ: **«إِنَّ السَّحَابَةَ لَتَمُرُّ بِالْمَلَأِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَى شَرَابِهِمْ (١١)، فَلَا يَشْتَهِي أَحَدٌ مِنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَمْطَرَتْهُ عَلَيْهِمْ، حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ لَمَنْ يَقُولُ: أَمْطِرِينَا كواعب أترابًا، فيكون ذلك»**.

{كذلك يجزي الله المتقين} أي: كذلك (١٤) يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله.

ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار، أنهم (١٥) طيبون، أي: مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم (١) بالجنة، كما قال تعالى: {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم

الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم} [فصلت: ٣٠-٣٢].

وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء} [إبراهيم: ٢٧].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) أي قالوا: أنزل خيرا، وتم الكلام. و" ماذا" على هذا اسم واحد. وكان يرد الرجل من العرب مكة في أيام الموسم فيسأل المشركين عن محمد عليه السلام فيقولون: ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون. ويسأل المؤمنين فيقولون: أنزل الله عليه الخير والهدى، والمراد القرآن. وقيل: إن هذا يقال لأهل الإيمان يوم القيامة. قال الثعلبي: فإن قيل: لم ارتفع الجواب في قوله:" أساطير الأولين" وانتصب في قوله:" خيرا"؟ فالجواب أن المشركين لم يؤمنوا بالتنزيل، فكأنهم قالوا: الذي يقوله محمد هو أساطير الأولين. والمؤمنين آمنوا بالنزول فقالوا: أنزل خيرا. وهذا مفهوم معناه من الإعراب، والحمد لله.

قوله تعالى: (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة قيل: هو من كلام الله عز وجل. وقيل: هو من جملة كلام الذين اتقوا. والحسنة هنا: الجنة، أي من أطاع الله فله الجنة غدا. وقيل:" للذين أحسنوا" اليوم حسنة في الدنيا من النصر والفتح والغنيمة: (ولدار الآخرة خير) أي ما ينالون في الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا، لفنائها وبقاء الآخرة. (ولنعم دار المتقين) فيه

وجهان- قال الحسن: المعنى ولنعم دار المتقين الدنيا، لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة ودخول الجنة. وقيل: المعنى ولنعم دار المتقين الآخرة، وهذا قول الجمهور. وعلى هذا تكون (جنات عدن) بدلا من الدار فلذلك ارتفع. وقيل: ارتفع على تقدير هي جنات، فهي مبينة لقوله:" دار المتقين". أو تكون مرفوعة بالابتداء، التقدير: جنات عدن نعم دار المتقين.

وقال:

﴿طيبين﴾ فيه ستة أقوال: الأول: " طيبين" طاهرين من الشرك. الثاني- صالحين. الثالث- زاكية أفعالهم وأقوالهم. الرابع- طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله تعالى. الخامس- طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله. السادس-" طيبين" أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم، بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلط. والله أعلم. (يقولون سلام عليكم) يحتمل وجهين: أحدهما- أن يكون السلام إنذارا لهم بالوفاة. الثاني- أن يكون تبشيرا لهم بالجنة، لأن السلام أمان.

وقال:

وقوله: (ادخلوا الجنة) يحتمل وجهين: أحدهما- أن يكون معناه أبشروا بدخول الجنة. الثاني- أن يقولوا ذلك لهم في الآخرة. (بما كنتم تعملون) يعني في الدنيا من الصالحات.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: {وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن دار الآخرة خير من دار الدنيا. وكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ...} الآية [٢٨/ ٨٠]، وقوله:

{وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ} [٣/ ١٩٨]، وقوله: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}، وقوله: {وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى} [٩٣/ ٤]، وقوله: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ...} الآية [٣/ ١٤-١٥].

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ:

أسند هنا جل وعلا التوفي للملائكة في قوله: {تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ} [١٦/ ٣٢]، وأسنده في "السجدة" لملك الموت في قوله: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ} [٣٢/ ١١]، وأسنده في "الزمر" إلى نفسه جل وعلا في قوله: {اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا..} الآية [٣٩/ ٤٢]، وقد بينا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة "السجدة": أنه لا معارضة بين الآيات المذكورة؛ فإسناده التوفي لنفسه، لأنه لا يموت أحد إلا بمشيئته تعالى، كما قال: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا} [٣/ ١٤٥]، وأسنده لملك الموت؛ لأنه هو المأمور بقبض الأرواح، وأسنده إلى الملائكة؛ لأن لملك الموت أعوانًا من الملائكة ينزعون الروح من الجسد إلى الحلقوم فيأخذها ملك الموت، كما قاله بعض العلماء، والعلم عند الله تعالى.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

لما ذكر الله قيل المكذبين بما أنزل الله، ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزله الله نعمة عظيمة، وخير عظيم امتن الله به على العباد، فقبلوا

تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعلموها وعملوا لها {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا} في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله فلهم {فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً} رزق واسع، وعيشه هنية، وطمأنينة قلب، وأمن وسرور.

{وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ} من هذه الدار وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات، فإن هذه نعيمها قليل محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة ولهذا قال: {وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ} {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ} أي: مهما تمنته أنفسهم وتعلقت به إرادتهم حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها، فلا يمكن أن يطلبوا نوعا من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب وسرور الأرواح، إلا وهو حاضر لديهم، ولهذا يعطي الله أهل الجنة كل ما تمنوه عليه، حتى إنه يذكرهم أشياء من النعيم لم تخطر على قلوبهم.

فتبارك الذي لا نهاية لكرمه، ولا حد لجوده الذي ليس كمثله شيء في صفات ذاته، وصفات أفعاله وآثار تلك النعوت، وعظمة الملك والملكوت، {كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ} لسخط الله وعذابه بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات المتعلقة بالقلب والبدن واللسان من حقه وحق عباده، وترك ما نهاهم الله عنه.

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ} مستمرين على تقواهم {طَيِّبِينَ} أي: طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس يتطرق إليهم ويخل في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته وألسنتهم بذكره والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه، {يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ} أي: التحية الكاملة حاصلة لكم والسلامة من كل آفة.

وقد سلمتم من كل ما تكرهون {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} من الإيمان بالله والانقياد لأمره، فإن العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومنته عليهم لا بحولهم وقوتهم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ماذا ينتظر هؤلاء المشركون المعرضون عن طاعة الله ﷻ حتى يؤمنوا؟!!

فقد جاءتهم الحجج الواضحات والدلالات البينات على وحدانية الله ﷻ وقدرته، وصدق رسله فماذا يريدون بعد ذلك إنهم بامتناعهم عن الإيمان لا ينبغي أن ينتظروا إلا مجيء الملائكة بالعذاب، أو مجيء الملائكة لقبض أرواحهم، أو أمر الله ﷻ بقيام الساعة فعند ذلك يؤمنوا، ولكن هيهات هيهات أن ينفعهم هذا الإيمان.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: كالتكذيب والكفر الذي سلكه هؤلاء المشركون فكذلك فعلت الأمم المكذبة من قبلهم رفضوا الإيمان، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا حتى أتاهم عذاب اله وأتتهم الملائكة لقبض أرواحهم، ولكن كما قال تعالى: ﴿﴾، وكما قال: ﴿﴾، أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: ما بخسهم الله حقهم ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بإنزالها أسوأ المنازل في الجحيم والعياذ بالله.

﴿ أي: فحلَّ بهم جزاء أعمالهم السيئة التي عملوها، وحاق بهم، حلَّ بهم ونزل جزاء استهزائهم وكفرهم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: هل ينتظر هؤلاء المشركون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، أو يأتي أمر ربك بحشرهم لموقف القيامة (كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) يقول جلّ ثناؤه: كما يفعل هؤلاء من انتظارهم ملائكة الله لقبض أرواحهم، أو إتيان أمر الله فعل أسلافهم من الكفرة بالله، لأن ذلك في كلّ مشرك بالله (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ) يقول جلّ ثناؤه: وما ظلمهم الله بإحلال سُخْطه، (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) بمعصيتهم ربهم وكفرهم به، حتى استحقوا عقابه، فعجَّل لهم.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ) قال: بالموت، وقال في آية أخرى (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ) وهو ملك الموت، وله رسل، قال الله تعالى (أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ) ذاكم يوم القيامة.

وقال في تأويل قوله تعالى: {فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤)}.

يقول تعالى ذكره: فأصاب هؤلاء الذين فعلوا من الأمم الماضية فعل هؤلاء المشركين من قريش سيئات ما عملوا، يعني عقوبات ذنوبهم، ونقم معاصيه التي اكتسبوها (وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) يقول: وحلّ بهم من عذاب الله ما كانوا يستهزئون منه، ويسخرون عند إنذارهم ذلك رسلُ الله،

ونزل ذلك بهم دون غيرهم من أهل الإيمان بالله.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى متهددا للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم بقبض أرواحهم، قاله قتادة.

{أو يأتي أمر ربك} (٢) أي: يوم القيامة وما يعاينونه (٣) من الأهوال.

وقوله: {كذلك فعل الذين من قبلهم} أي: هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى (٤) ذاقوا بأس الله، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال. {وما ظلمهم الله} ؛ لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، {ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} أي: بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به، فلهذا أصابتهم (٥) عقوبة الله على ذلك، {وحاق بهم} أي: أحاط بهم من العذاب الأليم {ما كانوا به يستهزئون} أي: يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله؛ فلهذا يقال يوم القيامة: {هذه النار التي كنتم بها تكذبون} [الطور: ١٤].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: {هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة}.

هذا راجع إلى الكفار، أي ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم. وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائي وخلف" يأتيهم الملائكة" بالياء. والباقون بالتاء على ما تقدم. و يأتي أمر ربك)

أي بالعذاب من القتل كيوم بدر، أو الزلزلة والخسف في الدنيا. وقيل: المراد يوم القيامة. والقوم لم ينتظروا هذه الأشياء لأنهم ما آمنوا بها، ولكن

امتناعهم عن الإيمان أوجب عليهم العذاب، فأضيف ذلك إليهم، أي عاقبتهم العذاب. {كذلك فعل الذين من قبلهم}.

أي أصروا على الكفر فأتاهم أمر الله فهلكوا. {وما ظلمهم الله}.

أي بتعذيبهم وإهلاكهم، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك.

وقوله تعالى: {فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن}.

قوله تعالى: (فأصابهم سيئات ما عملوا) قيل: فيه تقديم وتأخير، التقدير: كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فأصابهم عقوبات كفرهم جزاء الخبيث من أعمالهم. (وحاق بهم) أي أحاط بهم ودار. {ما كانوا به يستهزؤن}. أي عقاب استهزائهم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا، وذكِّروا فلم يتذكروا، {إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ} لقبض أرواحهم {أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ} بالعذاب الذي سيحل بهم فإنهم قد استحقوا وقوعه فيهم، {كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} كذبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب.

{وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ} إذ عذبهم {وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} فإنها مخلوقة لعبادة الله ليكون مآلها إلى كرامة الله فظلموها وتركوا ما خلقت له، وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء الملازم.

{فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا} أي: عقوبات أعمالهم وآثارها، {وَحَاقَ بِهِمْ} أي: نزل {مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم

بالعذاب استهزأوا به، وسخروا ممن أخبر به فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ
ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى
ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ
ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ
ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾
إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ
﴿٣٧﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا
وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ
وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ
أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي
ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ
رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ
أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ
لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ

﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ
رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ
ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن
فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾

[النحل: ٣٥-٥٠]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ٱلطَّٰغُوتَ - حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ - عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ - لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ - جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ - لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ - يَتَوَكَّلُونَ - أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ - بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ - مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ - يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ - بِمُعۡجِزِينَ - يَأۡخُذَهُمۡ - عَلَىٰ تَخَوُّفٖ - يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ - دَآبَّةٖ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾	الشيطان – كل ما عُبد من دون الله ورضى بذلك.
﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾	تحققت فيه كلمة الله بأنه سيموت على الكفر والضلال.
﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾	نهاية المكذبين بوحدانية الله والمكذبين للرسل.
﴿لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾	من أضله الله فلن يهتدي.
﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾	مجتهدين في الإيمان – مغلِّظين للأيمان.
﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾	لنسكننهم سكنًا طيبًا في الدنيا – لنرزقنهم رزقًا حسنًا.
﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾	يعتمدون.
﴿أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾	أهل الكتاب.
﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾	بالحجج والكتب.
﴿مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾	مكروا بالناس ليوقعوهم في السيئات التي أعظمها الشرك بالله.

﴿ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾	يأخذهم في أسفارهم وتنقلهم من بلدة إلى بلدة - يأخذهم أثناء نومهم وتقلبهم في الفراش.
﴿ بِمُعْجِزِينَ ﴾	بفائتين - بمغالبين الله - بمعجزي الله - يهلكهم وهو يرون الهلاك وأسبابه مقبلة عليهم
﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾	يتراجع الظل من اتجاه للاتجاه الآخر.
﴿ دَآبَّةٍ ﴾	كل ما يدب على الأرض.

❁ ❁ ❁

حقٌّ يريد به المشركون الباطل

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: وقال الذين عبدوا مع الله آلهة أُخرى وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا.

قالوا: لو لم يرَ الله بعبادتنا لهذه الآهلة لمنعنا منها ومن عبادتها، وكذا لمنع آباءنا من عبادتها وكذا لو شاء ما حرّمنا شيئًا أحلَّه هو، فلو شاء لمنعنا من تحريم هذه الأشياء التي حرمناها كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك، ولأنزل بنا العقوبة والعذاب على ذلك، فكونه لم يُنزل علينا عقوبة ولا عذابًا علمنا بذلك أنه راضٍ عن عبادتنا آلهة أُخر معه، وعلمنا بذلك رضاه بالأشياء التي حرمناها:

فهكذا جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكجدالهم هذا جادل من كان قبلهم من أهل الكفر الذين سبقوهم فقل لهؤلاء الذين احتجوا بعدم إنزال العذاب عليهم، ليس علينا معشر الرسل إلا تبليغكم بلاغًا مبينًا واضحًا وظاهرًا أما إنزال العذاب عليكم أو تأجيله وتركه فذاك أمرٌ موكول إلى الله ﷻ ليس إلى أحدٍ من خلقه أما قولكم يا أهل الكفر إن الله راض بذلك الكفر منكم، فقد كذبكم الله في ذلك، وقد أعذر إليكم وأرسل إليكم الرسل وأنزل عليهم الكتب، وقد قال: ﴿﴾، ولقد بعث ربنا في كل أمة رسولًا بأمرهم بعبادة الله ﷻ وترك عبادة الطاغوت، كما قال تعالى: ﴿﴾، وكما قال: ﴿﴾.

فأقام الله الحجج وأرسل الله الرسل، وأنزل الله الكتب وضرب الله الأمثال

للناس، للدلالة على وحدانيته وأنه لا شريك له فقطع على الكافرين أعذارهم بذلك.

هذا، ومن العلماء من قال: إن هذا القول من أهل الكفر كان على سبيل الاستهزاء والسخرية.

هذا، وقد يحمل قول أهل الكفر ﴿﴾ على أن مرادهم بهذا المنع الكوني القدري، وليس المنع الشرعي الديني، بمعنى أنهم يقولون إن الله قدر علينا أن نعبد غيره فسنبقى على ما قدره الله علينا، ولو أراد منعنا لهدانا للإيمان:

وجواب ذلك من وجوه:

أحدها: من الذي أدراكم بالمقدر عليكم أو على غيركم!!

ثانيها: لماذا إذا تعاقبون من سرق أموالكم واعتدى على نسائكم وقتل منكم من قتل؟!! لماذا تعاقبون من يفعل ذلك بكم.

ولم لا تقولون إن السارق الذي سرق أموالنا قدَّر الله عليه أن يكون سارقًا، لماذا لم تتركوه إذن، ولماذا لم تتركوا القاتل الجاني وغير ذلك.

ثالثها: لماذا تتركون أوامر الله الشرعية الدينية الواضحة الظاهرة فتتركون أوامر الله وتقترفوا ما نهاكم عنه.

فسيكون قولهم حينئذٍ حقًّا يريدون به باطلًا، أو يكونوا قالوا ذلك ساخرين مستهزئين. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

قول تعالى ذكره: وقال الذين أشركوا بالله فعبدوا الأوثان والأصنام من دون الله: ما نعبد هذه الأصنام إلا لأن الله قد رضي عبادتنا هؤلاء، ولا نحرم ما حرمنا من البحائر والسوائب، إلا أن الله شاء منا ومن آبائنا تحريمناها ورضيه،

لولا ذلك لقد غير ذلك ببعض عقوباته أو بهدايته إيانا إلى غيره من الأفعال.
يقول تعالى ذكره: كذلك فعل الذين من قبلهم من الأمم المشركة الذين استَن هؤلاء سنتهم، فقالوا مثل قولهم، سلكوا سبيلهم في تكذيب رسل الله، واتباع أفعال آبائهم الضلال، وقوله (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) يقول جلّ ثناؤه: فهل أيها القائلون: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، على رسلنا الذين نرسلهم بإنذاركم عقوبتنا على كفركم، إلا البلاغ المبين: يقول: إلا أن تبلغكم ما أرسلنا إليكم من الرسالة. ويعني بقوله (المُبِينُ) : الذي يبين عن معناه لمن أبلغه، ويفهمه من أرسل إليه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر، في قولهم: {لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء} أي: من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء (١) أنفسهم، ما لم ينزل الله به سلطانا.

ومضمون كلامهم: أنه لو كان تعالى كارها لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكنا (٢) منه. قال الله رادا عليهم شبهتهم: {فهل على الرسل إلا البلاغ المبين} أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يعيره عليكم (٣) ولم (٤) ينكره، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كل أمة رسولا أي: في كل قرن من الناس وطائفة رسولا وكلهم يدعو (٥) إلى عبادة الله، وينهى (٦) عن عبادة ما سواه: {أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}.

وانظر ما سيأتي في تفسير الآية التي تليها عن الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا، ولا حرموا شيئا من [الأنعام] التي أحلها كالبحيرة والوصيلة والحام ونحوها من دونه، وهذه حجة باطلة، فإنها لو كانت حقا ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب. فلو كان يحب ذلك منهم لما عذبهم، وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاءت به الرسل، وإلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله.

فإن الله أمرهم ونهاهم ومكنهم من (١) القيام بما كلفهم وجعل لهم قوة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم. فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، هذا وكل أحد يعلم بالحس قدرة الإنسان على كل فعل يريده من غير أن ينازعه منازع، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله وتكذيب الأمور العقلية والحسية، {فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ} أي: البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه، واحتجوا عليهم بالقدر، فليس للرسل من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله عز وجل.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

ج: هذا - والله أعلم-: مفاده أن الله ﷻ أعذر إلى الخلق وبعث في كل قرنٍ من القرون، أو جيل من الأجيال رسولًا يحذرهم ويأمرهم وينهاهم، يأمرهم

بعبادة الله ﷻ وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة الشياطين وعن عبادة أي شيء غير الله ﷻ، فالطاغوت الشيطان والطاغوت كل معبود سوى الله ﷻ فمن رضى بعبادة عابديه، فهكذا أرسلنا الرسل واصل دعوتهم هو هذا: الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة الطواغيت، وهذا الذي تضمنت كلمة لا إله إلا الله، وهو الذي تضمنته الآية الكريمة: ﴿ ﴾.

وكذا قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ ﴾.

وكذا قوله تعالى: ﴿ ﴾.

إلى غير ذلك من الآيات.

أما قوله تعالى: ﴿ ﴾ أي: من الأمم السابقة فريق وفقه الله للإيمان وشرح صدره له فآمن وسلم، ومنهم من بقي على كفره وتحققت فيه كلمة الله التي قضاها عليه وهي أن الله حكم عليها بالشقاوة، بأن يكون شقيًّا من أهل النار كما قال: ﴿ ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿ ﴾ أي: سير المتدبر المتأمل المستدل المعتبر ﴿ ﴾ الذين كذبوا الرسل، انظروا ماذا حلَّ بهم لقد انتقم الله منهم وجعلهم عبرة ونكالًا.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولقد بعثنا أيها الناس في كلّ أمة سلفت قبلكم رسولا كما بعثنا فيكم بأن اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأفردوا له الطاعة، وأخلصوا له العبادة (وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) يقول: وابعدوا من الشيطان، واحذروا أن يغويكم، ويصدّكم عن سبيل الله، فتضلوا، (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ) يقول: فممن بعثنا فيهم رسلنا من هدى الله، فوفَّقه لتصديق رسله، والقبول

منها، والإيمان بالله، والعمل بطاعته، ففاز وأفلح، ونجا من عذاب الله (وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ) يقول: وممن بعثنا رسلنا إليه من الأمم آخرون حقَّت عليهم الضلالة، فجاروا عن قصد السبيل، فكفروا بالله وكذّبوا رسله، واتبعوا الطاغوت، فأهلكهم الله بعقابه، وأنزل عليهم بأسه الذي لا يردّ عن القوم المجرمين، (فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) يقول تعالى ذكره لمشركي قريش: إن كنتم أيها الناس غير مصدّقي رسولنا فيما يخبركم به عن هؤلاء الأمم الذين حلّ بهم ما حلّ من بأسنا بكفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله، فسيروا في الأرض التي كانوا يسكنونها، والبلاد التي كانوا يعمرونها، فانظروا إلى آثار الله فيهم، وآثار سخطه النازل بهم، كيف أعقبهم تكذيبهم رسل الله ما أعقبهم، فإنكم ترون حقيقة ذلك، وتعلمون به صحة الخبر الذي يخبركم به محمد صلى الله عليه وسلم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

... وبعث في كل أمة رسولًا، أي: في كل قرن وطائفة من الناس رسولًا، وكلهم يدعو إلى عبادة الله وينهى عن عبادة ما سواه ﴿ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: {واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون} [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: {ولقد بعثنا

في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: {لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء} فمشيئته تعالى الشرعية منتفية (٧)؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهي (٨) تمكينهم من ذلك قدرا، فلا حجة لهم فيها (٩) لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه عير (١٠) عليهم، وأنكر (١١) عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل؛ فلهذا قال: {فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين} أي: اسألوا (١٢) عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف {دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها} [محمد: ١٠]، {ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير} [الملك: ١٨].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله) أي بأن اعبدوا الله ووحدوه. (واجتنبوا الطاغوت) أي اتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال. فمنهم من هدى الله أي أرشده إلى دينه وعبادته. (ومنهم من حقت عليه الضلالة) أي بالقضاء السابق عليه حتى مات على كفره، وهذا يرد على القدرية، لأنهم زعموا أن الله هدى الناس كلهم ووفقهم للهدى، والله تعالى يقول:" فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة" وقد تقدم هذا في غير موضع. (فسيروا في الأرض) أي فسيروا معتبرين في الأرض. (فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أي كيف

صار آخر أمرهم إلى الخراب والعذاب والهلاك.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه بعث في كل أمة رسولاً بعبادة الله وحده، واجتناب عبادة ما سواه. وهذا هو معنى "لا إله إلا الله"، لأنها مركبة من نفي وإثبات، فنفيها هو خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات، وإثباتها هو إفراده جل وعلا بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم صلوات الله وسلامه.

وأوضح هذا المعنى كثيراً في القرآن عن طريق العموم والخصوص، فمن النصوص الدالة عليه مع عمومها قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [٢١/ ٢٥]، وقوله: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [٤٣/ ٤٥]، ونحو ذلك من الآيات.

ومن النصوص الدالة عليه مع الخصوص في أفراد الأنبياء وأممهم قوله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [٧/ ٥٩]، وقوله تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [٧/ ٦٥]، وقوله تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [٧/ ٧٣]، وقوله: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [٧/ ٨٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أن كل ما عبد من دون الله، فهو طاغوت، ولا تنفع عبادة الله إلا بشرط اجتناب عبادة ما سواه؛ كما بينه تعالى بقوله: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} [٢/ ٢٥٦]، وقوله: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [١٢/ ١٠٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: {فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الأمم التي بعث فيها الرسل بالتوحيد منهم سعيد، ومنهم شقي؛ فالسعيد منهم يهديه الله إلى اتباع ما جاءت به الرسل، والشقي منهم يسبق عليه الكتاب فيكذب الرسل، ويكفر بما جاؤوا به، فالدعوة إلى دين الحق عامة، والتوفيق للهدى خاص؛ كما قال تعالى: {وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [١٠/ ٢٥]، فقوله: {فَمِنْهُمْ} [١٦/ ٣٦]، أي: من الأمم المذكورة في قوله: {فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً}، وقوله: {مَنْ هَدَى اللهُ}، أي: وفقه لاتباع ما جاءت به الرسل.

ثم قال:

وقوله: {وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ...} [١٦/ ٣٦]، أي: وجبت عليه ولزمته، لما سبق في علم الله من أنه يصير إلى الشقاوة. والمراد بالضلالة: الذهاب عن طريق الإسلام إلى الكفر.

وقد بين تعالى هذا المعنى في آيات أخر؛ كقوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} [٦٤/ ٢]، وقوله: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [١١/ ١٠٥]، وقوله: {فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} [٤٢/ ٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: {إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية: أن حرص النَّبي صلى الله عليه وسلم على إسلام قومه لا يهدي من سبق في علم الله أنه شقي.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أُخر؛ كقوله: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [٢٨/ ٥٦]، وقوله: {وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [٥/ ٤١]، وقوله: {مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [٧/ ١٨٦]، وقوله: {وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [٦/ ١٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له {أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين، {فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ} فاتبعوا المرسلين علما وعملا {وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ} فاتبع سبيل الغي.

{فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ} بأبدانكم وقلوبكم {فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} فإنكم سترون من ذلك العجائب، فلا تجدون مكذبا إلا كان عاقبته الهلاك.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: إن تحرص على هداية هؤلاء المشركين فلا ينبغي أن تذهب نفسك عليهم حسرات، واعلم أن من أضله الله ﷻ لن يهتدي وإن حرصت على هدايته، ﴿﴾، وما لهؤلاء المشركين من ناصرين ينصرونهم من دون الله.

والآية كقوله تعالى: ﴿﴾.

وكقوله تعالى: ﴿﴾.

وكقوله: ﴿﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إن تحرص يا محمد على هدى هؤلاء المشركين إلى الإيمان بالله واتباع الحق (فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ)

واختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامَّة قرّاء الكوفيين (فإنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يَضِلُّ) بفتح الياء من يهدي، وضمها من يضلّ، وقد اختلف في معنى ذلك قارِئوه كذلك، فكان بعض نحويي الكوفة يزعم أن معناه: فإن الله من أضله لا يهتدي، وقال: العرب تقول: قد هدى الرجل: يريدون قد اهتدى، وهدى واهتدى بمعنى واحد، وكان آخرون منهم يزعمون أن معناه: فإن الله لا يهدي من أضله، بمعنى: أن من أضله الله فإن الله لا يهديه. وقرأ ذلك عامَّة قرّاء المدينة والشام والبصرة (فإِنَّ اللهَ لا يُهْدَى) بضم الياء من يُهدى ومن يضل، وفتح الدال من يُهدَى بمعنى: من أضله الله فلا هادي له.

وهذه القراءة أولى القراءتين عندي بالصواب، لأن يهدي بمعنى يهتدي قليل في كلام العرب غير مستفيض، وأنه لا فائدة في قول قائل: من أضله الله فلا يهديه، لأن ذلك مما لا يجهله أحد، وإذ كان ذلك كذلك، فالقراءة بما كان مستفيضا في كلام العرب من اللغة بما فيه الفائدة العظيمة أولى وأحرى.

فتأويل الكلام لو كان الأمر على ما وصفنا: إن تحرص يا محمد على هداهم، فإن من أضله الله فلا هادي له، فلا تجهد نفسك في أمره، وبلغه ما أرسلت به لتتم عليه الحجة (وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) يقول: وما لهم من ناصر ينصرهم من الله إذا أراد عقوبتهم، فيحول بين الله وبين ما أراد من عقوبتهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم أخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى: {ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا} [المائدة: ٤١]، وقال نوح لقومه: {ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم} [هود: ٣٤]، وقال في هذه الآية الكريمة: {إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل} كما قال تعالى: {من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم (١) في طغيانهم يعمهون} [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالى: {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم} [يونس: ٩٦، ٩٧].

فقوله: {فإن الله} أي: شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلهذا قال: {لا يهدي من يضل} أي: من أضله فمن الذي يهديه من بعد الله؟ أي: لا أحد {وما لهم من ناصرين} أي: ينقذونهم (٢) من عذابه ووثاقه، {ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين} [الأعراف: ٥٤].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: وأقسموا (أي: أهل الشرك) بالله مجتهدين في الأيمان مغلظين لها مكررين لها مؤكدين، أقسموا أن الله ﷻ لن يبعث من يموت، وهذا القسم غريب من أهل الكفر فكيف يقسمون معظمين الله ﷻ بقسمهم ومع ذلك ينفون قدرته على البعث؟؟!! فقل لهؤلاء بلى سيبعث الله الموتى، وعد الله بذلك، ووعده حق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله ﷻ يتحقق.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: أن الساعة آتية وكائنة ليظهر الله ﷻ للناس وجه الحق في المسائل التي كانوا في دنياهم يختلفون فيها، فكانوا يختلفون في البعث ويظهر لهم وجه الحق فيه، وكانوا يتخلفون في الجنة والنار ويختلف في وعود الله التي وعد بها في الدنيا... كل ذلك كان بين الناس اختلاف فيه يظهره الله يوم القيامة، وكذا كل اختلاف كان في الدنيا يظهر الله وجه الصواب ووجه الحق فيه يوم القيامة.

﴿﴾ إذا بعثهم الله وكانوا يكذبون بالبعث ليعلموا ﴿﴾ في دعواهم أن لا بعث ولا ثواب ولا عقاب.

ثم يبين الله ﷻ قدرته على البعث بقوله: ﴿﴾ أي: أن أمرنا يتحقق بكلمة كن، لا يُعجزنا شيء، فيكون الأمر كما أردنا وكما أمرنا.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وحلف هؤلاء المشركون من قريش بالله جَهْدَ أيمانِهِمْ حلفهم، لا يبعث الله من يموت بعد مماته، وكذبوا وأبطلوا في أيمانهم التي حلفوا بها كذلك، بل سيبعثه الله بعد مماته، وعدا عليه أن يبعثهم وعد عباده، والله لا يخلف الميعاد (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) يقول: ولكن أكثر قريش لا يعلمون وعد الله عباده، أنه باعثهم يوم القيامة بعد مماتهم أحياء.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ) تكذيبا بأمر الله أو بأمرنا، فإن الناس صاروا في البعث فريقين: مكذّب ومصدّق، ذُكر لنا أن رجلا قال لابن عباس: إن ناسا بهذا العراق يزعمون أن عليا مبعوث قبل يوم القيامة، ويتأوّلون هذه الآية، فقال ابن عباس: كذب أولئك، إنما هذه الآية للناس عامَّة، ولعمري لو كان عليّ مبعوثا قبل يوم القيامة ما أنكحنا نساءه، ولا قسمنا ميراثه.

وقال في تأويل قوله تعالى: {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)}

يقول تعالى ذكره: بل ليبعثن الله من يموت وعدا عليه حقا، ليبين لهؤلاء الذين يزعمون أن الله لا يبعث من يموت، ولغيرهم الذين يختلفون فيه من إحياء الله خلقه بعد فنائهم، وليعلم الذين جحدوا صحة ذلك، وأنكروا حقيقته أنهم كانوا كاذبين في قيلهم: لا يبعث الله من يموت.

ويقول تعالى ذكره: إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائناهم، ولا في غير ذلك ما نخلق ونكوّن ونحدث، لأنا إذا أردنا خلقه وإنشاءه، فإنما نقول له كن فيكون، لا معاناة فيه، ولا كُلفة علينا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبرا عن المشركين: أنهم حلفوا فأقسموا {بالله جهد أيمانهم} أي: اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان على أنه {لا يبعث الله من يموت} أي: استبعدوا ذلك، فكذبوا (٣) الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه. فقال تعالى مكذبا لهم ورادا عليهم: {بلى} أي: بلى سيكون ذلك، {وعدا عليه حقا} (٤) أي: لا بد منه، {ولكن أكثر الناس لا يعلمون} أي: فلجهلهم (٥) يخالفون الرسل ويقعون في الكفر.

ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: {ليبين لهم} أي: للناس {الذي يختلفون فيه} أي: من كل شيء، و {ليجزي (٦) الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} [النجم: ٣١]، {وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين} أي: في أيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت؛ ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا، وتقول (٧) لهم الزبانية: {هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون} [الطور: ١٤-١٦].

ثم أخبر تعالى عن قدرته (٨) على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما أمره إذا (٩) أراد شيئا أن يقول له: "كن"، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كما قال (١٠) {وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر} [القمر: ٥٠] وقال: {ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة} [لقمان: ٢٨]، وقال في هذه الآية الكريمة: {إنما قولنا (١١) لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون} [النحل:

٤٠] ، أي: أن يأمر به دفعة (١٢) واحدة فإذا هو كائن، كما قال الشاعر (١) :

إذا مـــا أراد الله أمـــرا فإنمـــا يقـول لـه: "كـن"، قولـة فيكـون

أي: أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه [هو] (٢) الواحد القهار العظيم، الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) هذا تعجيب من صنعهم، إذ أقسموا بالله وبالغوا في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت. ووجه التعجيب أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجزونه عن بعث الأموات.

(بلى) هذا رد عليهم، أي بلى ليبعثنهم. (وعدا عليه حقا) مصدر مؤكد، لأن قوله" يبعثهم «١» " يدل على الوعد، أي وعد البعث وعدا حقا. (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أنهم مبعوثون. وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم" قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وقد تقدم «٢» ، ويأتي.

وقال:

قوله تعالى: (ليبين لهم) أي ليظهر لهم. (الذي يختلفون فيه) أي من أمر البعث. (وليعلم الذين كفروا) بالبعث وأقسموا عليه (أنهم كانوا كاذبين) وقيل: المعنى ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ليبين لهم الذي يختلفون فيه، والذي اختلف فيه المشركون والمسلمون أمور: منها البعث، ومنها عبادة

الأصنام، ومنها إقرار قوم بأن محمدا حق ولكن منعهم من اتباعه التقليد، كأبي طالب.

وقال في قوله تعالى: {إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون (٤٠)}.

أعلمهم سهولة الخلق عليه، أي إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائهم، ولا في غير ذلك مما نحدثه، لأنا إنما نقول له كن فيكون.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه لا يتعاصى على قدرته شيء، وإذ يقول للشيء: {كُنْ}، فيكون بلا تأخير. وذلك أن الكفار لما {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ} [١٦/ ٣٨]، ورد الله عليهم كذبهم بقوله: {بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً} بين أنه قادر على كل شيء، وأنه كلما قال لشيء {كُنْ} كان.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أُخر؛ كقوله في الرد على من قال: {مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} [٣٦/ ٧٨]: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [٣٦/ ٨٢].

وبين أنه لا يحتاج أن يكرر قوله: {كُنْ}، بل إذا قال للشيء "كن" مرة واحدة، كان في أسرع من لمح البصر، في قوله: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [٥٤/ ٥٠]، ونظيره قوله: {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [١٦/ ٧٧]، وقال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ..} الآية [٣/ ٥٩]،

وقال: {مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [٣١/ ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وعبر تعالى عن المراد قبل وقوعه باسم الشيء؛ لأن تحقق وقوعه كالوقوع بالفعل؛ فلا تنافي الآية إطلاق الشيء على خصوص الموجود دون المعدوم؛ لأنه لما سبق في علم الله أنه يوجد ذلك الشيء، وأنه يقول له كن فيكون ـ كان تحقق وقوعه بمنزلة وقوعه، أو لأنه أطلق عليه اسم الشيء باعتبار وجوده المتوقع، كتسمية العصير خمراً في قوله: {إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا} [١٢/ ٣٦] ـ نظراً إلى ما يؤول إليه في ثاني حال.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله أنهم {أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ} أي: حلفوا أيمانا مؤكدة مغلظة على تكذيب الله، وأن الله لا يبعث الأموات، ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا ترابا، قال تعالى مكذبا لهم: {بَلَى} سيبعثهم ويجمعهم ليوم لا ريب فيه {وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا} لا يخلفه ولا يغيره {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} ومن جهلهم العظيم إنكارهم للبعث والجزاء، ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث فقال: {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ} من المسائل الكبار والصغار، فيبين حقائقها ويوضحها.

{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ} حين يرون أعمالهم حسرات عليهم، وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك، وحين يرون ما يعبدون حطبا لجهنم، وتكور الشمس والقمر وتتناثر النجوم، ويتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات، وأنهن مفتقرات إلى الله في جميع الحالات، وليس ذلك على الله بصعب، ولا شديد فإنه إذا أراد شيئا قال له:

كن فيكون، من غير منازعة ولا امتناع، بل يكون على طبق ما أراده وشاءه.

❁ ❁ ❁

الوعد الحسن للمهاجرين في سبيل اللّه

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

ج: هذا - والله أعلم -: وعدٌ من الله ﷻ لعباده المؤمنين الذين فارقوا ديارهم وأوطانهم إيثارًا لمرضاة الله ﷻ وطلبًا لجناته، وكذا فارق كثيرٌ منهم أهله وترك أولاده ابتغاء مرضاة الله ولإقامة دين الله بعد أن وقع عليهم الظلم من أقوامهم، وبعد أن أوذوا في سبيل الله، هؤلاء لنسكننهم منازل طيبة حسنة في الدنيا ولنوسعن عليهم في الأرزاق ولنفتحن لهم البلاد وغير ذلك من نعيم الدنيا، وكذا فإن الله ﷻ أعدَّ لهم في الآخرة ما هو أعظم من ذلك وأكبر من ذلك، أعدَّ لهم جنات النعيم وجنات الفردوس وهي بلا شك أفضل وأحسن وأجمل وأدوم من نعيم الدنيا فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، أعد الله لهم ذلك لو كانوا يعلمون، قيل: لو كان أهل الإيمان يعلمون، وقيل: لو كان أهل الشرك يعلمون.

أما قوله تعالى: ﴿ ﴾ فهذا وصف للمهاجرين الذين أُعدت لهم جنات النعيم، أنهم صبروا على مفارقة الأهل والديار والأوطان والأصحاب، وصبروا على أذى قومهم لهم، وثبتوا على طاعة ربهم وأحسنوا الاعتماد عليه، وبنحو ما ذُكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)

يقول تعالى ذكره: والذين فارقوا قومهم ودورهم وأوطانهم عداوة لهم في الله على كفرهم إلى آخرين غيرهم (مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) يقول: من بعد ما نيل منهم في أنفسهم بالمكاره في ذات الله (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) يقول: لنسكننهم في الدنيا مسكنا يرضونه صالحا.

وأورد بسند حسن عن قتادة، قوله: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ) قال: هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة، فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طوائف منهم بالحبشة، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين.

قال الطبري:

وقال آخرون: عنى بقوله (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) لنرزقهم في الدنيا رزقا حسنا.

وقوله (وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) يقول: ولثواب الله إياهم على هجرتهم فيه في الآخرة أكبر، لأن ثوابه إياهم هنالك الجنة التي يدوم نعيمها ولا يبيد.

وقال في تأويل قوله تعالى: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)}.

يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين وصفنا صفتهم، وآتيناهم الثواب الذي ذكرناه، الذين صبروا في الله على ما نابهم في الدنيا (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) يقول: وبالله يثقون في أمورهم، وإليه يستندون في نوائب الأمور التي تنوبهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان، رجاء ثواب الله وجزائه.

ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مهاجرة الحبشة الذي اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم: عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعفر بن أبي طالب، ابن عم الرسول (٧) وأبو سلمة بن عبد الأسد (٨) في جماعة قريب من ثمانين، ما بين رجل وامرأة، صديق وصديقة، رضي الله عنهم وأرضاهم. وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: {لنبوئنهم في الدنيا حسنة} قال ابن عباس والشعبي، وقتادة: المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد.

ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيرا منها (٩) في الدنيا، فإن من ترك شيئا لله عوضه الله بما هو خير له منه (١٠) وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم في البلاد وحكمهم على رقاب العباد، فصاروا أمراء حكاما، وكل منهم للمتقين إماما، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: {ولأجر الآخرة أكبر} أي: مما أعطيناهم في الدنيا {لو كانوا يعلمون} أي: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله؛ ولهذا قال هشيم، عن العوام، عمن حدثه؛ أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه (١) يقول: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر (٢) لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ (٣) هذه الآية: {لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون} (٤).

ثم وصفهم تعالى فقال: {الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون} أي: صبروا على أقل (٥) من آذاهم من قومهم، متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة

في الدنيا والآخرة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

(لنبوئنهم في الدنيا حسنة) في الحسنة ستة أقوال: الأول- نزول المدينة، قاله ابن عباس والحسن والشعبي وقتادة. الثاني- الرزق الحسن، قاله مجاهد. الثالث- النصر على عدوهم، قاله الضحاك. الرابع- إنه لسان صدق، حكاه ابن جريج. الخامس- ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات. السادس: ما بقي لهم في الدنيا من الثناء، وما صار فيها لأولادهم من الشرف. وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله، والحمد لله. (ولأجر الآخرة أكبر) أي ولأجر دار الآخرة أكبر، أي أكبر من أن يعلمه أحد قبل أن يشاهده، "وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا «٢» ". (لو كانوا يعلمون) أي لو كان هؤلاء الظالمون يعلمون ذلك. قيل: هو راجع إلى المؤمنين. أي لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين {الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ} أي: في سبيله وابتغاء مرضاته {مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا} بالأذية والمحنة من قومهم، الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين: ثوابا عاجلا في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء، الذي رأوه عيانا بعد ما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا وآتاهم الله في الدنيا حسنة.

{وَلأَجْرُ الآخِرَةِ} الذي وعدهم الله على لسان رسوله {أَكْبَرُ} من أجر

الدنيا، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ *خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} وقوله: {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} أي: لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله لم يتخلف عن ذلك أحد.

ثم ذكر وصف أوليائه فقال: {الَّذِينَ صَبَرُوا} على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذية فيه والمحن {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} أي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابّه، لا على أنفسهم. وبذلك تنجح أمورهم وتستقيم أحوالهم، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحدا شيء من الخير إلا لعدم صبره وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.

❃ ❃ ❃

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وما ارسلنا من قبلك ملائكة للناس يدعونهم إلى الله ﷻ، ما أرسلنا إلا رجالًا، أي: ما كانت الرسل إلا رجالًا، لم يكونوا ملائكة ولم يكونوا نساءً أرسلنا رسلًا رجالًا بالبينات، بالحجج الواضحات والدلالات الظاهرات، ﴿﴾ أي: والكتب التي أنزلناها عليهم وأوحينا غليهم ذلك الوحي، فاسألوا يا معشر قريش، واسألوا يا أهل الشرك، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، الرسل الذين أرسلهم الله فسيخبركم أهل الذكر ان

الرسل كانوا بشرًا.

أما أهل الذِّكر فمن هم؟ قيل: إنهم أهل الكتاب، وهذا قول أكثر العلماء، وقيل: إنهم العلماء المسلمون، وقيل: العلماء من آل بيت النبي ﷺ، والأظهر هنا، والله أعلم، ما عليه أكثر العلماء، وهو أن المراد بأهل الذكر أهل الكتاب، وذلك لقوله تعالى: ﴿﴾.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: وأنزلنا عليك القرآن ﴿﴾ أي: لتبلغ الناس ما أنزله الله إليهم وتوضحه لهم، ولعلهم يتفكروا فيما أُنزل إليك فيتعظون ويعتبرون.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلى أمة من الأمم، للدعاء إلى توحيدنا، والانتهاء إلى أمرنا ونهينا، إلا رجالا من بني آدم نوحي إليهم وحينا لا ملائكة، يقول: فلم نرسل إلى قومك إلا مثل الذي كنا نرسل إلى من قَبلهم من الأمم من جنسهم وعلى منهاجهم (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) يقول لمشركي قريش: وإن كنتم لا تعلمون أن الذين كنا نرسل إلى من قبلكم من الأمم رجال من بني آدم مثل محمد صلى الله عليه وسلم وقلتم: هم ملائكة: أي ظننتم أن الله كلمهم قبلافاسألوا أهل الذكر، وهم الذين قد قرءوا الكتب من قبلهم: التوراة والإنجيل، وغير ذلك من كتب الله التي أنزلها على عباده.

وأورد بإسنادٍ ضعيف عن أبي جعفر: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) قال: نحن أهل الذكر.

وبإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) قال: الذكر: القرآن، وقرأ (إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وقرأ (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ) ... الآية.

وقال في تأويل قوله تعالى: {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نزلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)}.

يقول تعالى ذكره: أرسلنا بالبينات والزُّبُر رجالا نوحي إليهم.

... ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فتأويل الكلام إذن: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم أرسلناهم بالبينات والزبر، وأنزلنا إليك الذكر. والبينات: هي الأدلة والحجج التي أعطاها الله رسله أدلة على نبوّتهم شاهدة لهم على حقيقة ما أتوا به إليهم من عند الله. والزُّبُر: هي الكتب، وهي جمع زَبُور، من زَبَرْت الكتاب وذَبَرته: إذا كتبته.

وقوله (وَأَنزلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ) يقول: وأنزلنا إليك يا محمد هذا القرآن تذكيرا للناس وعظة لهم، (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ) يقول: لتعرفهم ما أنزل إليهم من ذلك (وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) يقول: وليتذكروا فيه ويعتبروا به أي بما أنزلنا إليك.

وذهب ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: إلى أن أهل الذكر هم أهل الكتاب، إذ أورد قول ابن عباس بذلك، وتعقب قول ابن زيد وكذا قول أبي جعفر الباقر، وهو من آل بيت النبوة بقوله:

وقول عبد الرحمن بن زيد -الذكر: القرآن واستشهد بقوله: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} [الحجر: ٩]-صحيح، [و] (٤) لكن ليس هو المراد هاهنا؛ لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه.

وكذا قول أبي جعفر الباقر: "نحن أهل الذكر" -ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر- صحيح، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة، وعلماء أهل بيت الرسول، عليهم (٥) السلام والرحمة، من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة، كعلي، وابن عباس، وبني علي: الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية، وعلي بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عباس، وأبي جعفر الباقر -وهو محمد بن علي بن الحسين- وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم، ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعرف لكل ذي حق حقه، ونزل كل المنزل الذي أعطاه الله ورسوله واجتمع إليه قلوب عباده المؤمنين.

والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت أن (١) الرسل الماضين (٢) قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا بشرا كما هو بشر، كما قال تعالى: {قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا} [الإسراء: ٩٣، ٩٤] وقال تعالى: {وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق} [الفرقان: ٢٠] وقال {وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين [ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين] } [الأنبياء: ٨، ٩] ، (٣) وقال: {قل ما كنت بدعا من الرسل} [الأحقاف: ٩] ، وقال تعالى: {قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي} [الكهف: ١١٠] .

ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشرا، إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء (٤) الذين سلفوا: هل كان أنبياؤهم بشرا أو ملائكة؟

ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم {بالبينات} أي: بالدلالات والحجج، {والزبر} وهي الكتب. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم.

والزبر: جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبته، وقال تعالى: {وكل شيء فعلوه في الزبر} [القمر: ٥٢] وقال: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون} [الأنبياء: ١٠٥].

ثم قال تعالى: {وأنزلنا إليك الذكر} يعني: القرآن، {لتبين للناس ما نزل إليهم} من ربهم، أي: لعلمك (٥) بمعنى ما أنزل عليك، وحرصك عليه، واتباعك له، ولعلمنا بأنك (٦) أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصل (٧) لهم ما أجمل، وتبين لهم ما أشكل: {ولعلهم يتفكرون} أي: ينظرون لأنفسهم فيهتدون، فيفوزون (٨) بالنجاة في الدارين.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

" وما أرسلنا من قبلك" إلى الأمم الماضية يا محمد" إلا رجالا" آدميين. (فسئلوا أهل الذكر) قال سفيان: يعني مؤمني أهل الكتاب. (إن كنتم لا تعلمون) يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشرا. وقيل: المعنى فاسألوا أهل الكتاب فإن لم يؤمنوا فهم معترفون بأن الرسل كانوا من البشر.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا} أي: لست ببدع من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة بل رجالا كاملين لا نساء. {نُوحِي إِلَيْهِمْ} من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم، {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ} أي: الكتب السابقة {إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} نبأ الأولين، وشككتم هل بعث الله

رجالا؟ فاسألوا أهل العلم بذلك الذين نزلت عليهم الزبر والبينات فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرر عندهم أن الله ما بعث إلا رجالا يوحي إليهم من أهل القرى، وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل. فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال.

وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ} أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه، {وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} فيه فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه.

❁ ❁ ❁

س: الكلمة من كتاب الله كثيرًا ما تتعدد معانيها وضح ذلك من الآيتين السابقتين، وكذا من غيرها من الآيات؟

ج: إيضاحه أن الذكر في قوله تعالى: ﴿﴾ المراد به التوراة والإنجيل.

والذكر في قوله تعالى: ﴿﴾ المراد به القرآن.

هذا، وكثيرًا ما تتعدد معاني الكلمة الواحدة.

كالإنسان في قوله تعالى: ﴿﴾ فالمراد به آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والإنسان في قوله تعالى: ﴿﴾ المراد به بنو آدم.

وككلمة الأمة، تتعدد معانيها كما بيناه من قبل.

وكلمة الكتاب وغير ذلك، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم -: أفأمن الذين يمكرون بأهل الإيمان ويحتالون بهم لإيقاعهم في السيئات التي أعظمها الشرك بالله ﷻ، أفأمن هؤلاء الذين يسعون لإضلال العباد، كما قال أهل الشرك يوم القيامة لسادتهم وكبراءهم ﴿ ﴾.

أفأمن أهل الشرك المكرة الذين يكيدون كيدهم، أفأمنوا أن يخسف الله بهم الأرض من تحتهم أو يأتيهم العذاب من فوقهم أو من أي مكان من حيث لا يتوقعون ولا يترقبون، أفأمنوا أن يأتيهم العذاب ليلًا وهم نائمون أو نهارًا وهم يلعبون؟!!

أفأمنوا أن يأخذهم الله ﷻ وهم في أسفارهم يتقلبون من بلدة إلى بلدة أو على فرشهم يتقلبون من جانب إلى جانب، أو في أعمالهم وهم يتنقلون من عمل إلى عمل، فالله قادر على هذا، وما هم بفائتين من عذاب إن أرادهم بعذاب ولن يعجز ربي إذا أرادهم بسوء فهو عليهم قادر أفامنوا هذا الذي ذُكر.

أوأمنوا أن يأخذهم الله ﷻ على تخوفٍ، أي: وهم خائفون من نزول العذاب عليهم وحلوله بهم لرؤيتهم أسبابه، وذلك كأن يكون العذاب حلَّ على قرى مجاورة لقراهم، بأماكن قريبةً منهم، أو بأشخاص قريبين منهم والعذاب في طريقه إليهم، فالله قادر على هذا أيضًا، قادر على أن يهلكهم

بعذاب يتوقعونه ويترقبونه.

ولكن ربي رؤوف بالعباد رحيم بهم إذ أمهلهم وأرسل إليهم رسلًا وأخَّر عنهم العذاب كي يتوبوا ويرجعوا إلى الله ﷻ.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أفأمن الذين ظلموا المؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فراموا أن يفتنوهم عن دينهم من مشركي قريش الذين قالوا: إذ قيل لهم: ماذا أنزل ربكم: أساطير الأوّلين، صدّا منهم لمن أراد الإيمان بالله عن قصد السبيل، أن يخسف الله بهم الأرض على كفرهم وشركهم، أو يأتيهم عذاب الله من مكان لا يشعر به، ولا يدري من أين يأتيه، وكان مجاهد يقول: عنى بذلك نمرود بن كنعان.

قال الطبري:

وإنما اخترنا القول الذي قلناه في تأويل ذلك، لأن ذلك تهديد من الله أهل الشرك به، وهو عقيب قوله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) فكان تهديد من لم يقرّ بحجة الله الذي جرى الكلام بخطابه قبل ذلك أحرى من الخبر عمن انقطع ذكره عنه.

يعني تعالى ذكره بقوله (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ) أو يهلكهم في تصرّفهم في البلاد، وتردّدهم في أسفارهم (فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) يقول جلّ ثناؤه: فإنهم لا يعجزون الله من ذلك إن أراد أخذهم كذلك.

وأما قوله (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ) فإنه يعني: أو يهلكهم بتخوّف، وذلك بنقص من أطرافهم ونواحيهم الشيء بعد الشيء حتى يهلك جميعهم، يقال

منه: تخوّف مال فلان الإنفاق: إذا انتقصه.

وقوله (فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) يقول: فإن ربكم أن لم يأخذ هؤلاء الذين مكروا السيئات بعذاب معجَّل لهم، وأخذهم بموت وتنقص بعضهم في أثر بعض، لرءوف بخلقه، رحيم بهم، ومن رأفته ورحمته بهم لم يخسف بهم الأرض، ولم يعجِّل لهم العذاب، ولكن يخوّفهم وينقّصهم بموت.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن حلمه [وإمهاله] (١) وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على {أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون} أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كما قال تعالى: {أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير} [الملك: ١٦، ١٧]، وقوله {أو يأخذهم في تقلبهم} أي: في تقلبهم في المعايش واشتغالهم بها، من أسفار (٢) ونحوها من الأشغال الملهية.

قال قتادة والسدي: {تقلبهم} أي: أسفارهم.

وقال مجاهد، والضحاك: {في تقلبهم} في الليل والنهار، كما قال تعالى: {أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون} [الأعراف: ٩٧، ٩٨]. وقوله {فما هم بمعجزين} أي: لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه.

وقوله: {أو يأخذهم على تخوف} أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالة الأخذ؛ فإن حصول ما يتوقع مع الخوف

شديد؛ ولهذا قال العوفي، عن ابن عباس: {أو يأخذهم على تخوف} يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك. وكذا روي عن مجاهد، والضحاك، وقتادة وغيرهم.

ثم قال تعالى: {فإن ربكم لرءوف رحيم} أي: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين "[لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم" (٣)، وفي الصحيحين] (٤) إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته" ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد} [هود: ١٠٢] (٥) وقال تعالى: {وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير} [الحج: ٤٨].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غرَّة وهم لا يشعرون، إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تقلُّبهم وشغلهم وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوفهم من العذاب، فليسوا بمعجزين لله في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته ونواصيهم بيده.

ولكنه رءوف رحيم لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم وهم يؤذونه ويؤذون أولياءه، ومع هذا يفتح لهم (١) أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإقلاع من السيئات التي تضرهم، ويعدهم بذلك أفضل الكرامات، ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب، فليستح المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع اللحظات (٢) ومعاصيه [ص:٤٤٢]

صاعدة إلى ربه في كل الأوقات، وليعلم أن الله يمهل ولا يهمل وأنه إذا أخذ العاصي أخذه أخذ عزيز مقتدر، فليتب إليه، وليرجع في جميع أموره إليه فإنه رءوف رحيم. فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة وبره العميم وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه والعمل بما يحبه ويرضاه.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: أولم ير هؤلاء الذين يمكرون بالعباد لإيقاعهم في السيئات، في الشرك والكفر والكبائر، أولم يروا إلى الأشياء التي خلقها الله ﷻ ولها ظلٌّ يتراجع أحيانًا يكون عن اليمين وأحيانًا يكون عن الشمال، فهو في أول النهار، أعني الظل في أول النهار طويل، ويتقلص تدريجيا إلى أن يثبت وقت الزوال طويل ويتقلص تدريجيًّا إلى أن يثبت وقت الزوال ثم يتراجع ويطول بعد أن كان في فصر، والظلال في هذا تسجد لله ﷻ، وقيل: الاشياء تسجد لله ومن ثَمَّ فظلالها أيضًا تسجد.

وقد قال تعالى: ﴿﴾.

قال البعض في تفسير النجم أنه الحشيش أو النباتات التي ليس لها ساق، أما لاشجر فالذي له ساق، أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: وهم أذلة صاغرون خاضعون.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: أن كل من في السموات، الملائكة وغيرهم، وكل دابة تدب على الأرض، كل ذلك يسجد لله ﷻ إما طوعًا أي: عن طواعية

ورضا، وإما كرهًا فيجري فيهم قضاء الله الذي قضاه عليهم دون أدنى امتناع منهم، بل قدر الله فيهم نافذ.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: وتسجد الملائكة لله ﷻ كذلك، وقوله: ﴿﴾ فقيل: عائد على الملائكة كما قال تعالى: ﴿﴾.

وكما قال تعالى: ﴿﴾.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: الدواب والملائكة كل يخاف ربَّه ﷻ ويرهبه ويخشاه، وقوله: ﴿﴾ تحمل عدة معاني أنه فوقيته المكان، وفوقية القهر والغلبة، وكل صحيح والله أعلم.

أما قوله جل ذكره: ﴿﴾ أي: ويمتثلون أمر الله ﷻ، وهم الملائكة عليهم السلام وبنحوه قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتأويل الكلام إذن: أو لم ير هؤلاء الذين مكروا السيئات، إلى ما خلق الله من جسم قائم، شجر أو جبل أو غير ذلك، يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل، يقول: يرجع من موضع إلى موضع، فهو في أوّل النهار على حال، ثم يتقلَّص، ثم يعود إلى حال أخرى في آخر النهار.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ) أما اليمين: فأوّل النهار، وأما الشمال: فآخر النهار.

واختلف في معنى قوله (سُجَّدًا لِلَّهِ) فقال بعضهم: ظلّ كلّ شيء سجوده.

وقال آخرون: بل عنى بقوله (يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ) كلا عن اليمين والشمائل في حال سجودها، قالوا: وسجود الأشياء غير ظلالها.

وقال آخرون: بل الذي وصف الله بالسجود في هذه الآية ظلال الأشياء، فإنما يسجد ظلالها دون التي لها الظلال.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر في هذه الآية أن ظلال الأشياء هي التي تسجد، وسجودها: مَيَلانها ودورانها من جانب إلى جانب، وناحية إلى ناحية، كما قال ابن عباس يقال من ذلك: سجدت النخلة إذا مالت، وسجد البعير وأسجد: إذا أميل للركوب. وقد بيَّنا معنى السجود في غير هذا الموضع بما أغنى عن إعادته.

وقوله (وَهُمْ دَاخِرُونَ) يعني: وهم صاغرون، يقال منه: دخر فلان لله يدخر دخرا ودخورا: إذا ذلّ له وخضع ومنه قول ذي الرُّمَّة:

فَلَمْ يَبْقَ إلا داخِرٌ فِي مُخَيَّسٍ ... ومُنْجَحِرٌ فِي غيرِ أرْضِكَ فِي جُحْرِ

وأما توحيد اليمين في قوله (عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ) فجمعها، فإن ذلك إنما جاء كذلك، لأن معنى الكلام: أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلال ما خلق من شيء عن يمينه: أي ما خلق، وشمائله، فلفظ "ما" لفظ واحد، ومعناه معنى الجمع، فقال: عن اليمين بمعنى: عن يمين ما خلق، ثم رجع إلى معناه في الشمائل، وكان بعض أهل العربية يقول: إنما تفعل العرب ذلك، لأن أكثر الكلام مواجهة الواحد الواحد، فيقال للرجل: خذ عن يمينك، قال: فكأنه إذا وحد ذهب إلى واحد من القوم، وإذا جمع فهو الذي لا مساءلة فيه، واستشهد لفعل العرب ذلك بقول الشاعر:

بِفي الشَّامِتِينَ الصَّخْرُ إنْ كان هَدَّني ... رَزِيَّةُ شِبْلَيْ مُخْدِرٍ في الضَّراغِمِ

فقال: بِفي الشامتين، ولم يقل: بأفواه، وقول الآخر:

ولم يقل: جلود.

وقال في تأويل قوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩)}.

يقول تعالى ذكره: ولله يخضع ويستسلم لأمره ما في السموات وما في الأرض من دابّة يدبّ عليها، والملائكة التي في السموات، وهم لا يستكبرون عن التذلل له بالطاعة (فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) وظلالهم تتفيأ عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون.

وقال في تأويل قوله تعالى: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)}.

يقول تعالى ذكره: يخاف هؤلاء الملائكة التي في السموات، وما في الأرض من دابة، ربهم من فوقهم، أن يعذّبهم إن عَصَوا أمره،ويفعلون ما يؤمرون، يقول: ويفعلون ما أمرهم الله به، فيؤدّون حقوقه، ويجتنبون سُخْطه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر (٦) أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشيا، فإنه ساجد بظله لله تعالى.

قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل. وكذا قال قتادة، والضحاك، وغيرهم.

وقوله: {وهم داخرون} أي: صاغرون.

وقال مجاهد أيضا: سجود كل شيء فيه. وذكر الجبال قال: سجودها فيها.

وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته.

ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم.

ثم قال: {ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة} كما قال: {ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال} [الرعد: ١٥]، وقوله: {والملائكة وهم لا يستكبرون} أي: تسجد لله أي غير مستكبرين عن عبادته، {يخافون ربهم من فوقهم} أي: يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله، {ويفعلون ما يؤمرون} أي: مثابرين على طاعته (١) تعالى، وامتثال أوامره، وترك زواجره.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا} أي: الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله، {إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ} أي: إلى جميع مخلوقاته وكيف تتفيأ أظلتها، {عَنِ الْيَمِينِ} وعن {الشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ} أي: كلها ساجدة لربها خاضعة لعظمته وجلاله، {وَهُمْ دَاخِرُونَ} أي: ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله وتدبيره عنده.

{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ} من الحيوانات الناطقة والصامتة، {وَالْمَلائِكَةُ} الكرام خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم ولهذا قال: {وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ} أي: عن عبادته على كثرتهم وعظمة أخلاقهم وقوتهم كما قال تعالى: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ} {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ} لما مدحهم بكثرة

الطاعة والخضوع لله، مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر، وكمال الأوصاف، فهم أذلاء تحت قهره. {وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} أي: مهما أمرهم الله تعالى امتثلوا لأمره، طوعا واختيارا، وسجود المخلوقات لله تعالى قسمان: سجود اضطرار ودلالة على ما له من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق من مؤمن وكافر وبر وفاجر وحيوان ناطق وغيره، وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين من الملائكة وغيرهم [من المخلوقات] . يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، ويستدل على ذلك بانفراده بالنعم والوحدانية.

❁ ❁ ❁

س: هل عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ..﴾ سجود؟

ج: نعم عندها سجدة، وقد نقل الإجماع على ذلك الطحاوي وغيره[(١)].

وفي الصحيح[(٢)] أن عمر رضي الله عنه قرأ يوم الجمعة على المنبر بسورة النحل، حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة، قال : يا أيها الناس إنا نمرُّ بالسجود فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا إثم عليه، ولم يسجد عمر رضي الله عنه .

❁ ❁ ❁

س: لماذا أفردت اليمين وجمعت الشمائل في قوله: ﴿﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم:

إن اليمين أفرد تعظيمًا له والشمائل جمعت لنقصها.

---

(١) شرح معاني الآثار (١/ ٣٥٩).

(٢) البخاري (١٠٧٧).

كما قال تعالى: ﴿﴾.

وكما قال: ﴿﴾.

وقال آخرون من أهل العلم: إن قوله تعالى: ﴿ ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين، أن عن اليمين عائدة على الشيء، أي عن يمين الشيء، أما قوله: ﴿﴾ فعائد على قوله: ﴿﴾ أي: عن شمائل عموم الفلق. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: كيف قيل: ﴿ وهنالك كفار لا يسجدون لله ﷻ؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن المراد بالسجود هنا سجود القهر والغلبة فينفذ في الخلائق كلهم قدر الله.

الثاني: أن الآية عامة، واستثنى منها كفرة بني آدم.

الثالث: أنهم وإن لم يسجدوا فظلالهم تسجد لله ﷻ والله أعلم.

❁ ❁ ❁

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ وَلَهُۥ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ
فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا
فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ
٥٥ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ
تَفۡتَرُونَ ٥٦ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ
أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا
بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩ لِلَّذِينَ لَا
يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٠ وَلَوۡ
يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا
جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا
يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ
وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ٦٢ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤ ﴾

[النحل: ٥١-٦٤]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿إِلَٰهَيۡنِ – فَٱرۡهَبُونِ – ٱلدِّينُ – وَاصِبًا – تَجۡـَٔرُونَ – لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ – تَٱللَّهِ – تَفۡتَرُونَ – وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ – سُبۡحَٰنَهُۥ – كَظِيمٞ – يَتَوَٰرَىٰ – هُونٍ – يَدُسُّهُۥ – مَثَلُ ٱلسَّوۡءِ – ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ – وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ – ٱلۡكَذِبَ – مُّفۡرَطُونَ – فَزَيَّنَ – وَلِيُّهُمُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾	معبودين.
﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾	فخافون واخشونِ.
﴿ٱلدِّينُ﴾	الطاعة والإخلاص.
﴿وَاصِبًا﴾	قائمًا واجبًا.
﴿تَجۡـَٔرُونَ﴾	تصرفون – ترفعون الصوت بالدعاء.
﴿لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ﴾	للأصنام التي لا يعلمون منها نفعًا.
﴿تَٱللَّهِ﴾	والله، قسمٌ بالله.
﴿تَفۡتَرُونَ﴾	تختلقون الكذب.
﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ﴾	ينسبون لله.
﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾	تنزَّه.
﴿كَظِيمٞ﴾	ممتلئ غمًّا وهمًّا.
﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾	يختفي.
﴿هُونٍ﴾	إذلال – إهانة – هوان.

﴿يَدُسُّهُۥ﴾	يدفنه – يخفيه.
﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾	المثل السيئ.
﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾	أفضل الأمثال وأعلاها، وهو أنه واحدٌ لا شريك له.
﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾	يفترون الكذب بألسنتهم.
﴿مُّفْرَطُونَ﴾	منسيون متروكون في العذاب سابقون إلى العذاب.

❀ ❀ ❀

النهي عن اتخاذ إلهٍ مع الله ﷻ وبيان عظيم قدرته ﷻ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وقال الله ﷻ لا تتخذوا أيها الناس اثنين فتجعلوهما معبودين تعبدونهما، إنما المعبود إلهٌ واحد هو الذي يُعبد هو الذي يُدعى ويرجى ويخشى ﴿ ﴾ يقول تعالى: فلا تخافوا إلا مني ولا تخشوا إلا باسي وسطوتي وسلطاني.

والله ﷻ المعبود وحده هو الذي له ما في السموات والأرض، فكل ذلك ملك له ﷻ، وله الدين دائمًا أبدًا، فملكه لا يزول ولا ينتهي وسلطانه لا يضعف ولا يوهن، فليس كملك من ملوك الدنيا الذي ينتهي حكمهم وينتهي ملكهم ويعزل أو يضعف كلا بل العبادة الدائمة لله والخضوع المستمر الدائم لله والطاعة كلها لله، والرجاء كله في الله ﷻ والإخلاص له في الوجه والعلم، كل ذلك لله ﷻ، كل ذلك واجب على المسلم لربِّه ﷻ وبصفة دائمة، فمن ذا الذي تخشونه وتحذرونه غير الله؟؟ ومن ذا الذي يُرجى ويخشى غير الله.

ثم إن كل النعم التي بكم من الله ﷻ ثم إذا أصابكم الضر في أبدانكم أو في أموالكم أو في أهاليكم فإليه تصرخون وترفعون الصوت الدعاء والالتجاء، ثم إنه سبحانه إذا كشف الضرَّ عنكم إذا فريق منكم يشركون بالله ﷻ كأنهم لم يصابوا بضرٍّ من قبل، فيجحدون نعمة الله ﷻ بكفرهم، يجحدون إنجاء الله لهم ورزقه لهم ومعافاته لهم، فقل لهؤلاء تمتعوا فسوف تعلمون عاقبة أمركم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقال الله لعباده: لا تتخذوا لي شريكا أيها الناس، ولا تعبدوا معبودين، فإنكم إذا عبدتم معي غيري جعلتم لي شريكا، ولا شريك لي، إنما هو إله واحد ومعبود واحد، وأنا ذلك، (فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) يقول: فإياي فاتقوا وخافوا عقابي بمعصيتكم إياي إن عصيتموني وعبدتم غيري، أو أشركتم في عبادتكم لي شريكا.

وقال في تأويل قوله تعالى: {وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ (٥٢) }.

يقول تعالى ذكره: ولله ملك ما في السموات والأرض من شيء، لا شريك له في شيء من ذلك، هو الذي خلقهم، وهو الذي يرزقهم، وبيده حياتهم وموتهم. وقوله (وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا) يقول جلّ ثناؤه: وله الطاعة والإخلاص دائما ثابتا واجبا

وقال في تأويل قوله تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) }.

وتأويل الكلام: ما يكن بكم في أبدانكم أيها الناس من عافية وصحة وسلامة، وفي أموالكم من نماء، فالله المنعم عليكم بذلك لا غيره، لأن ذلك إليه وبيده (ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ) يقول: إذا أصابكم في أبدانكم سَقَم ومرض، وعلة عارضة، وشدّة من عيش (فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ) يقول: فإلى الله تصرخون بالدعاء وتستغيثون به، ليكشف ذلك عنكم، وأصله: من جؤار الثور، يقال منه: جأر الثور يجأر جؤارا، وذلك إذا رفع صوتا شديدا من جوع أو غيره، ومنه

قول الأعشى:

وَمَـــا أَيْبُلِـــيٌّ عَلـــى هَيْكَـــلِ بَنَـــاهُ وَصَـــلَّبَ فِيـــهِ وصَـــارَا

يُـــرَاوِحُ مِـــنْ صَـــلَوَاتِ المَلِيـــ ـــكِ طَـوْرًا سُـجُودًا وَطَـوْرًا جُـؤَارًا

يعني بالجؤار: الصياح، إما بالدعاء، وإما بالقراءة.

وقال في تأويل قوله تعالى: {ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)}.

يقول تعالى ذكره: ثم إذا وهب لكم ربكم العافية، ورفع عنكم ما أصابكم من المرض في أبدانكم، ومن الشدة في معاشكم، وفرّج البلاء عنكم (إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) يقول: إذا جماعة منكم يجعلون لله شريكا في عبادتهم، فيعبدون الأوثان، ويذبحون لها الذبائح شكرا لغير من أنعم عليهم بالفرج مما كانوا فيه من الضرِّ (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ) يقول: ليجحدوا الله نعمته فيما آتاهم من كشف الضرّ عنهم (فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)، وهذا من الله وعيد لهؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآيات، وتهديد لهم، يقول لهم جلّ ثناؤه: تمتعوا في هذه الحياة الدنيا إلى أن توافيكم آجالكم، وتبلغوا الميقات الذي وقته لحياتكم وتمتعكم فيها، فإنكم من ذلك ستصيرون إلى ربكم، فتعلمون بلقائه وبال ما كسبت أيديكم، وتعرفون سوء مغبة أمركم، وتندمون حين لا ينفعكم الندم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه.

{وله الدين واصبا} قال ابن عباس، ومجاهد وعكرمة (١) وميمون بن

مهران، والسدي، وقتادة، وغير واحد: أي دائما.

وعن ابن عباس أيضا: واجبا. وقال مجاهد: خالصا. أي: له العبادة وحده ممن في السماوات والأرض، كقوله: {أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها} [آل عمران: ٨٣] . هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب، أي: ارهبوا أن تشركوا به (٢) شيئا، وأخلصوا له الطلب (٣) ، كما في قوله تعالى: {ألا لله الدين الخالص} [الزمر: ٣] .

ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعبد من رزق ونعمة (٤) وعافية ونصر فمن فضله

عليه (١) وإحسانه إليه.

{ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون} أي: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجئون إليه، وتسألونه وتلحون في الرغبة مستغيثين به (٢) كما قال تعالى: {وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا} [الإسراء: ٦٧] ، وقال هاهنا: {ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم}

قيل: "اللام" هاهنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل، بمعنى: قيضنا لهم ذلك (٣) ليكفروا، أي: يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وأنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم.

ثم توعدهم قائلا {فتمتعوا} أي: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلا {فسوف تعلمون} أي: عاقبة ذلك.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

(ليكفروا بما آتيناهم) أي ليجحدوا نعمة الله التي أنعم بها عليهم من كشف الضر والبلاء. أي أشركوا ليجحدوا، فاللام لام كي. وقيل لام العاقبة. وقيل:" ليكفروا بما آتيناهم" أي ليجعلوا النعمة سببا للكفر، وكل هذا فعل خبيث، كما قال:

والكفر مخبثة لنفس المنعم

(فتمتعوا) أمر تهديد. وقرأ عبد الله" قل تمتعوا". (فسوف تعلمون) أي عاقبة أمركم.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: {وَقَالَ اللهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}، نهى الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة جميع البشر عن أن يعبدوا إلهاً آخر معه، وأخبرهم أن المعبود المستحق لأن يعبد وحده واحد، ثم أمرهم أن يرهبوه، أي: يخافوه وحده؛ لأنه هو الذي بيده الضر والنفع، لا نافع ولا ضار سواه.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله: {فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [٥١/ ٥٠- ٥١]، وقوله: {الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ} [٥٠/ ٢٦]، وقوله: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً} [١٧/ ٢٢]، وقوله: {وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً} [١٧/ ٣٩].

وبين جل وعلا في مواضع أُخر: استحالة تعدد الآلهة عقلاً؛ كقوله: {لَوْ

كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا} [٢١/ ٢٢]، وقوله: {وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [٢٣/ ٩١-٩٢]، وقوله: {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً} [١٧/ ٤٢]، والآيات بعبادته وحده كثيرة جداً، فلا نطيل بها الكلام.

وقال رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: {وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً}، الدين هنا: الطاعة؛ ومنه سميت أوامر الله ونواهيه ديناً؛ كقوله: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ} [٣/ ١٩]، وقوله: {وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً} [٥/ ٣]، وقوله: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ} [٣/ ٨٥].

والمراد بالدين في الآيات: طاعة الله بامتثال جميع الأوامر، واجتناب جميع النواهي. ومن الدين بمعنى الطاعة: قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

وأياماً لنا غراً كراما ... عصينا الملك فيها أن ندينا

أي: عصيناه وامتنعنا أن ندين له؛ أي: نطيعه. وقوله {وَاصِباً} [١٦/ ٥٢]، أي: دائماً؛ أي له جلَّ وعلا: الطاعة والذل والخضوع دائماً؛ لأنه لا يضعف سلطانه، ولا يعزل عن سلطانه، ولا يموت ولا يغلب، ولا يتغير له حال بخلاف ملوك الدنيا؛ فإن الواحد منهم يكون مطاعاً له السلطنة والحكم، والناس يخافونه ويطعمون فيما عنده برهة من الزمن، ثم يعزل أو يموت، أو يذل بعد عز، ويتضع بعد رفعة؛ فيبقى لا طاعة له ولا يعبأ به أحد، فسبحان من لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيراً.

وهذا المعنى الذي أشار إليه مفهوم الآية بينه جل وعلا في مواضع أُخر؛ كقوله: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ} [٣/ ٢٦]، وقوله تعالى: {خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ} [٥٦/ ٣]؛ لأنها ترفع أقواماً كانت منزلتهم منخفضة في الدنيا، وتخفض أقواماً كانوا ملوكاً في الدنيا، لهم المكانة الرفيعة، وقوله: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [٤٠/ ١٦].

ونظير هذه الآية المذكورة قوله: {وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} [٣٧/ ٨-٩]، أي: دائم. وقيل: عذاب موجع ومؤلم، والعرب تطلق الوصب على المرض، وتطلق الوصوب على الدوام.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

{لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ} أي: تجعلون له شريكا في إلهيته، وهو {إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ} متوحد في الأوصاف العظيمة متفرد بالأفعال كلها. فكما أنه الواحد في ذاته وأسمائه ونعوته وأفعاله، فلتوحِّدوه في عبادته، ولهذا قال: {فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} أي: خافوني وامتثلوا أمري، واجتنبوا نهيي من غير أن تشركوا بي شيئا من المخلوقات، فإنها كلها لله تعالى مملوكة.

{وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا} أي: الدين والعبادة والذل في جميع الأوقات لله وحده على الخلق أن يخلصوه لله وينصبغوا بعبوديته. {أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ} من أهل الأرض أو أهل السماوات فإنهم لا يملكون لكم ضرا ولا نفعا، والله المنفرد بالعطاء والإحسان {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ} ظاهرة وباطنة {فَمِنَ اللهِ} لا أحد يشركه فيها، {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ} من فقر ومرض وشدة {فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} أي: تضجون بالدعاء والتضرع

لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو، فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده. ولكن كثيرا من الناس يظلمون أنفسهم، ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة فصاروا في حال الرخاء أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة، ولهذا قال:

{لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ} أي: أعطيناهم حيث نجيناهم من الشدة، وخلصناهم من المشقة، {فَتَمَتَّعُوا} في دنياكم قليلا {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} عاقبة كفركم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ويجعل أهل الشرك هؤلاء للأصنام التي لا يعلمون من نفعًا ولا ضرًّا، التي لم يُحصِّلوا من ورائها نفعًا، ولا يرون أنها دفعت عنهم ضرًّا نصيبًا مما رزقناهم من الحرث والأنعام، وذلك أن أهل الشرك كانوا إذا أثمرت حقولهم وأنتجت بهائمهم جعلوا من ذلك جزءًا لأنفسهم وجزءًا لأصنامهم، وجعلوا من البهائم كذلك أصنافًا مخصوصة لآلهتهم وأوثانهم، أطلقوا عليها أسماء كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، على ما تقدم بيانه في سورة الأنعام والمائدة، فيقسم الله ﷻ بنفسه بقوله: ﴿ ﴾ فالتاء تاء القسم ﴿ ﴾ عن الافتراءات التي افتريتموها في دينكم وعن التحليل والتحريم الذي كان منكم دون رجوعكم إلى الله ﷻ.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويجعل هؤلاء المشركون من عَبَدة الأوثان، لما لا يعلمون منه ضرا ولا نفعا نصيبا. يقول: حظا وجزاء مما رزقناهم من الأموال، إشراكا منهم له الذي يعلمون أنه خلقهم، وهو الذي ينفعهم ويضرّهم دون غيره.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) وهم مشركو العرب، جعلوا لأوثانهم نصيبا مما رزقناهم، وجزءا من أموالهم يجعلونه لأوثانهم.

وبسندٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) قال: جعلوا لآلهتهم التي ليس لها نصيب ولا شيء، جعلوا لها نصيبا مما قال الله من الحرث والأنعام، يسمون عليها أسماءها ويذبحون لها.

قال الطبري:

وقوله (تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ) يقول تعالى ذكره: والله أيها المشركون الجاعلون الآلهة والأنداد نصيبا فيما رزقناكم شركا بالله وكفرا، ليسألنكم الله يوم القيامة عما كنتم في الدنيا تفترون، يعني: تختلقون من الباطل والإفك على الله بدعواكم له شريكا، وتصييركم لأوثانكم فيما رزقكم نصيبا، ثم ليعاقبنكم عقوبة تكون جزاء لكفرانكم نعمه وافترائكم عليه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، وجعلوا لها نصيبا مما رزقهم الله فقالوا: {هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله [بغير علم] (٤) وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم} [الأنعام: ١٣٦] أي: جعلوا لآلهتهم نصيبا مع الله

وفضلوهم (٥) أيضا على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه، وائتفكوه، وليقابلنهم (٦) عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: {تالله لتسألن عما كنتم تفترون}.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ:

وذلك أن الكفار كانوا إذا حرثوا حرثًا، أو كانت لهم ثمرة جعلوا الله منها جزءاً، وللوثن جزءاً؛ فما جعلوا من نصيب الأوثان حفظوه، وإن اختلط به شيء مما جعلوه لله ردوه إلى نصيب الأصنام، وإن وقع شيء مما جعلوه لله في نصيب الأصنام تركوه فيه، وقالوا: الله غني والصنم فقير. وقد أقسم جل وعلا على أنه يسألهم يوم القيامة عن هذا الافتراء والكذب! وهو زعمهم أن نصيبًا مما خلق الله للأوثان التي لا تنفع ولا تضر في قوله: {تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ} [١٦/ ٥٦]، وهو سؤال توبيخ وتقريع.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم وافترائهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر -نصيبا مما رزقهم الله وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة، كما قال تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللهِ} الآية، {لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ} ويقال: {ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ} فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة

❀ ❀ ❀

ومن جهالات المشركين

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – : زعموا – كذبًا وزورًا – أن الملائكة إناثٌ، قال تعالى: ﴿﴾ ونسبوها لله ﷻ فقالوا الملائكة: بنات الله، تعالى الله عن قولهم عُلُوًّا كبيرًا.

قال تعالى: ﴿﴾ فقوله: ﴿﴾ أي: أهل الشرك ﴿﴾ تنزَّه ربنا ﷻ عن قولهم، ﴿﴾ أي: يختارون لأنفسهم ما يريدونه، كما قال تعالى: ﴿﴾.

ثم بيَّن الله ﷻ حال أهل الكفر هؤلاء عندما يُخبر أحدهم أن امرأته ولدت بنتًا، قال تعالى: ﴿﴾ إذا أُخبر بذلك ﴿﴾ أصبح وجهه وقد علاه النكد الهم، أصبح كانه اسود، والعرب يقولون هذا لمن أصيب بشيء أحرجه أو آذاه أو أحزنه حُزنًا شديدًا يقولون اسوَدَّ وجهه.

أما قوله: ﴿﴾ أي: ممتلئ همًّا وغمًّا وحُزنًا ﴿﴾ يختفي ويستتر من القوم ﴿﴾ أي: من الخير السيئ الذي أُخبر به، فيقف مُحتارًا أيترك هذا المولود، التي هي البنت، أيتركها حية ويربيها مع ما في ذلك من الذل والعار والهوان، وكذا مع ما في ذلك من ظلمها وأذاها، أم يدسه في التراب؟ أي: يئدها وهي حية، ألا فما أسوأ هذا الحكم الذي حكموا به وهذا الفضاء الذي قضوا به.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: أن الذين يكفرون بالبعث لهم أسوأ الأمثال فهم الجهلة والأغبياء والحمقى بشركهم بالله ﷻ ويكفرهم بالله ﷻ.

أما رب العزة سبحانه وتعالى فله صفات الكمال كلها وله المثل الأعلى

في كل شيء فهو الواحد لا شريك له ولا ندَّ له ولا صاحبة له ولا ولد له، وهو الذي انتهت إليه السيادة في كل شيء، فهو العالم ليس فوقه عالم، هو الأول ليس قبله شيء والآخر ليس بعده شيء، وهو الكيد ليس أحدٌ أكبر منه وهو العزيز ليس هناك من هو أعزُّ منه...

﴿ الذي لا يُغلب ولا يمتنع منه شيءٌ يريده ﴾ فيما يشرع ويقضي وفي كل شيء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ومن جهل هؤلاء المشركين وخبث فعلهم، وقبح فِرْيتهم على ربهم، أنهم يجعلون لمن خلقهم ودبَّرهم وأنعم عليهم، فاستوجب بنعمه عليهم الشكر، واستحق عليهم الحمد: البنات، ولا ينبغي أن يكون لله ولد ذكر ولا أنثى سبحانه، نزه جلّ جلاله بذلك نفسه عما أضافوا إليه ونسبوه من البنات، فلم يرضوا بجهلهم إذ أضافوا إليه ما لا ينبغي إضافته إليه، ولا ينبغي أن يكون له من الولد أن يضيفوا إليه ما يشتهونه لأنفسهم ويحبونه لها، ولكنهم أضافوا إليه ما يكرهونه لأنفسهم ولا يرضونه لها من البنات ما يقتلونها إذا كانت لهم، وفي "ما" التي في قوله (وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) وجهان من العربية: النصب عطفا لها على البنات، فيكون معنى الكلام إذا أريد ذلك: ويجعلون لله البنات ولهم البنين الذين يشتهون، فتكون "ما" للبنين، والرفع على أن الكلام مبتدأ من قوله (وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) فيكون معنى الكلام: ويجعلون لله البنات ولهم البنون.

وقوله (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا) يقول: وإذا بشر أحد هؤلاء الذين جعلوا لله البنات بولادة ما يضيفه إليه من ذلك له، ظلّ وجهه

مسودًا من كراهته له (وَهُوَ كَظِيمٌ) يقول قد كَظَم الحزنَ، وامتلأ غما بولادته له، فهو لا يظهر ذلك.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) وهذا صنيع مشركي العرب، أخبرهم الله تعالى ذكره بخبث صنيعهم فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله له، وقضاء الله خير من قضاء المرء لنفسه، ولعمري ما يدري أنه خير، لرُبّ جارية خير لأهلها من غلام. وإنما أخبركم الله بصنيعهم لتجتنبوه وتنتهوا عنه، وكان أحدهم يغذو كلبه ويئد ابنته.

وقال في تأويل قوله تعالى: {يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) }.

يقول تعالى ذكره: يتوارى هذا المبشر بولادة الأنثى من الولد له من القوم، فيغيب عن أبصارهم (مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ) يعني: من مساءته إياه مميلا بين أن يمسكه على هون: أي على هوان، وكذلك ذلك في لغة قريش فيما ذكر لي، يقولون للهوان: الهون؛ ومنه قول الحطيئة:

فلمَّا خَشِيتُ الهُونَ والعَيْرُ مُمْسِكٌ ... على رَغْمِهِ ما أثبتَ الحبلَ حافِرُه

وبعض بني تميم جعل الهون مصدرا للشيء الهين، ذكر الكسائي أنه سمعهم يقولون: إن كنت لقليل هون المؤنة منذ اليوم قال: وسمعت: الهوان في مثل هذا المعنى، سمعت منهم قائلا يقول لبعير له: ما به بأس غير هوانه، يعني خفيف الثمن، فإذا قالوا: هو يمشي على هونه، لم يقولوه إلا بفتح الهاء، كما قال تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرْضِ هَوْنًا) . (أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ) يقول: يدفنه حيا في التراب فيئده.

وقوله (أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) يقول: ألا ساء الحكم الذي يحكم هؤلاء المشركون، وذلك أن جعلوا لله ما لا يرضون لأنفسهم، وجعلوا لما لا ينفعهم ولا يضرهم شركا فيما رزقهم الله، وعبدوا غير من خلقهم وأنعم عليهم.

وقال في تأويل قوله تعالى: {لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)}.

وهذا خبر من الله جلّ ثناؤه أن قوله (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)، والآية التي بعدها مثل ضربه الله لهؤلاء المشركين الذين جعلوا لله البنات، فبين بقوله (لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ) أنه مثل، وعنى بقوله جلّ ثناؤه (لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ) للذين لا يصدّقون بالمعاد والثواب والعقاب من المشركين (مَثَلُ السَّوْءِ) وهو القبيح من المثل، وما يسوء من ضرب له ذلك المثل (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأعْلَى) يقول: ولله المثل الأعلى، وهو الأفضل والأطيب، والأحسن، والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة قوله: (لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأعْلَى) الإخلاص والتوحيد.

وفي رواية عن قتادة: لا إله إلا الله.

وقوله (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) يقول تعالى ذكره: والله ذو العزّة التي لا يمتنع عليه معها عقوبة هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم في هذه الآيات، ولا عقوبة من أراد عقوبته على معصيته إياه، ولا يتعذّر عليه شيء أراده وشاءه، لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، الحكيم في تدبيره، فلا يدخل تدبيره خَلَل، ولا خطأ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، وجعلوها بنات الله، وعبدوها معه، فأخطؤوا خطأ كبيرا في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولدا، ولا ولد له! ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: {ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى} [النجم: ٢١، ٢٢] وقال هاهنا: {ويجعلون لله البنات سبحانه} أي: عن قولهم وإفكهم {ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون} [الصافات: ١٥١ -١٥٤] .

وقوله: {ولهم ما يشتهون} أي: يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، فإنه {وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا} أي: كئيبا من الهم، {وهو كظيم} ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، {يتوارى من القوم} أي: يكره أن يراه الناس {من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب} أي: إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها، ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها، {أم يدسه في التراب} أي: يئدها: وهو: أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ {ألا ساء ما يحكمون} أي: بئس ما قالوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوا إليه، كما قال تعالى: {وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم} [الزخرف: ١٧] ، وقال هاهنا: {للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء} أي: النقص إنما ينسب إليهم، {ولله المثل الأعلى} أي: الكمال

المطلق من كل وجه، وهو منسوب إليه، {وهو العزيز الحكيم}.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: (للذين لا يؤمنون بالآخرة) أي لهؤلاء الواصفين «١» لله البنات (مثل السوء) أي صفة السوء من الجهل والكفر. وقيل: هو وصفهم الله تعالى بالصاحبة والولد. وقيل: أي العذاب والنار. (ولله المثل الأعلى) أي الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد، قاله قتادة. وقيل: أي الصفة العليا بأنه خالق رازق قادر ومجاز. وقال ابن عباس:" مثل السوء" النار، و" المثل الأعلى " شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل:" ليس كمثله شيء «٢» ". وقيل:" ولله المثل الأعلى " كقوله:" الله نور السماوات والأرض مثل نوره «٣» ". فإن قيل: كيف أضاف المثل هنا إلى نفسه وقد قال:" فلا تضربوا لله الأمثال «٤» " فالجواب أن قوله:" فلا تضربوا لله الأمثال" أي الأمثال التي توجب الأشباه والنقائص، أي لا تضربوا لله مثلا يقتضي نقصا وتشبيها بالخلق. والمثل الأعلى وصفه بما لا شبيه له ولا نظير، جل وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}.

قوله: {وَيَجْعَلُونَ}، أي: يعتقدون. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار يعتقدون أن لله بنات إناثًا، وذلك أن خزاعة وكنانة كانوا يقولون: الملائكة بنات الله؛ كما بينه تعالى بقوله: {وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ

الرَّحْمَنِ إِنَاثاً} الآية [٤٣/ ١٩]، فزعمو لله الأولاد! ومع ذلك زعموا له أخس الولدين وهو الأنثى، فالإناث التي جعلوها لله يكرهونها لأنفسهم ويأنفون منها. كما قال تعالى عنهم: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً} [١٦/ ٥٨]، أي: لأن شدة الحزن والكآبة تسود لون الوجه. {وَهُوَ كَظِيمٌ} [١٦/ ٥٨]، أي: ممتلىء حزناً وهو ساكت. وقيل: ممتلىء غيظاً على امرأته التي ولدت له الأنثى. {يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ} [١٦/ ٥٩]، أي: يختفي من أصحابه من أجل سوء ما بشر به لئلا يروا ما هو فيه من الحزن والكآبة، أو لئلا يشتموا به ويعيروه. ويحدث نفسه وينظر: {أَيُمْسِكُهُ}، أي: ما بشر به وهو الأنثى، {عَلَى هُونٍ} [١٦/ ٥٩]، أي: هوان وذل، {أَمْ يَدُسُّهُ} [١٦/ ٥٩]، في التراب: أي يدفن المذكور الذي هو الأنثى حياً في التراب، يعني ما كانوا يفعلون بالبنات من الوأد وهو دفن البنت حية، كما قال تعالى: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} [٨١/ ٨-٩].

وأوضح جل وعلا هذه المعاني المذكورة في هذه الآيات في مواضع أخر، فبين أن جعلهم الإناث لله، أو الذكور لأنفسهم قسمة غير عادلة، وأنها من أعظم الباطل.

وبين أنه لو كان متخذاً ولداً سبحانه وتعالى عن ذلك! لاصطفى أحسن النصيبين، ووبخهم على أن جعلوا له أخس الولدين، وبين كذبهم في ذلك، وشدة عظم ما نسبوه إليه. كل هذا ذكره في مواضع متعددة؛ كقوله: {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى} [٥٣/ ٢١]، وقوله: {أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} [٣٧/ ١٥١-١٥٤]، وقوله: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ

مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً} [١٧/ ٤٠]، وقوله: {أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ} [٤٣/ ١٦]، وقوله: {لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [٣٩/ ٤]، وقوله: {أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ} [٥٢/ ٣٩]، وقال جل وعلا: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ} [١٦/ ٦٢]، وقال: {أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} [٤٣/ ١٨]، وقال: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ} [٤٣/ ١٧].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

{وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ} حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين إنهم بنات الله {وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ} أي لأنفسهم الذكور حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة فكان {إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا} من الغم الذي أصابه {وَهُوَ كَظِيمٌ} أي كاظم على الحزن والأسف إذا بشِّر بأنثى وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه ويتوارى منهم من سوء ما بشر به

ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بشّر بها {أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ} أي يتركها من غير قتل على إهانة وذل {أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ} أي يدفنها وهي حية وهو الوأد الذي ذم الله به المشركين {أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله من نسبة الولد إليه

ثم لم يكفهم هذا حتى نسبوا له أردأ القسمين وهو الإناث اللاتي يأنفون بأنفسهم عنها ويكرهونها فكيف ينسبونها لله تعالى؟ فبئس الحكم حكمهم

ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون قال تعالى {لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ} أي المثل الناقص والعيب التام {وَلِلَّهِ

الْمَثَلُ الأعْلَى} وهو كل صفة كمال وكل كمال في الوجود فالله أحق به من غير أن يستلزم ذلك نقصا بوجه وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة {وَهُوَ الْعَزِيزُ} الذي قهر جميع الأشياء وانقادت له المخلوقات بأسرها {الْحَكِيمُ} الذي يضع الأشياء مواضعها فلا يأمر ولا يفعل إلا ما يحمد عليه ويثنى على كماله فيه

❁ ❁ ❁

رحمة الله بالعباد

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: ولو يؤاخذ الله ﷻ الناس بما يصدر منهم من الشرك والكبائر والمعاصي والضلالات لأهلك كل الدواب التي على الأرض، ولكن جرت حكمته أن يؤخرهم إلى انقضاء آجالهم التي حدَّدها وسمَّاها ﷻ فإذا جاء وقت انقضاء آجالهم قبضهم إليه فلا يتأخرون عن وقتهم ولا يتقدمون عنه.

هذا، وقد يطرح هاهنا سؤال حاصله: أليس في العباد طيبون وفضلاء وأهل صلاح فضلًا عن الأنبياء والمرسلين؟!!

فجواب ذلك كبلى فيهم هؤلاء، ولكن ذنوب الأكثرين تغطي على أعمال الصالحين، بل وتؤثر أيضًا على الدواب، وقد سئل النبي ﷺ: «**أنهلك وفينا الصالحون قال نعم، إذا كثر الخبث**».

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ) عصاة بني آدم بمعاصيهم (مَا تَرَكَ

عَلَيْهَا) يعني على الأرض (مِنْ دَابَّةٍ) تدب عليها (وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ) يقول: ولكن بحلمه يؤخر هؤلاء الظلمة فلا يعاجلهم بالعقوبة (إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) يقول: إلى وقتهم الذي وُقِّت لهم، (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ) يقول: فإذا جاء الوقت الذي وُقِّت لهلاكهم (لا يَسْتَأْخِرُونَ) عن الهلاك ساعة فيمهلون (وَلا يَسْتَقْدِمُونَ) له حتى يستوفُوا آجالهم.

وأورد بسندٍ صحيح عن أبي الأحوص، قال: كاد الجُعْل أن يعذّب بذنب بني آدم، وقرأ)لَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ) .

ونحوه من وجهين عن ابن مسعود قال: كاد الجُعل أن يهلك في جُحره بخطيئة ابن آدم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن حلمه (١) بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي: لأهلك جميع دواب الأرض تبعا لإهلاك بني آدم، ولكن الرب، جل جلاله، يحلم ويستر، وينظر {إلى أجل مسمى} أي: لا يعاجلهم بالعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحدا.

وقال القرطبي:

قوله تعالى: (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) أي بكفرهم وافترائهم، وعاجلهم. (ما ترك عليها) أي على الأرض، فهو كناية عن غير مذكور، لكن دل عليه قوله:" من دابة" فإن الدابة لا تدب إلا على الأرض. والمعنى المراد من دابة كافرة فهو خاص. وقيل: المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء. وقيل: المراد بالآية العموم، أي لو أخذ الله الخلق بما كسبوا ما ترك على ظهر هذه الأرض من دابة من نبي ولا غيره، وهذا قول الحسن. وقال ابن

مسعود وقرأ هذه الآية: لو أخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العذاب جميع الخلق حتى الجعلان «١» في حجرها، ولأمسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض فمات الدواب، ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل، كما قال:" ويعفوا عن كثير «٢» " (فإذا جاء أجلهم) أي أجل موتهم ومنتهى أعمارهم. (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وقد تقدم «٣» فإن قيل: فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمنا ليس بظالم؟ قيل: يجعل هلاك الظالم انتقاما وجزاء، وهلاك المؤمن معوضا بثواب الآخرة.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ[(١)] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **" إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى نِيَّاتِهِمْ "**. وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ وَسُئِلَتْ عَنِ الْجَيْشِ الَّذِي يُخْسَفُ بِهِ وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَقَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **" يَعُوذُ بِالْبَيْتِ عَائِذٌ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ "** فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ كَارِهًا؟ قَالَ: **" يُخْسَفُ بِهِ مَعَهُمْ وَلَكِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى نِيَّتِهِ "**[(٢)].

وقال الشنقيطي:

واعلم: أن قوله تعالى: {مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ} [١٦/ ٦١]، فيه وجهان للعلماء:

أحدهما: أنه خاص بالكفار؛ لأن الذنب ذنبهم، والله يقول: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [٦/ ١٦٤]، ومن قال هذا القول قال: {مِنْ دَابَّةٍ}

---

(١) مسلم (٢٨٧٩).

(٢) مسلم (٢٨٨١) وله شواهد في الصحيحين وغيرهما أيضًا من طرق أُخر.

[١٦/ ٦١]، أي: كافرة؛ ويروى هذا عن ابن عباس. وقيل: المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء.

وجمهور العلماء، منهم ابن مسعود، وأبو الأحوص، وأبو هريرة، وغيرهم، كما نقله عنهم ابن كثير وغيره ـ على أن الآية عامة؛ حتّى إن ذنوب بني آدم لتهلك الجعل في حجره، والحبارى في وكرها، ونحو ذلك؛ لولا أن الله حليم لا يعجل بالعقوبة، ولا يؤاخذهم بظلمهم.

قال مقيده عفا الله عنه: وهذا القول هو الصحيح؛ لما تقرر في الأصول من: أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها لفظة {من} تكون نصاً صريحاً في العموم. وعليه فقوله: {مِنْ دَابَّةٍ}، يشمل كل ما يطلق عليه اسم الدابة نصاً.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه ذكر كمال حلمه وصبره فقال: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ} من غير زيادة ولا نقص، {مَا تَرَكَ عَلَيها مِنْ دَابَّةٍ} أي: لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحيوانات فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل. {وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ} عن تعجيل العقوبة عليهم إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ} فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾؟

ج: **المعنى – والله تعالى أعلم–**: أن أهل الشرك يجعلون البنات له سبحانه

وتعالى، ويتقولون كذبًا أن الحسنى لهم، وقد اختلف العلماء في الحسنى فقال بعضهم: المراد الغلمان، أي: البنين الذكور.

وحجة أصحاب هذا القول قوله تعالى: ﴿﴾.

وقال آخرون - وأرى قولهم صائبًا-: إن المراد بالحسنى الجنة، وشاهد ذلك قول قائلهم: ﴿﴾.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فمعناه حقًّا ﴿﴾ منيوه فيها مُهملون متروكون.

وبنحو ما ذُكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويجعل هؤلاء المشركون لله ما يكرهونه لأنفسهم. (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ) يقول: وتقول ألسنتهم الكذب وتفتريه، أن لهم الحسنى، فأن في موضع نصب، لأنها ترجمة عن الكذب. وتأويل الكلام: ويجعلون لله ما يكرهونه لأنفسهم، ويزعمون أن لهم الحسنى، الذي يكرهونه لأنفسهم. البنات يجعلونهن لله تعالى، وزعموا أن الملائكة بنات الله. وأما الحُسنى التي جعلوها لأنفسهم: فالذكور من الأولاد، وذلك أنهم كانوا يئدون الإناث من أولادهم، ويستبقون الذكور منهم، ويقولون: لنا الذكور ولله البنات، وهو نحو قوله (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ).

وأورد من وجهين يصحان بمجموعهما عن قتادة، قوله: (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ) : أي يتكلمون بأن لهم الحُسنى أي الغلمان.

وقوله (لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ) يقول تعالى ذكره: حقا واجبا أن لهؤلاء القائلين لله البنات، الجاعلين له ما يكرهونه لأنفسهم، ولأنفسهم

الحسنى عند الله يوم القيامة النار.

وقوله (وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ) يقول تعالى ذكره: وأنهم مُخَلَّفون متروكون في النار، منسيون فيها.

وأورد بسندٍ صحيح عن سعيد بن جبير في هذه الآية (لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ) قال: منسيون مُضَيَّعون.

وفي رواية متروكون في النار، منسيون فيها.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنهم مُعْجَلُونَ إلى النار مقدّمون إليها، وذهبوا في ذلك إلى قول العرب: أفرطنا فلانا في طلب الماء، إذا قدّموه لإصلاح الدلاء والأرشية، وتسوية ما يحتاجون إليه عند ورودهم عليه فهو مُفْرَط. فأما المتقدّم نفسه فهو فارط، يقال: قد فَرَط فلان أصحابَه يَفْرُطهم فُرْطا وفُروطا: إذا تقدمهم وجمع فارط: فُرَّاط.

وأورد بسندٍ صحيح بطريقيه عن قتادة ﷺ قال: قد أفرطوا في النار أي مُعْجَلُون.

وقال آخرون. معنى ذلك: مُبْعَدون في النار.

قال الطبري:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب القول الذي اخترناه، وذلك أن الإفراط الذي هو بمعنى التقديم، إنما يقال فيمن قدَم مقدَما لإصلاح ما يقدم إليه إلى وقت ورود من قدمه عليه، وليس بمقدم من قدم إلى النار من أهلها لإصلاح شيء فيها لوارد يرد عليها فيها فيوافقه مصلحا، وإنما تَقَدّم مَن قُدِّم إليها لعذاب يُعجَّل له. فإذا كان معنى ذلك الإفراط الذي هو تأويل التعجيل ففسد أن يكون له وجه في الصحة، صحّ المعنى الآخر، وهو الإفراط الذي بمعنى

التخليف والترك. وذلك أنه يُحكى عن العرب: ما أَفْرطت ورائي أحدًا: أي ما خَلَّفته؛ وما فرطته: أي لم أخلفه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: {ويجعلون لله ما يكرهون} أي: من البنات ومن الشركاء الذين هم [من] (٥) عبيده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله.

وقوله: {وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى} إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثم معاد ففيه أيضا لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: {ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور} [هود: ٩، ١٠]، وكقوله (٦): {ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ} [فصلت: ٥٠]، وقوله: {أفرأيت الذي كفر (٧) بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا [أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا]} [مريم: ٧٧، ٧٨] (٨) وقال إخبارا عن أحد الرجلين: أنه {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال (٩) ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا} [الكهف: ٣٥، ٣٦]-فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل، بأن يجازوا على ذلك حسنا وهذا مستحيل، كما ذكر ابن إسحاق: أنه وجد حجر في أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوب عليه حكم ومواعظ، فمن (١٠) ذلك: تعملون السيئات (١١) ويجزون الحسنات؟ أجل كما يجتنى (١٢) من الشوك العنب (١٣).

وقال مجاهد، وقتادة: {وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى} أي الغلمان. (١٤)

وقال ابن جرير: {أن لهم الحسنى} أي: يوم القيامة، كما قدمنا بيانه، وهو الصواب، ولله الحمد.

ولهذا قال الله تعالى رادا عليهم في تمنيهم [ذلك] (١٥) {لا جرم} أي: حقا لا بد منه {أن لهم النار} أي: يوم القيامة، {وأنهم مفرطون}.

وأورد نحوًا مما تقدم في تفسير مفرطون.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أن المشركين {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ} من البنات، ومن الأوصاف القبيحة وهو الشرك بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد لله، فكما أنهم يكرهون، ولا يرضون أن يكون عبيدهم -وهم مخلوقون من جنسهم- شركاء لهم فيما رزقهم الله فكيف يجعلون له شركاء من عبيده؟!!

{وَ} هم مع هذه الإساءة العظيمة {تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى} أي: أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والحق الذي لا شك فيه: أن المراد بالحسنى: هو زعمهم أنه إن كانت الآخرة حقاً فسيكون لهم فيها أحسن نصيب كما كان لهم في الدنيا. ويدل على صحة هذا القول الأخير دليلان:

أحدهما: كثرة الآيات القرآنية المبينة لهذا المعنى؛ كقوله تعالى عن الكافر: {وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى} [٤١/ ٥٠]، وقوله:

{وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَبًا} [١٨/ ٣٦]، وقوله: {وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً} [١٩/ ٧٧]، وقوله: {وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [٣٤/ ٣٥]، وقوله: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ...} الآية [٢٣/ ٥٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

والدليل الثاني: أن الله أتبع قوله: {أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى} [١٦/ ٦٢]، بقوله: {لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ...} الآية[١٦/ ٦٢]، فدل ذلك دلالة واضحة على ما ذكرنا، والعلم عند الله. والمصدر المنسبك من {أَنَّ} وصلتها في قوله {أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى} [١٦/ ٦٢]، في محل نصب، بدل من قوله: {الْكَذِبَ}، ومعنى وصف ألسنتهم الكذب قولها للكذب صريحًا لا خفاء به.

❋ ❋ ❋

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: قسمٌ من الله ﷻ، يقسم جل جلاله بنفسه الكريمة أنه ﷻ أرسل رسلًا من قبلك يا رسول الله إلى أمم سبقت رفضت فحسَّن لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم يوم القيامة، أي: ناصرهم بزعمهم فبئس الولي وخاب الناصر، وهذا نوع استهزاء بأهل الكفر فإذا كان ناصركم لا يملك دفع الضر والعذاب عن نفسه فكيف يدفع عن غيره، بل أنتم وأولياؤكم لكم عذاب أليم. مؤلم موجعٌ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مقسِما بنفسه عزّ وجلّ لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: والله يا محمد لقد أرسلنا رسلا من قبلك إلى أممها بمثل ما أرسلناك إلى أمتك

من الدعاء إلى التوحيد لله، وإخلاص العبادة له، والإذعان له بالطاعة، وخلع الأنداد والآلهة (فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ) يقول: فحسَّن لهم الشيطان ما كانوا عليه من الكفر بالله وعبادة الأوثان مقيمين، حتى كذّبوا رسلهم، وردّوا عليهم ما جاءوهم به من عند ربهم (فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ) يقول: فالشيطان ناصرهم اليوم في الدنيا، وبئس الناصر (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) في الآخرة عند ورودهم على ربهم، فلا ينفعهم حينئذ ولاية الشيطان، ولا هي نفعتهم في الدنيا، بل ضرّتهم فيها وهي لهم في الآخرة أضرّ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلا فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يهيدنك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل، فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه، {فهو وليهم اليوم} أي: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم، ولا يملك لهم خلاصا؛ ولا صريخ لهم ولهم عذاب أليم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بيَّن تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه ليس هو أول رسول كُذِّب فقال [تعالى] : {تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ} رسلا يدعونهم إلى التوحيد، {فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ} فكذبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه، هو الحق المنجي من كل مكروه وأن ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم، صار وليهم في الدنيا، فأطاعوه واتبعوه وتولوه. {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} في الآخرة حيث تولوا عن ولاية الرحمن، ورضوا بولاية

الشيطان فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وما أنزلنا عليك يا رسول الله الكتاب الذي أنزلناه عليك وهو القرآن إلا لتبين وتوضح للناس المسائل التي يختلفون فيها من أمر البعث والمعاد والثواب والعقاب وأخبار الأمم الماضية وأخبار ما هو آت، وكذا ما أحل الله لهم وما حرَّم الله عليهم، إلى غير ذلكن وكذا أنزلناه هداية ودلالة لمن يريد أن يهتدي ورحمةً لقوم يؤمنون، يصدقون بوحدانية الله ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: وما أنزلنا يا محمد عليك كتابنا وبعثناك رسولا إلى خلقنا إلا لتبين لهم ما اختلفوا فيه من دين الله، فتعرّفهم الصواب منه، والحقّ من الباطل، وتقيم عليهم بالصواب منه حجة الله الذي بعثك بها.

وقوله (وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) يقول: وهدى بيانا من الضلالة، يعني بذلك الكتاب، ورحمة لقوم يؤمنون به، فيصدّقون بما فيه، ويقرّون بما تضمن من أمر الله ونهيه، ويعملون به، وعطف بالهدى على موضع ليبين، لأن موضعها نصب. وإنما معنى الكلام: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا بيانًا للناس فيما اختلفوا فيه هدى ورحمة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال (١) تعالى لرسوله: أنه إنما أنزل (٢) عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه {وهدى} أي: للقلوب، {ورحمة} أي: لمن تمسك به، {لقوم يؤمنون}

وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي [الله] (٣) الأرض بعد موتها بما ينزله (٤) عليها من السماء من ماء، {إن في ذلك لآية لقوم يسمعون} أي: يفهمون الكلام ومعناه.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى: وما أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن، إلا لتبين للناس الحق، فيما كان موضع اختلافهم، من التوحيد، والقدر، وأحكام الأفعال، وأحوال المعاد، وليكون هداية تامة، ورحمة عامة، لقوم يؤمنون بالله، وبالكتاب الذي أنزله.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ
يَسۡمَعُونَ ٦٥ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ
لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ
سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ
ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ
فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ
لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن
يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠ وَٱللَّهُ فَضَّلَ
بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا
مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١ وَٱللَّهُ جَعَلَ
لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ
وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢
وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا
يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾

[النحل: ٦٥-٧٤]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿لَعِبْرَةً - فَرْثٍ - خَالِصًا - سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ - سَكَرًا - وَرِزْقًا حَسَنًا - وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ - يَعْرِشُونَ - فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ - ذُلُلًا - أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ - بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ - فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ - يَجْحَدُونَ - وَحَفَدَةً - أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ - فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿لَعِبْرَةً﴾	لعظةً.
﴿فَرْثٍ﴾	زبل وبول (وما تخرجه البهائم من دبرها وقُبلها).
﴿خَالِصًا﴾	صافيًا غير مشوبٍ (غير مختلط بالدم أو بالاحمرار أو بأي شيء آخر).
﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾	مستساغًا يستسيغه الشاربون ولا يقف في حلوقهم.
﴿سَكَرًا﴾	خَمرًا، وقيل: المشروبات ذات الطعم الحسن السكري، كالنبيذ (التمر المنقوع في الماء، أو الزبيب المنقوع في الماء).
﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾	رزقًا طيبًا (كالتمر والزبيب والعنب والرطب وغير ذلك).
﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾	وألهم ربك النحل، وأرشدها وأمرها.

﴿يَعۡرِشُونَ﴾	يسقفون البيوت، يعرشون للأعناب سقوفًا كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾
﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ﴾	فامشي في الطرق التي ذلَّلها الله لك ويسرها الله لك، مذلَّلة لك مطيعة.
﴿أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾	آخر العمر وأسوأه وأَخَسُّهُ وأردؤه.
﴿بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾	بمُعطيه أموالهم لعبيدهم حتى يساورنهم.
﴿فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾	فهم فيه متساوون.
﴿يَجۡحَدُونَ﴾	ينكرون - يكفرون.
﴿وَحَفَدَةٗ﴾	أولاد الأولاد - خدم.
﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ﴾	الباطل الشيطان ومما يمليه من إملاءات وما يوحيه من إيحاءات.
﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾	فلا تشبهوا الله بخلقه - فلا تجعلوا له أمثالًا.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

ج: المعنى –والله أعلم–: تذكير بنعم الله ﷻ على العباد، والمعنى والله ﷻ معبودكم الحق الذي ينبغي ويجب أن يُفرد بالعبادة هو الذي أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها فأخرجت ثمرتها وأنبتت نملتها، إن في ذلك لدلالة على وحدانية الله ﷻ ودلالة على قدرته على البعث لقوم يسمعون فيفقهون.

وكذا فلكم في الأنعام (والمراد هنا الناقة والبقرة والنعجة والعنز) لكم فيما يخرج من بطونها من اللبن الذي يسقيكم الله إياه لعظةً وعبرةً فهذا اللبن الذي يخرج صافيًا نقيًّا مستساغًا تشربونهلا يغصُّكم، أي: لا يقف في حلوقكم، بل هو مستساغ لشاربين، هذا اللبن الذي يخرج من بين الدم والفرث، فلا يتأثر بدماء ولا تعلوه حمرة، وكذا لا يتأثر بالفرث الذي هو الزبل الذي يكون في الكرشى، فلا يتلوث به بل يخرج نقيًّا مستساغًا صافيًا لكم فيه دلالة على وحدانية الله ﷻ وعظةً تتعظون بها.

وكذا لكم عبرة في ثمرات النخيل (التي هي التمر والرطب والبلح وغير ذلك ولكم في الأعناب أيضًا عبرة).

ومن هذا وذاك تتخذون وتصنعون السكر والرزق الحسن، إن في ذلك لدلالة على وحدانية الله ﷻ وقدرته لقوم يعقلون عن الله آياته، لقوم يفهمون ويتعظون.

هذا، وقد اختلف العلماء وتعددت أقوالهم في تفسير السَّكر الذي امتن الله به على العباد، فقال الجمهور من العلماء إنه الخمر فهو الذي يُسكر قالوا، وكان هذا قبل تحريم الخمر، قالوا: والرزق الحسن التمر والزبيب، وقالوا: إن هذا القدر من الآية الكريمة منسوخٌ بآيات تحريم الخمر.

وقال فريق آخر من أهل العلم: إن المراد بالسَّكر المشروبات الطيبة ذات الطعم الطيب كالعصائر ونحوها، وكالنبيذ الذي يُنتبذ ولا يصل إلى حد السكر، أعني كالتمر المنقوع في الماء والزبيب المنقوع في الماء، وعلى هذا فلا نسخ في الآية الكريمة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره منبهَ خلقِه على حججه عليهم في توحيده، وأنه لا تنبغي الألوهية إلا له، ولا تصلح العبادة لشيء سواه: أيها الناس معبودكم الذي له العبادة دون كلّ شيء، (أَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) يعني: مطرا، يقول: فأنبت بما أنزل من ذلك الماء من السماء الأرض الميتة التي لا زرع بها ولا عُشْبَ ولا نبت (بَعْدَ مَوْتِهَا) بعد ما هي ميتة لا شيء فيها (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً) يقول تعالى ذكره: إن في إحيائنا الأرض بعد موتها بما أنزلنا من السماء من ماء لدليلا واضحًا، وحجة قاطعة، عذر من فكر فيه (لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) يقول: لقوم يسمعون هذا القول فيتدبرونه ويعقلونه، ويطيعون الله بما دلهم عليه.

يقول تعالى ذكره: وإن لكم أيها الناس لعظة في الأنعام التي نُسقيكم مما في بطونه.

وقوله (مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا) يقول: نسقيكم لبنا، نخرجه لكم من بين فرث ودم خالصا: يقول: خلص من مخالطة الدم والفرث، فلم يختلطا به

(سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ) يقول: يسوغ لمن شربه فلا يَغَصّ به كما يَغَصّ الغاصّ بعض ما يأكله من الأطعمة. وقيل: إنه لم يَغصّ أحد باللبن قَطُّ.

ويقول تعالى ذكره: ولكم أيضًا أيها الناس عِبرةٌ فيما نسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا، مع ما نسقيكم من بطون الأنعام من اللبن الخارج من بين الفرث والدم. وحذف من قوله (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ) الاسم، والمعنى ما وصفت، وهو: ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه لدلالة "مِن" عليه، لأن "من" تدخل في الكلام مُبَعِّضة، فاستغني بدلالتها ومعرفة السامعين بما يقتضي من ذكر الاسم معها. وكان بعض نحويِّي البصرة يقول في معنى الكلام: ومن ثمرات النخيل والأعناب شيء تتخذون منه سكرا، ويقول: إنما ذكرت الهاء في قوله (تَتَّخِذُونَ مِنْهُ) لأنه أريد بها الشيء، وهو عندنا عائد على المتروك، وهو "ما". وقوله (تَتَّخِذُونَ) من صفة "ما" المتروكة.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله (تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا) فقال بعضهم: عني بالسَّكَر: الخمر، وبالرزق الحسن: التمر والزبيب، وقال: إنما نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر، ثم حُرّمت بعد.

وأورد الطبري من طرق عن الأسود بن قيس عن عمرو بن سفيان عن ابن عباس ﷺ قال: الرزق الحسن ما أحل من ثمرتها، والسَّكر ما حُرِّم من ثمرتها.

وروى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه أيضًا.

وصح هذا عن سعيد بن جبير أيضًا، قال: السكر ما حُرِّم من ثمرتها، وفي رواية: السكر خَمرٌ[1]، والرزق الحسن الحلال.

---

(١) والمراد: أنهم كانوا يصنعون الخمر من العنب والتمر، وقد ورد عن بعض أهل العلم أن الآية

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ أما السَّكَر: فخمور هذه الأعاجم، وأما الرزق الحسن: فما تنتبذون، وما تُخَلِّلون، وما تأكلون، ونزلت هذه الآية ولم تحرّم الخمر يومئذ، وإنما جاء تحريمها بعد ذلك في سورة المائدة.

وهذا التأويل عندي هو أولى الأقوال بتأويل هذه الآية، وذلك أن السَّكَر في كلام العرب على أحد أوجه أربعة: أحدها: ما أسكر من الشراب. والثاني: ما طُعِم من الطعام، كما قال الشاعر:

جَعَلْتُ عَيْبَ الأكْرَمِينَ سَكَرَا

أي طعما. والثالث: السُّكُون، من قول الشاعر:

جَعَلْتُ عَيْنَ الحَرُورِ تَسْكُرُ

وقد بيَّنا ذلك فيما مضى. والرابع: المصدر من قولهم: سَكَر فلان يَسْكَر سُكْرا وسَكَرا، فإذا كان ذلك كذلك، وكان ما يُسْكِر من الشراب حراما بما قد دللنا عليه في كتابنا المسمى: "لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام" وكان غير جائز لنا أن نقول: هو منسوخ، إذ كان المنسوخ هو ما نفى حكمه الناسخ، وما لا يجوز اجتماع الحكم به وناسخه، ولم يكن في حكم الله تعالى ذكره بتحريم الخمر دليل على أن السَّكَر الذي هو غير الخمر، وغير ما يسكر من الشراب، حرام، إذ كان السكر أحد معانيه عند العرب، ومن نزل بلسانه القرآن هو كلّ ما طعم، ولم يكن مع ذلك، إذ لم يكن في نفس التنزيل دليل على أنه منسوخ، أو ورد بأنه منسوخ خبر من الرسول، ولا أجمعت عليه

الكريمة نزلت وهم يشربون الخمر، فكان هذا قبل ان ينزل تحريم الخمر.

الأمة، فوجب القول بما قلنا من أن معنى السَّكَر في هذا الموضع: هو كلّ ما حلّ شربه، مما يتخذ من ثمر النخل والكرم، وفسد أن يكون معناه الخمر أو ما يسكر من الشراب، وخرج من أن يكون معناه السَّكَر نفسه، إذ كان السَّكَر ليس مما يتخذ من النَّخْل والكَرْم، ومن أن يكون بمعنى السكون.

وقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) يقول: فيما إن وصفنا لكم من نعمنا التي آتيناكم أيها الناس من الأنعام والنخل والكرم، لدلالة واضحة وآية بينة لقوم يعقلون عن الله حججه، ويفهمون عنه مواعظه، فيتعظون بها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: {وإن لكم} أيها الناس {في الأنعام} وهي: الإبل والبقر والغنم، {لعبرة} أي: لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته، {نسقيكم مما في بطونه} وأفرد هاهنا [الضمير] (٥) عودا على معنى النعم، أو الضمير (٦) عائد على الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات، أي نسقيكم مما في بطن (٧) هذا الحيوان.

وفي الآية الأخرى: {مما في بطونها} [المؤمنون: ٢١]، ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: {كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره} [المدثر: ٥٤، ٥٥]، وفي قوله تعالى: {وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان} [النمل: ٣٥، ٣٦] أي: المال.

وقوله: {من بين فرث ودم لبنا خالصا} أي: يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه، إذا نضج الغذاء في معدته تصرف (١) منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع (٢) وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد

انفصاله عنه، ولا يتغير به.

وقوله: {لبنا خالصا سائغا للشاربين} أي: لا يغص به أحد (٣).

ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرابا للناس سائغا (٤)، ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة، من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه؛ ولهذا امتن به عليهم فقال: {ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا} دل على إباحته شرعا قبل تحريمه، ودل على التسوية بين السكر المتخذ من العنب، والمتخذ من النخل كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك، كما قال (٥) ابن عباس في قوله: {سكرا ورزقا حسنا} قال: السكر: ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما. وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله. يعني: ما يبس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء -وهو الدبس (٦) -وخل ونبيذ، حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك.

{إن في ذلك لآية لقوم يعقلون} ناسب ذكر العقل هاهنا، فإنه أشرف ما في الإنسان؛ ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها؛ قال الله تعالى: {وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون} [يس: ٣٤-٣٦].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: (والله أنزل من السماء) أي السحاب. (ماء فأحيا به الأرض

بعد موتها) عاد الكلام إلى تعداد النعم وبيان كمال القدرة. (إن في ذلك لآية) أي دلالة على البعث وعلى وحدانيته، إذ علموا أن معبودهم لا يستطيع شيئا، فتكون هذه الدلالة (لقوم يسمعون) عن الله تعالى بالقلوب لا بالآذان، (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور «١»).

وقوله تعالى: (وإن لكم في الأنعام لعبرة) قد تقدم القول في الأنعام «١» ، وهي هنا الأصناف الأربعة: الإبل والبقر والضأن والمعز." لعبرة" أي دلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته. والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء لتعرف حقيقته من طريق المشاكلة، ومنه" فاعتبروا «٢» ". وقال أبو بكر الوراق: العبرة في الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، وتمردك على ربك وخلافك له في كل شي. ومن أعظم العبر بريئ يحمل مذنبا.

وقال أيضًا بعد أن أورد قول ابن عباس في تفسير السَّكر، قال القرطبي:

وقيل: السكر العصير الحلو الحلال، وسمي سكرا لأنه قد يصير مسكرا إذا بقي، فإذا بلغ الإسكار حرم. قال ابن العربي: أسد، هذه الأقوال قول ابن عباس، ويخرج ذلك على أحد معنيين، إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر، وإما أن يكون المعنى: أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرم الله عليكم اعتداء منكم، وما أحل لكم اتفاقا أو قصدا إلى منفعة أنفسكم. والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة، فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء، وتحريم الخمر مدني.

قلت: فعلى أن السكر الخمر أو العصير الحلو لا نسخ، وتكون الآية محكمة وهو حسن. قال ابن عباس: الحبشة يسمون الخل السكر، إلا أن الجمهور على أن السكر الخمر.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذكر قول الجمهور في تفسير قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ أي خمرًا، قال:

وإذا عرفت أن الصحيح هو مذهب الجمهور، وأن الله امتن على هذه الأمة بالخمر قبل تحريمها، فاعلم أن هذه الآية مكية، نزلت بعدها آيات مدنية بينت تحريم الخمر، وهي ثلاث آيات نزلت بعد هذه الآية الدالة على إباحة الخمر.

الأولى: آية البقرة التي ذكر فيها بعض معائبها ومفاسدها، ولم يجزم فيها بالتحريم، وهي قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [٢/ ٢١٩]، وبعد نزولها تركها قوم للإثم الذي فيها، وشربها آخرون للمنافع التي فيها.

الثانية: آية النساء الدالة على تحريمها في أوقات الصلوات، دون الأوقات التي يصحو فيها الشارب قبل وقت الصلاة، كما بين صلاة العشاء وصلاة الصبح، وما بين صلاة الصبح وصلاة الظهر، وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى...} الآية [٤/ ٤٣].

الثالثة: آية المائدة الدالة على تحريمها تحريماً باتاً، وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} إلى قوله - {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} [٥/ ٩٠-٩١].

وهذه الآية الكريمة تدل على تحريم الخمر أتم دلالة وأوضحها؛ لأنه تعالى صرح بأنها رجس، وأنها من عمل الشيطان، وأمر باجتنابها أمراً جازماً في قوله: {فَاجْتَنِبُوهُ}، واجتناب الشيء: هو التباعد عنه، بأن تكون في غير الجانب

الذي هو فيه. وعلق رجاء الفلاح على اجتنابها في قوله: {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، ويفهم منه: أنه من لم يجتنبها لم يفلح، وهو كذلك.

ثم بين بعض مفاسدها بقوله: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ} [٥/ ٩١]، ثم أكد النهي عنها بأن أورده بصيغة الاستفهام في قوله: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} [٥/ ٩١]، فهو أبلغ في الزجر من صيغة الأمر التي هي "انتهوا"، وقد تقرر في فن المعاني: أن من معاني صيغة الاستفهام التي ترد لها الأمر؛ كقوله: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}، وقوله: {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ...} الآية [٣/ ٢٠]، أي: أسلموا.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

يذكر الله تعالى في هذه الآية نعمة من أعظم النعم ليعقلوا عن الله مواعظه وتذكيره فيستدلوا بذلك على أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لأنه المنعم بإنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات، وعلى أنه على كل شيء قدير، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات وأن الذي نشر هذا الإحسان لذو رحمة واسعة وجود عظيم.

أي: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ} التي سخرها الله لمنافعكم {لَعِبْرَةً} تستدلون بها على كمال قدرة الله وسعة إحسانه حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث والدم، فأخرج من بين ذلك لبنا خالصا من الكدر سائغا للشاربين للذته ولأنه يسقي ويغذي، فهل هذه إلا قدرة إلهية لا أمور طبيعية.

فأي شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح لبنا خالصا سائغا للشاربين؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد، ومصالح من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد طريًّا ونضيجا وحاضرا ومدخرا وطعاما وشرابا يتخذ من عصيرها ونبيذها، ومن السكر الذي كان حلالا قبل ذلك، ثم إن الله نسخ حلَّ المسكرات، وأعاض عنها بالطيبات من الأنبذة، وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} عن الله كمال اقتداره حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب، فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة وعلى شمول رحمته حيث عم (١) بها عباده ويسرها لهم وأنه الإله المعبود وحده حيث إنه المنفرد بذلك.

❁ ❁ ❁

س: إلى ماذا يعود الضمير في قوله: ﴿﴾؟

ج: أورد القرطبي أقوالًا في الإجابة على هذا السؤال إذ قال:

اختلف الناس في الضمير من قوله:" مما في بطونه" على ماذا يعود. فقيل: هو عائد إلى ما قبله وهو جمع المؤنث. قال سيبويه: العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد. قال ابن العربي: وما أراه عول عليه إلا من هذه الآية، وهذا لا يشبه منصبه ولا يليق بإدراكه. وقيل: لما كان لفظ الجمع وهو اسم الجنس يذكر ويؤنث فيقال: هو الأنعام وهي الأنعام، جاز عود الضمير بالتذكير، وقال الزجاج، وقال الكسائي: معناه مما في بطون ما ذكرناه، فهو عائد على المذكور، وقد قال الله تعالى:" إنها تذكرة. فمن شاء ذكره «١» " وقال الشاعر:

مثل الفراخ نتفت حواصله

ومثله كثير. وقال الكسائي:" مما في بطونه" أي مما في بطون بعضه، إذ

الذكور لا ألبان لها، وهو الذي عول عليه أبو عبيدة. وقال الفراء: الأنعام والنعم واحد، والنعم يذكر، ولهذا تقول العرب: هذا نعم وارد، فرجع الضمير إلى لفظ النعم الذي هو بمعنى الأنعام. قال ابن العربي: إنما رجع التذكير إلى معنى الجمع، والتأنيث إلى معنى الجماعة، فذكره هنا باعتبار لفظ الجمع، وأنثه في سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة فقال:" نسقيكم مما في بطونها «٢» " وبهذا التأويل ينتظم المعنى انتظاما. حسنا. والتأنيث باعتبار لفظ الجماعة والتذكير باعتبار لفظ الجمع أكثر من رمل «٣» يبرين وتيهاء فلسطين.

وقال الشنقيطي (أضواء البيان):

وقد دلت الآيات المذكورة على أن الأنعام يصح تذكيرها وتأنيثها؛ لأنه ذكرها هنا في قوله: {نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ} [١٦/ ٦٦]، وأنثها "في سورة قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ" في قوله: {نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ} [٢٣/ ٢١]، ومعلوم في العربية: أن أسماء الأجناس يجوز فيها التذكير نظراً إلى اللفظ، والتأنيث نظراً إلى معنى الجماعة الداخلة تحت اسم الجنس. وقد جاء في القرآن تذكير الأنعام وتأنيثها كما ذكرناه آنفا. وجاء فيه تذكير النخل وتأنيثها؛ فالتذكير في قوله: {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ} [٥٤/ ٢٠]، والتأنيث في قوله: {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} [٦٩/ ٧]، ونحو ذلك. وجاء في القرآن تذكير السماء وتأنيثها؛ فالتذكير في قوله: {السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ} [٧٣/ ١٨]، والتأنيث في قوله: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ...} الآية[٥١/ ٤٧]، ونحو ذلك من الآيات. وهذا معروف في العربية، ومن شواهده قول قيس بن الحصين الحارثي الأسدي وهو صغير في تذكير النعم:

في كل عام نعم تحوونه ... يلقحه قوم وتنتجونه

❁ ❁ ❁

ذِكر النحل ونعمة الله وقدرته فيه

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: وألهم ربك ﷻ النحل وعلمها كيفية اتخاذ البيوت التي نسكنها وهي الخلايا، تتخذها في الجبال فتكون لنفسها خلايا في الجبال، وكذا على الأشجار، وكذا في سقوف البيوت، وسقوف حدائق العنب والحدائق التي لها عروش، أي: كالأعناب التي تكون لها عروش، ثم أوحى الله إليها أيضًا، علمها وأرشدها أن تأكل من الثمرات التي تحتاج إليها وتستسيغها، فاسلكي الطرق التي سخرها الله لك وذلَّلها الله لك وكذا مطيعةً لله ﷻ تبتغي رزق الله ﷻ فكلي من هذا الثمار ومُصِّي من رحيقها، يخرج الله بذلك من بطون هذه النحل شرابٌ، وهو العسل مختلفٌ ألوانه بحسب الطعومات التي تطعمها النحلة، وفي هذا العسل شفاء للناس، كما قد بينته أحاديث رسول الله ﷺ، إن في ذلك لدلالة على وحدانية الله وقدرته لقومٍ يتفكرون في مخلوقات الله ﷻ فيستدلون بها على وحدانيته وقدرته وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وألهم ربك يا محمد النحل إيحاء إليها (أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) يعني: مما يبنون من السقوف، فرفعوها بالبناء.

ويقول تعالى ذكره: ثم كلي أيتها النحل من الثمرات، (فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ) يقول: فاسلكي طرق ربك (ذُلُلا) يقول: مُذَلَّلة لك، والذُّلُل: جمع ذَلُول.

والتأويل على قوله (فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلا) الذُّلُل لكِ: لا يتوعر عليكِ سبيل سلكتيه، ثم أسقطت الألف واللام فنصب على الحال.

وأورد قول قتادة بسندٍ حسن: أي مطيعة.

وقوله (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) يقول تعالى ذكره: يخرج من بطون النحل شراب، وهو العسل، مختلف ألوانه، لأن فيها أبيض وأحمر وأسحر، وغير ذلك من الألوان.

قال أبو جعفر: أسحر: ألوان مختلفة مثل أبيض يضرب إلى الحمرة.

وقوله (فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) اختلف أهل التأويل فيما عادت عليه الهاء التي في قوله (فِيهِ) ، فقال بعضهم: عادت على القرآن، وهو المراد بها.

وقال آخرون: بل أريد بها العسل.

وأورد بسندٍ يصحح من طريقين عن قتادة، قوله: (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) ففيه شفاء كما قال الله تعالى من الأدواء، وقد كان ينهى عن تفريق النحل، وعن قتلها.

وقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) يقول تعالى ذكره: إن في إخراج الله من بطون هذه النحل: الشراب المختلف، الذي هو شفاء للناس، لدلالة وحجة واضحة على من سخَّر النحل وهداها لأكل الثمرات التي تأكل، واتخاذها البيوت التي تنحت من الجبال والشجر والعروش، وأخرج من بطونها ما أخرج من الشفاء للناس، أنه الواحد الذي ليس كمثله شيء، وأنه لا

ينبغي أن يكون له شريك ولا تصحّ الألوهة إلا له.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المراد بالوحي هاهنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوي إليها، ومن الشجر، ومما يعرشون. ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصها، بحيث لا يكون بينها خلل.

ثم أذن لها تعالى إذنا قدريا تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى لها مذللة، أي: سهلة عليها حيث شاءت في هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنحتها، وتقيء العسل من فيها (١) وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها.

وقوله تعالى {يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه} أي: ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومأكلها منها (٦) .

وقوله: {فيه شفاء للناس} أي: في العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم.

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ} هُوَ الْعَسَلُ - الحديثُ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ[(١)] فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ رِوَايَةِ قَتَادَةَ، عَنْ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب: الدواء بالعسل، وقول الله ﷻ: {فيه شفاء للناس}، حديث (٥٦٨٤) (٩/ ١٣٩)، وطرفه في (٥٧١٦). ومسلم في كتاب اسلام، باب: التداوي بسقي العسل،

أَبِي الْمُتَوَكِّلِ عَلِيِّ بْنِ دَاوُدَ النَّاجِيِّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّ أَخِي استَطْلَق بطنُه. فَقَالَ: "اسْقِهِ عَسَلًا". فَسَقَاهُ عَسَلًا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، سَقَيْتُهُ عَسَلًا فَمَا زَادَهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا! قَالَ: "اذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا". فَذَهَبَ فَسَقَاهُ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا زَادَهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا! فقال رسول الله ﷺ: "صَدَقَ اللهُ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ! اذْهَبْ فَاسْقِهِ عَسَلًا". فَذَهَبَ فَسَقَاهُ فَبَرِئَ.

قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت، فأسرعت في الاندفاع، فزاد إسهاله، فاعتقد (٢) الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام (٣).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ(١)، مِنْ حَدِيثِ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُعْجِبُهُ الْحَلْوَاءُ وَالْعَسَلُ. هَذَا (٤) لَفْظُ الْبُخَارِيِّ (٥).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ(٢): مِنْ حَدِيثِ سَالِمٍ الْأَفْطَسِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ كَيَّةٍ بِنَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ" (٦).

حديث (٩١/ ٢٢١٧) (١٤/ ٢٩٢-١٩٣).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة، باب: شراب الحلواء والعسل، حديث (٥٦١٤)، ومسلم (١٤٧٤).

(٢) البخاري (٥٦٨٠).

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ[١]: حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الغَسِيلِ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ، أَوْ يكونُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ: فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَم، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ".

وقوله: {إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون} أي: إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامة والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء، {لآية لقوم يتفكرون} في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه [الفاعل] (١) القادر، الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (ثم كلي من كل الثمرات) وذلك أنها إنما تأكل النوار من الأشجار. (فاسلكي سبل ربك) أي طرق ربك. والسبل: الطرق، وأضافها إليه لأنه خالقها. أي ادخلي طرق ربك لطلب الرزق في الجبال وخلال الشجر. (ذللا) جمع ذلول وهو المنقاد، أي مطيعة مسخرة. فـ"ذللا" حال من النحل. أي تنقاد وتذهب حيث شاء صاحبها، لأنها تتبع أصحابها حيث ذهبوا، قاله ابن زيد. وقيل: المراد بقوله" ذللا" السبل. واليعسوب سيد «١» النحل، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) أي يعتبرون، ومن العبرة في

---

(١) البخاري (٢٢٠٥)، ومسلم (٢٢٧).

النحل بإنصاف النظر وإلطاف الفكر في عجيب أمرها. فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة، وحذقها باحتيالها في تفاوت أحوالها هو الله سبحانه وتعالى، كما قال:" وأوحى ربك إلى النحل" الآية. ثم أنها تأكل الحامض والمر والحلو والمالح والحشائش الضارة «٢» ، فيجعله الله تعالى عسلا حلوا وشفاء، وفي هذا دليل على قدرته.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ} الآية، المراد بالإيحاء هنا: الإلهام. والعرب تطلق الإيحاء على الإعلام بالشيء في خفية؛ ولذا تطلقه على الإشارة، وعلى الكتابة، وعلى الإلهام. ولذلك قال تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ} [١٦/ ٦٨]، أي: ألهمها، وقال: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} الآية[١٩/ ١١]، أي: أشار إليهم، وسمى أمره للأرض إيحاء في قوله: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا} [٩٩/ ٤، ٥]، ومن إطلاق الوحي على الكتابة قول لبيد في معلقته:

فمدافع الريان عرى رسمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها

فـ "الوحي" في البيت - بضم الواو وكسر الحاء وتشديد الياء - جمع وحي بمعنى الكتابة

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها، وهدايته لها ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال

عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعي سواه.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: والله خلقكم ثم يقبض أرواحكم ومنكم من يؤخره الله ﷻ إلى أن يبلغ عُمرًا طويلًا، إلى أن يبلغ أرذل العمر، وهو أردأ العمر وأضعفه وأخسُّهُ فيضعف عقله شيئًا بعد شيء حتى ينسى ما كان يذكر، وينكر ما كان يعرف ويصيبه الخرف إن الله عليم بكل شيء قديرٌ على كل شيء.

والآية كقوله تعالى: ﴿﴾.

والفارق هنا بين حال الطفولة وحال الشيخوخة أن حال الطفولة تتبعه قوة، والكل يريد بقاءه وحياته، أما حال الشيخوخة فلا تتبعه قوة بل يتبعه ضعف بعد ضعف وهزال بعد هزال، وتخريف بعد تخريف، إن قُدر له البقاء، فالأكثرون يرجون موته، حتى من يحبونه فإنهم يرجون موته لما يجدونه معه من العناء والمشقة، ولما يرونه فيه من التعب والمصائب والشدائد.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والله خلقكم أيها الناس وأوجدكم ولم تكونوا شيئا، لا الآلهة التي تعبدون من دونه، فاعبدوا الذي خلقكم دون غيره (ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ) يقول: ثم يقبضكم (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ) يقول: ومنكم من يهرم

فيصير إلى أرذل العمر، وهو أردؤه، يقال منه: رذل الرجل وفسل، يرذل رذالة ورذولة ورذلته أنا. وقيل: إنه يصير كذلك في خمس وسبعين سنة.

وقوله (لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا) يقول: إنما نردّه إلى أرذل العمر ليعود جاهلا كما كان في حال طفولته وصباه، بعد علم شيئا: يقول: لئلا يعلم شيئا بعد علم كان يعلمه في شبابه، فذهب ذلك بالكبر ونسي، فلا يعلم منه شيئا، وانسلخ من عقله، فصار من بعد عقل كان له لا يعقل شيئا (إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) يقول: إن الله لا ينسى، ولا يتغير علمه، عليم بكلّ ما كان ويكون، قدير على ما شاء لا يجهل شيئا، ولا يُعجزه شيء أراده.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم -وهو الضعف في الخلقة- كما قال الله تعالى: {الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير} [الروم: ٥٤].

وأورد ما أخرجه البخاري[١] من حديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كان يَدْعُو: «**أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ، وَالْهَرَمِ وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ، وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ**».

وَقَالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى فِي مُعَلَّقَتِهِ الْمَشْهُورَةِ:

سَئِمتُ تَكَاليفَ الحيَاة ومَنْ يعشْ ... ثمانينَ عاما -لا أبَالَك- يَسْأمِ

---

(١) البخاري (٤٧٠٧).

رَأَيتُ المَنَايا خَبطَ عَشْواء مَنْ تصِبْ تمتْه ومَنْ تُخْطئ يُعَمَّرْ فيَهْرَمِ

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}، بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن من الناس من يموت قبل بلوغ أرذل العمر، ومنهم من يعمر حتى يرد إلى أرذل العمر، وأرذل العمر آخره الذي تفسد فيه الحواس، ويختل فيه النطق والفكر، وخص بالرذيلة؛ لأنه حال لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد، بخلاف حال الطفولة، فإنها حالة ينتقل منها إلى القوة وإدراك الأشياء. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله في سورة الحج: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} [٢٢/ ٥]، وقوله في الروم: {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً} الآية [٣٠/ ٥٤]، وأشار إلى ذلك أيضًا بقوله: {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ} [٣٥/ ١١]، وقوله في سورة المؤمن: {ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [٤٠/ ٦٧].

وقال:

وقوله {لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا} [١٦/ ٧٠]، أي: يرد إلى أرذل العمر لأجل أن يزول ماكان يعلم من العلم أيام الشباب، ويبقى لايدري شيئا؛ لذهاب إدراكه بسبب الخرف. ولله في ذلك حكمة.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى أنه الذي خلق العباد ونقلهم في الخلقة، طورا بعد طور، ثم

بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم، ومنهم من يعمره حتى {يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ} أي: أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الطفل ولهذا قال: {لِكَيْلا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء ومن ذلك ما ينقل به الآدمي من أطوار الخلقة، خلقا بعد خلق كما قال تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ}.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: والله ﷻ فضَّل بعضكم أيها البشر على بعض في الرزق، فهذا غنيٌّ وهذا فقيرٌ، وهذا سيدٌ وهذا عبدٌ مملوك، فالغني منكم لا يرضى أن يُعطى الفقير من ماله حتى يستوي معه، والسيد منكم لا يريد أن يعطي مملوكه حتى يصبح سيدًا مثله، بل أنتم تستنكفون أن يكون السيد منكم مستويًا مع العبد، والغني فيكم مستويًا مع الفقير، فكيف تسوون بين الخالق والمخلوق؟؟!!

كيف تسوون بين الله ﷻ وبين أصنامٍ وأحجارٍ صنعتموها بأيديكم.

أفبنعم الله ﷻ التي أنعم بها عليكم تجحدون؟!، أفتنكرون نعم الله ﷻ عليكم وتكفرون بها ولا تشكرونها؟!!

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والله أيها الناس فضّل بعضكم على بعض في الرزق الذي رزقكم في الدنيا، فما الذين فضَّلهم الله على غيرهم بما رزقهم (بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) يقول: بمشركي مماليكِهم فيما رزقهم من الأموال والأزواج. (فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ) يقول: حتى يستووا هم في ذلك وعبيدهم، يقول تعالى ذكره: فهم لا يرضون بأن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقتهم سواء، وقد جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني، وهذا مَثَل ضربه الله تعالى ذكره للمشركين بالله. وقيل: إنما عنى بذلك الذين قالوا: إن المسيح ابن الله من النصارى. وقوله (أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ) يقول تعالى ذكره: أفبنعمة الله التي أنعمها على هؤلاء المشركين من الرزق الذي رزقهم في الدنيا يجحدون بإشراكهم غير الله من خلقه في، سلطانه ومُلكه؟

وأورد بسندٍ صحيح بمجموع طريقيه عن قتادة، قوله: (وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ) وهذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شارك مملوكه في زوجته وفي فراشه فتعدلون بالله خلقه وعباده، فإن لم ترض لنفسك هذا، فالله أحقّ أن ينزه منه من نفسك، ولا تعدل بالله أحدا من عباده وخلقه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه (٧) لله من الشركاء، وهم يعترفون (٨) أنها عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبياتهم في حجهم: "لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك". فقال تعالى منكرا عليهم: إنكم (٩) لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى

بمساواة عبيده له في الإلهية والتعظيم، كما قال في الآية الأخرى: {ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم} (١٠) الآية [الروم: ٢٨].

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: {أفبنعمة الله يجحدون} أي: أنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا، فجحدوا نعمته (٥) وأشركوا معه غيره.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) أي جعل منكم غنيا وفقيرا وحرا وعبدا. (فما الذين فضلوا) أي في الرزق. (برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم) أي لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق شيئا حتى يستوي المملوك والمالك في المال. وهذا مثل ضربه الله لعبدة الأصنام، أي إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عبيدي معي سواء، فلما لم يكن يشركهم عبيدهم في أموالهم لم يجز لهم أن يشاركوا الله تعالى في عبادة غيره من الأوثان والأنصاب وغيرهما مما عبد، كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلقه.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: {وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ}.

أظهر التفسيرات في هذه الآية الكريمة: أن الله ضرب فيها مثلاً للكفار، بأنه فضل بعض الناس على بعض في الرزق، ومن ذلك تفضيله المالكين على المملوكين في الرزق، وأن المالكين لا يرضون لأنفسهم أن يكون المملوكون

شركاءهم فيما رزقهم الله من الأموال والنساء وجميع نعم الله. ومع هذا يجعلون الأصنام شركاء لله في حقه على خلقه، الذي هو إخلاص العبادة له وحده، أي إذا كنتم لا ترضون بإشراك عبيدكم معكم في أموالكم ونسائكم، فكيف تشركون عبيدي معي في سلطاني!.

ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ} الآية [٣٠/ ٢٨]، ويؤيده أن {مَا} في قوله: {فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} [١٦/ ١٧]، نافية، أي: ليسوا برادي رزقهم عليهم حتى يسووهم مع أنفسهم اهـ.

فإذا كانوا يكرهون هذا لأنفسهم، فكيف يشركون الأوثان مع الله في عبادته! مع اعترافهم بأنها ملكه، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.

وهذه الآية الكريمة نص صريح في إبطال مذهب الاشتراكية القائل: بأنه لا يكون أحد أفضل من أحد من الرزق، ولله في تفضيل بعضهم على بعض في الرزق حكمة؛ قال تعالى: {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً} الآية [٤٣/ ٣٢]، وقال: {اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} [١٣/ ٢٦]، وقال: {عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ} [٢/ ٢٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وفي معنى هذه الآية الكريمة، قولان آخران:

أحدهما: أن معناها أنه جعلكم متفاوتين في الرزق؛ فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم ، وهم بشر مثلكم وإخوانكم؛ فكان ينبغي أن تردوا فضل ما

رزقتموه عليهم، حتى تساووا في الملبس والمطعم؛ كما ثبت عن النَّبي صلى الله عليه وسلم: أنه أمر مالكي العبيد أن يطعموهم مما يطعمون، ويكسوهم مما يلبسون، وعلى هذا القول فقوله تعالى: {فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} [١٦/ ٧١]، لوم لهم، وتقريع على ذلك.

القول الثاني: أن معنى الآية أنه جلَّ وعلا هو رازق المالكين والمملوكين جميعًا؛ فهم في رزقه سواء، فلا يحسبن المالكون أنهم يردون على مماليكهم شيئًا من الرزق، فإنما ذلك رزق الله يجريه لهم على أيديهم. والقول الأول هو الأظهر وعليه جمهور العلماء، ويدل له القرآن كما بينا. والعلم عند الله تعالى.

وقوله: {أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ} [١٦/ ٧١]، إنكار من الله عليهم جحودهم بنعمته؛ لأن الكافر يستعمل نعم الله في معصية الله، فيستعين بكل ما أنعم به عليه على معصيته، فإنه يرزقهم ويعافيهم، وهم يعبدون غيره. وجحد: تتعدى بالباء في اللغة العربية؛ كقوله: {وَجَحَدُوا بِهَا} الآية [٢٧/ ١٤]، وقوله: {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [٧/ ٥١]، والجحود بالنعمة هو كفرانها.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

وهذا من أدلة توحيده وقبح الشرك به، يقول تعالى: كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون إلا أنه تعالى {فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ} فجعل منكم أحرارا لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم لا يملكون شيئا من الدنيا، فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا {بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ} ويرون هذا من الأمور الممتنعة، فكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبيد ليس لها من الملك مثقال ذرة،

فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى؟!

هل هذا إلا من أعظم الظلم والجحود لنعم الله؟!! ولهذا قال: {أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ} فلو أقروا بالنعمة ونسبوها إلى من أولاها، لما أشركوا به أحدا.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: والله ﷻ خالقكم ومعبودكم هو الذي تفضَّل عليكم بأن جعل لكم من أنفسكم أزواجًا فخلق آدم عليه السلام وخلق منه زوجته حواء ثم بعد ذلك جعل منكم الذَّكر والأنثى، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة، وهم أبناء الأبناء، فالبنين هم الأولاد، والحفدة أولاد الأولاد، وقيل: الحفدة هم الخدم، وقيل: الحفدة هم الذي يسعون في الخدمة عمومًا سواء كانوا بنين أو خدم أو أبناء بنين، والله أعلم.

أما قوله: ﴿﴾ فمعناه: أفيصدقون الشيطان فيما أوحاه إليهم من تحريم الحلا وتحليل الحرام، فتبعون الشيطان فيما حرمه عليهم من نعم الله، فيحرمون نعم الله التي أباحها الله لهم، ويستحلون ما حرَّمه الله عليهم، فيكفرون بنعم الله ويجحدونها، ويقدمون على المحرم فيستبيحونه.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الباطل هنا الشيطان وكما أسلفت، وذهب آخرون إلى أن الباطل الآلهة المعبودة من دون الله من أوثانٍ وأصنام وغير ذلك.

فيصدق أهل الشرك أن الآلهة الباطلة تنفعهم أو تضرهم ويكذبون

بوحدانية الله وإنعامه عليهم بما أنعم

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره (وَاللَّهُ) الذي (جَعَلَ لَكُمْ) أيها الناس (مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) يعني أنه خلق من آدم زوجته حوّاء، (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً).

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) : أي والله خلق آدم، ثم خلق زوجته منه ثم جعل لكم بنين وحفدة.

واختلف أهل التأويل في المعنيين بالحفدة، فقال بعضهم: هم الأختان، أختان الرجل على بناته.

وقال آخرون: هم أعوان الرجل وخدمه.

وقال آخرون: هم ولد الرجل وولد ولده.

وقال آخرون: هم بنو امرأة الرجل من غيره.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى أخبر عباده معرفهم نعمه عليهم، فيما جعل لهم من الأزواج والبنين، فقال تعالى (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) فأعلمهم أنه جعل لهم من أزواجهم بنين وحفَدة، والحفَدة في كلام العرب: جمع حافد، كما الكذبة: جمع كاذب، والفسَقة: جمع فاسق. والحافد في كلامهم؛ هو المتخفِّف في الخدمة والعمل. والحَفْد: خفة العمل يقال: مرّ البعير يَحفِد حفَدَانا: إذا مرّ يُسرع في سيره. ومنه قولهم: "إليك نسعى

ونحفِد": أي نسرع إلى العمل بطاعتك... إلى آخر ما قال.

وقوله (وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) يقول: ورزقكم من حلال المعاش والأرزاق والأقوات، (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ) يقول تعالى ذكره: يحرّم عليهم أولياء الشيطان من البحائر والسوائب والوصائل، فيصدّق هؤلاء المشركون بالله (وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) يقول: وبما أحلّ الله لهم من ذلك، وأنعم عليهم بإحلاله، يكفرون، يقول: ينكرون تحليله، ويجحدون أن يكون الله أحله.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يذكر تعالى نعمه على عبيده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجا من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل ائتلاف ومودة ورحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكورا وإناثا، وجعل الإناث أزواجا للذكور.

ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين. قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك، وابن زيد.

قال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: {بنين وحفدة} هم الولد وولد الولد.

وأورد أقوالًا أُخر في تفسير الحفدة تقدم ذِكرها ثم قال:

{ورزقكم من الطيبات} من المطاعم والمشارب.

ثم قال تعالى منكرا على من أشرك في عبادة المنعم غيره: {أفبالباطل يؤمنون} وهم (١١) : الأصنام والأنداد، {وبنعمة الله هم يكفرون} أي: يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُمْتَنًّا عليه:

ألـم أزوجـك؟ ألـم أُكْرِمْـكَ؟ أَلَـمْ أُسَـخِّرْ لَـكَ الْخَيْـلَ وَالْإِبِـلَ وَأَذَرْكَ تـرأس وتَرْبع؟»(١).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجا ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولادا تقرُّ بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم، وينتفعون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات من جميع المآكل والمشارب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها.

{أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} أي: أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئا مذكورا ثم أوجده الله وليس له من وجوده سوى العدم فلا تخلق ولا ترزق ولا تدبر من الأمر شيئا، وهذا عام لكل ما عبد من دون الله فإنها باطلة فكيف يتخذها المشركون من دون الله؟!!

❋ ❋ ❋

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: ويعبد هؤلاء المشركون أصنامًا وأوثانًا وآلهة باطلة أخرى لا تملك هذه الأصنام والأوثان وآلهة باطلة أخرى لا تملك هذه الأصنام والأوثان والآلهة لعابديها رزقًا من السموات والأرض، ولا تقدر على ذلك، فلا تقدر على إنزال مطر، ولا على إنبات ثمرٍ ولا على سور رزق بأي حالٍ من الأحوال، ولا تستطيع ذلك فلا تضربوا يا أهل الشرك لله الأمثال، لا تشبهوا الله ﷻ بخلقه، ولا تجعلوا له أمثالًا وأندادًا، ولا تعبدون

(١) مسلم (٢٩٦٨).

معه آلهة أخرى تجعلونها شريكة له في ملكه وتشبهونها به، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وأما قوله: ﴿والله يعلم﴾ يعلم حقيقة كل شيء ويعلم أنه ﷻ ليس له ندٌّ ولا مثيل ولا شريك، ويعلم ما ينفعكم وما يضركم، ويعلم خطأ ما تمتثلونه به وما تشبهونه به وخطأتك الأمثال التي تضربونها له.

وكذا يعلم أنه لا إله إلا هو، وأنه لا معبود بحق سواه ولكنكم بجهلكم لا تعلمون ذلك وتشركون في عبادته معه غير تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه أوثانًا لا تملك لهم رزقا من السموات، لأنها لا تقدر على إنزال قطر منها لإحياء موتان الأرضين، والأرض: يقول: ولا تملك لهم أيضًا رزقًا من الأرض لأنها لا تقدر على إخراج شيء من نباتها وثمارها لهم، ولا شيئًا مما عدّد تعالى في هذه الآية أنه أنعم بها عليهم (وَلا يَسْتَطِيعُونَ) يقول: ولا تملك أوثانهم شيئًا من السموات والأرض، بل هي وجميع ما في السموات والأرض لله ملك، ولا يستطيعون يقول: ولا تقدر على شيء.

وقوله (فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ) يقول: فلا تمثلوا لِلهِ الأمثال، ولا تشبِّهوا له الأشباه، فإنه لا مِثْل له ولا شِبْه.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ) قال: هذه الأوثان التي تُعْبد من دون الله لا تملك لمن يعبدها رزقا ولا ضرّا ولا نفعا، ولا حياة ولا نشورا.

قال الطبري:

وقوله (فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ) فإنه أحَد صَمَد لم يَلِد ولم يُولَد ولم يكن

له كُفُوًا أحد (إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) يقول: والله أيها الناس يعلم خطأ ما تمثلون وتضربون من الأمثال وصوابه، وغير ذلك من سائر الأشياء، وأنتم لا تعلمون صواب ذلك من خطئه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى إخبارا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان {ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا} أي: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك، أي: ليس لهم (١) ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى {فلا تضربوا لله الأمثال} أي: لا تجعلوا (٢) له أندادا وأشباها (٣) وأمثالا {إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون} أي: أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله (٤) وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا
حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ
أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا
يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ
يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا
تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ
تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا
يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ
بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ
وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ
﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ
أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم
بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ

فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

[النحل: ٧٥-٨٣]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿أَبْكَمُ - كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَـٰهُ - وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ - إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ - مُسَخَّرَٰتٍ - ظَعْنِكُمْ - إِقَامَتِكُمْ - أَثَـٰثًا - أَكْنَـٰنًا - سَرَٰبِيلَ - تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ - بَأْسَكُمْ - تُسْلِمُونَ - نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَبْكَمُ﴾	أخرس لا يتكلم.
﴿كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَـٰهُ﴾	عالةٌ على سيده.
﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾	وما أمر الله بقيام الساعة إذا أرد أن تقوم الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب.
﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾	مُذللات.
﴿ظَعْنِكُمْ﴾	سفركم.
﴿إِقَامَتِكُمْ﴾	استقراركم في بلادكم.
﴿أَثَـٰثًا﴾	أثاث البيوت من فراشٍ وقرب وقدور وغير ذلك.
﴿أَكْنَـٰنًا﴾	أماكن تسكنونها تستكنون فيها، كالمغارات والغيران (جمع غار) والكهوف وغير ذلك.
﴿سَرَٰبِيلَ﴾	ثياب.
﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾	تحفظكم من الحر.
﴿بَأْسَكُمْ﴾	بأس غيركم، سهام غيركم.

﴿ تُسۡلِمُونَ ﴾	تشهدون ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.
﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾	نعمته بإرسال الرسول محمد ﷺ إليك وعموم نعمه عليكم.

❃ ❃ ❃

أمثلة مضروبة للكافر والمؤمن

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥ ﴾.

ج: لأهل العلم قولان في المثل المضروب، ضُرب لمن؟

أحدهما: ضرب للكافر والمُؤمن فالمراد: بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء المراد به الكافر لا يعمل بطاعة الله ولا يأتي منه خيرٌ والمرزوق رزقًا حسنًا هو المؤمن موفق للطاعة موفقٌ للإحسان والبرِّ، مباركٌ أينما كان وأينما حلَّ ونزل.

فالكافر كالعبد المملوك الذي لا يقدر على فعل شيء نافع وأما المؤمن فهو كالذي آتاه الله مالًا حلالًا طيبًا ينفق منه سرًّا وجهرًا، فهو نفاعٌ أينما كان .

الثاني: أنه مثلٌ مضروبٌ للوثن الذي لا يملك ضرًّا ولا نفعًا ولا يعي ولا يعقل ولا يملك دفع ضرٍّ عن نفسه ولا لغيره ولا جلب خير لنفسه ولا لغيره.

الآخر لله ﷻ الذي يفعل ما يريد ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء ويدفع الضر عمن يشاء ويجلب الخير لمن يشاء هل يستوي الخلاق العليم الرزاق الكريم العزيز الحكيم مع ضم مخلوق جماد لا يعي ولا ينطق ولا يتكلم ولا يمنع نفسه عن يُريده بسوء أو مكروه.

﴿ ﴾ أي: قل يا رسول الله الحمد لله، بل أكثر هؤلاء لا يعلمون، أي: بل أكثرهم جهلة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وشَبَّه لكم شَبها أيها الناس للكافر من عبيده، والمؤمن

به منهم. فأما مثَل الكافر: فإنه لا يعمل بطاعة الله، ولا يأتي خيرا، ولا ينفق في شيء من سبيل الله ماله لغلبة خذلان الله عليه، كالعبد المملوك، الذي لا يقدر على شيء فينفقه. وأما المؤمن بالله فإنه يعمل بطاعة الله، وينفق في سبيله ماله كالحر الذي آتاه الله مالا فهو ينفق منه سرّا وجهرا، يقول: بعلم من الناس وغير علم (هَلْ يَسْتَوُونَ) يقول هل يستوي العبد الذي لا يملك شيئا ولا يقدر عليه، وهذا الحرّ الذي قد رزقه الله رزقًا حسنًا فهو ينفق كما وَصَف، فكذلك لا يستوي الكافر العامل بمعاصي الله المخالف أمره، والمؤمن العامل بطاعته.

وأورد الطبري بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ) هذا مثل ضربه الله للكافر، رزقه مالا فلم يقدم فيه خيرا ولم يعمل فيه بطاعة الله، قال الله تعالى ذكره (وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا) فهذا المؤمن أعطاه الله مالا فعمل فيه بطاعة الله وأخذ بالشكر ومعرفة حق الله، فأثابه الله على ما رزقه الرزق المقيم الدائم لأهله في الجنة، قال الله تعالى ذكره (هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا) والله ما يستويان (الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ).

وقوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ) يقول: الحمد الكامل لله خالصًا دون ما تَدْعُون أيها القوم من دونه من الأوثان فإياه فاحمدوا دونها.

وقوله (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ) يقول: ما الأمر كما تفعلون، ولا القول كما تقولون، ما للأوثان عندهم من يد ولا معروف فتُحْمد عليه، إنما الحمد لله، ولكن أكثر هؤلاء الكفرة الذين يعبدونها لا يعلمون أن ذلك كذلك، فهم بجهلهم بما يأتون ويَذَرون يجعلونها لله شركاء في العبادة والحمد.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (ضرب الله مثلا) نبه تعالى على ضلالة المشركين، وهو

منتظم بما قبله من ذكر نعم الله عليهم وعدم مثل ذلك من آلهتهم." ضرب الله مثلا" أي بين شبها، ثم ذكر ذلك فقال: (عبدا مملوكا) أي كما لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شي ورجل حر قد رزق رزقا حسنا فكذلك أنا وهذه الأصنام. فالذي هو مثال في هذه الآية هو عبد بهذه الصفة مملوك لا يقدر على شي من المال ولا من أمر نفسه، وإنما هو مسخر بإرادة سيده. ولا يلزم من الآية أن العبيد كلهم بهذه الصفة، فإن النكرة في الإثبات لا تقتضي الشمول عند أهل اللسان كما تقدم، وإنما تفيد واحدا، فإذا كانت بعد أمر أو نهي أو مضافة إلى مصدر كانت للعموم الشيوعي، كقوله: أعتق رجلا ولا تهن رجلا، والمصدر كإعتاق رقبة، فأي رجل أعتق فقد خرج عن عهدة الخطاب، ويصح منه الاستثناء. وقال قتادة: هذا المثل للمؤمن والكافر، فذهب قتادة إلى أن العبد المملوك هو الكافر، لأنه لا ينتفع في الآخرة بشيء من عبادته، وإلى أن معنى" ومن رزقناه منا رزقا حسنا" المؤمن. والأول عليه الجمهور من أهل (العلم «١» والتأويل. قال الأصم: المراد بالعبد المملوك الذي ربما يكون أشد من مولاه أسرا «٢» وأنضر وجها، وهو لسيده ذليل لا يقدر إلا على ما أذن له فيه، فقال الله تعالى ضربا للمثال. أي فإذا كان هذا شأنكم وشأن عبيدكم فكيف جعلتم أحجارا مواتا شركاء لله تعالى في خلقه وعبادته، وهي لا تعقل ولا تسمع.

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

ج: قال بعض أهل العلم هذا مثل أيضًا مضروب للوثن مع الله ﷻ فالوثن ضُرب له مثل برجل أبكم، أخرس لا يتكلم، وضعيف لا يستطيع أن يفعل أيَّ شيءٍ، وهو عالة على مولاة وثقل وبلاء على أهله كلما ذهب إلى مكان أتاهم بمشكلة وبليةٍ ومصيبة ولا يستطيع أن يصح عن السبب ولا يبينه، فله يستوي هذا مع شخصٍ عاقلٍ رشيد يأمر بالعدل والقسط وهو على طريق سويٍّ مستقيم، فبلا شك لا يستوي هذا مع ذاك بحالٍ من الأحوال، وكما أنه هذا لا يستوي مع ذاك.

فلا يستوي الصنم الجماد الذي لا يملك شيئًا ولا يدفع ضرًّا، بل كل ما يتأتى من ورائه شرٌّ.

لا يستوي هذا الوثن مع الله ﷻ الفعال لما يريد الذي يأمر بالعدل ويرشد إليه ويدل على الصراط المستقيم ويهدي إليه.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه والآلهة التي تُعبد من دونه، فقال تعالى ذكره ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ يعني بذلك الصنم أنه لا يسمع شيئا، ولا ينطق، لأنه إما خشب منحوت، وإما نحاس مصنوع لا يقدر على نفع لمن خدمه، ولا دفع ضرّ عنه وهو كَلٌّ على مولاه، يقول: وهو عيال على ابن عمه وحلفائه وأهل ولايته، فكذلك الصنم كَلّ على من يعبده، يحتاج أن يحمله، ويضعه ويخدمه، كالأبكم من الناس الذي لا يقدر على شيء، فهو كَلّ على أوليائه من بني أعمامه وغيرهم ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ يقول: حيثما يوجهه لا يأت بخير، لأنه لا يفهم ما يُقال له، ولا

يقدر أن يعبر عن نفسه ما يريد، فهو لا يفهم، ولا يُفْهَم عنه، فكذلك الصنم،لا يعقل ما يقال له، فيأتمر لأمر من أمره، ولا ينطق فيأمر وينهي، يقول الله تعالى (هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) يعني: هل يستوي هذا الأبكم الكلّ على مولاه الذي لا يأتي بخير حيث توجه ومن هو ناطق متكلم يأمر بالحقّ ويدعو إليه وهو الله الواحد القهار، الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته، يقول: لا يستوي هو تعالى ذكره، والصنم الذي صفته ما وصف. وقوله (وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) يقول: وهو مع أمره بالعدل، على طريق من الحقّ في دعائه إلى العدل، وأمره به مستقيم، لا يَعْوَجّ عن الحقّ ولا يزول عنه.

وقد اختلف أهل التأويل في المضروب له هذا المثل، فقال بعضهم في ذلك بنحو الذي قلنا فيه.

وقال آخرون: بل كلا المثلين للمؤمن والكافر.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في المثل الأوّل لأنه تعالى ذكره مثَّل مثَل الكافر بالعبد الذي وصف صفته، ومثَّل مثل المؤمن بالذي رزقه رزقًاحسنًا، فهو ينفق مما رزقه سرّا وجهرا، فلم يجز أن يكون ذلك لله مثلا إذ كان الله إنما مثل الكافر الذي لا يقدر على شيء بأنه لم يرزقه رزقا ينفق منه سرّا؛ ومثَّل المؤمن الذي وفَّقه الله لطاعته فهداه لرشده، فهو يعمل بما يرضاه الله، كالحرّ الذي بسط له في الرزق فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا، والله تعالى ذكره هو الرازق غير المرزوق، فغير جائز أن يمثل إفضاله وجوده بإنفاق المرزوق الرزق الحسن، وأما المثل الثاني، فإنه تمثيل منه تعالى ذكره مَنْ مثله الأبكم الذي لا يقدر على شيء والكفار لا شكّ أن منهم من له الأموال الكثيرة، ومن يضرّ

أحيانا الضرّ العظيم بفساده، فغير كائن ما لا يقدر على شيء، كما قال تعالى ذكره مثلا لمن يقدر على أشياء كثيرة. فإذا كان ذلك كذلك كان أولى المعاني به تمثيل ما لا يقدر على شيء كما قال تعالى ذكره بمثله ما لا يقدر على شيء، وذلك الوثن الذي لا يقدر على شيء، بالأبكم الكَلّ على مولاه الذي لا يقدر على شيء كما قال ووصف.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: والله ﷻ هو المتفرد بعلم الغيب، غيب ما في السموات والارض، ولا يعلم الغيب أحدٌ سواه، وما أمر الساعة، أي: وما القيامة وقيامها إذا أرادها الله ﷻ إلى كلمح البصر بل أقرب من لمح البصر، فإن الله ﷻ إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون. ﴿ ﴾ قادر على كل شيء عزَّ جاهه وتقدست أسماؤه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولله أيها الناس مِلك ما غاب عن أبصاركم في السموات والأرض دون آلهتكم التي تدعون من دونه، ودون كلّ ما سواه، لا يملك ذلك أحد سواه. (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ) يقول: وما أمر قيام القيامة والساعة التي تنشر فيها الخلق للوقوف في موقف القيامة، إلا كنظرة من البصر، لأن ذلك إنما هو أن يقال له كن فيكون.

وقوله (إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) يقول: إن الله على إقامة الساعة في أقرب من لمح البصر قادر، وعلى ما يشاء من الأشياء كلها، لا يمتنع عليه

شيء أراده.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السماوات والأرض، واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه [الله] (١٠) تعالى على ما يشاء -وفي قدرته التامة (١١) التي لا تخالف ولا تمانع، وأنه إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن، فيكون، كما قال: {وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر} [القمر: ٥٠] أي: فيكون ما يريد كطرف العين. وهكذا قال هاهنا: {وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير} كما قال: {ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة} [لقمان: ٢٨].

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ يعني: القيامة ﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ واللمح: النظر بسرعة، والمعنى: إن القيامة في سرعة قيامها وبعث الخلائق، كلمح العين، لأن الله تعالى يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ قال مقاتل: بل هو أسرع. وقال الزجاج: ليس المراد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر، ولكنه يصف سرعة القدرة على الإتيان بها متى شاء.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: هو تعالى المنفرد بغيب السماوات والأرض، فلا يعلم الخفايا والبواطن والأسرار إلا هو، ومن ذلك علم الساعة فلا يدري أحد متى تأتي إلا الله، فإذا جاءت وتجلت لم تكن {إِلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ} من ذلك فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال، {إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فلا يستغرب على قدرته الشاملة

إحياؤه للموتى.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: والله أخرجكم يا بني آدم من بطون أمهاتكم ضعفاء، ضعفاء في أبدانكم وأسماعكم وأبصاركم وعقولكم ثم قواكم شيئًا بعد شيء، وعلمكم شيئًا بعد شيء، فبعدما كنتم صغارًا لا تعلمون شيئًا علمكم وقوّى أسماعكم وأبصاركم وقلوبكم وأمهاتكم لعلكم تقدمون شكرًا لله ﷻ.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والله تعالى أعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من بعد ما أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعقلون شيئا ولا تعلمون، فرزقكم عقولا تفقهون بها، وتميزون بها الخير من الشرّ وبصّركم بها ما لم تكونوا تبصرون، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به الأصوات، فيفقه بعضكم عن بعض ما تتحاورون به بينكم والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص فتتعارفون بها وتميزون بها بعضا من بعض. (وَالأفْئِدَةَ) يقول: والقلوب التي تعرفون بها الأشياء فتحفظونها وتفكرون فتفقهون بها. (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) يقول: فعلنا ذلك بكم، فاشكروا الله على ما أنعم به عليكم من ذلك، دون الآلهة والأنداد، فجعلتم له شركاء في الشكر، ولم يكن له فيما أنعم به عليكم من نعمه شريك.

وقوله (وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا) كلام متناه، ثم

ابتدئ الخبر، فقيل: وجعل الله لكم السمع والأبصار والأفئدة. وإنما قلنا ذلك كذلك، لأن الله تعالى ذكره جعل العبادة والسمع والأبصار والأفئدة قبل أن يخرجهم من بطون أمهاتهم، وإنما أعطاهم العلم والعقل بعد ما أخرجهم من بطون أمهاتهم.

قال الحافظ ابن كثير:

ثم ذكر تعالى منته على عباده، في إخراجه (١٢) إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا، ثم بعد هذا يرزقهم (١) تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتي بها يحسون المرئيات، والأفئدة -وهي العقول- التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها. وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلا قليلا كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده.

وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشيء. وفيه ثلاثة أقاويل: أحدها- لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم. الثاني- لا تعلمون شيئا مما قضي عليكم من السعادة والشقاء. الثالث- لا تعلمون شيئا من منافعكم، وتم الكلام، ثم ابتدأ فقال: (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) أي التي تعلمون بها وتدركون، لأن الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم، أي

وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه، والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته." والأفئدة" جمع الفؤاد نحو غراب وأغربة. وقد قيل في ضمن قوله:" وجعل لكم السمع" إثبات النطق لأن من لم يسمع لم يتكلم، وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق.

(لعلكم تشكرون) فيه تأويلان: أحدهما: تشكرون نعمه. الثاني- يعني تبصرون آثار صنعته، لأن إبصارها يؤدي إلى الشكر.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: هو المنفرد بهذه النعم حيث {أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا} ولا تقدرون على شيء ثم إنه {جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَالأفْئِدَةَ} خص هذه الأعضاء الثلاثة، لشرفها وفضلها ولأنها مفتاح لكل علم، فلا وصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاهم إياها، وجعل ينميها فيهم شيئا فشيئا إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه وقابل النعمة بأقبح المقابلة.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: أو لم ير هؤلاء المعرضون عن طاعة الله ﷻ المنكرون لنعمه الجاحدون لوحدانيته، أولم يروا إلى الطير، وهي مذللةٌ مسخرةٌ في جو السماء لا يستطيع أحدٌ إمساكها إلا الله ﷻ، وما يستطيع أحدٌ

إمساكها إلا بإذن الله، إن في ذلك لدلالات على وحدانية الله ﷻ لقوم يصدقون بوحدانيته ويصدقون بكتابه ويصدقون برسله فهم المنتفعون بهذه الآيات.

يقول الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين: ألم تَرَوا أيُّها المشركون بالله إلى الطير مسخرات في جوّ السماء، يعني: في هواء السماء بينها وبين الأرض، كما قال إبراهيم بن عمران الأنصاريّ:

وَيْلُ امِّها مِنْ هَوَاءِ الجَوّ طَالِبَةً وَلا كَهذا الَّذِي في الأرْضِ مَطْلُوبُ

يعني: في هواء السماء. (مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا اللَّهُ) يقول: ما طيرانها في الجوّ إلا بالله، وبتسخيره إياها بذلك، ولو سلبها ما أعطاها من الطيران لم تقدر على النهوض ارتفاعا. وقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) يقول: إن في تسخير الله الطير، وتمكينه لها الطيران في جوّ السماء، لعلامات ودلالات على أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنه لا حظ للأصنام والأوثان في الألوهة (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) يعني: لقوم يقرّون بوجدان ما تعاينه أبصارهم، وتحسه حواسهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم نبه تعالى عباده إلى (٥) النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض، في جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى، الذي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسر الطير لذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: {أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير} [الملك: ١٩] . وقال هاهنا: {إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون} .

❀ ❀ ❀

مزيدٌ من نعم الله على العباد

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ومن نعم الله عليكم أن جعل لكم من بيوتكم مساكن تسكنونها فيحصل لكم السكون بسكناها، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا، وهي الخيام تحملونها خفيفة في أسفاركم، وتصنعون منها خيامًا في بلادكم، ومن أصواف هذه الأنعام التي منها الغنم، وكذا الوبر من الإبل، وكذا الشعر من الماعز أثاثًا لبيوتكم كالآنية والأوعية والفُرش والملابس، ومتاعًا تستمتعون به إلى حين الوفاة إلى حين أن تبلى هذه الأشياء.

والله أعلم، وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره (وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ) أيها الناس، (مِنْ بُيُوتِكُمْ) التي هي من الحجر والمدر، (سَكَنًا) تسكنون أيام مقامكم في دوركم وبلادكم (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأنْعَامِ بُيُوتًا) وهي البيوت من الأنطاع والفساطيط من الشعر والصوف والوبر. (تَسْتَخِفُّونَهَا) يقول: تستخفون حملها ونقلها، (يَوْمَ ظَعْنِكُمْ) من بلادكم وأمصاركم لأسفاركم، (وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ) في بلادكم وأمصاركم. (وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا) .

وقوله (وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ) فإنه يعني: أنه جعل ذلك لهم بلاغا، يتبلَّغون ويكتفون به إلى حين آجالهم للموت.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده، بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها سائر (١) وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضا {من جلود الأنعام بيوتا} أي: من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم، ليضربوها (٢) لهم في إقامتهم في السفر والحضر ولهذا قال: {تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها} أي: الغنم، {وأوبارها} أي: الإبل، {وأشعارها} أي: المعز -والضمير عائد على الأنعام- {أثاثا} أي: تتخذون منه أثاثا، وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثياب والصحيح أعم من هذا كله، فإنه يتخذ من (٣) الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالا وتجارة.

وقوله: {إلى حين} أي: إلى أجل مسمى ووقت (٤) معلوم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: (جعل لكم) معناه صير. وكل ما علاك فأظلك فهو سقف وسماء، وكل ما أقلك فهو أرض، وكل ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار، فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت. وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت، فذكر أولا بيوت المدن وهي التي للإقامة الطويلة. وقوله: (سكنا) أي تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة، وقد تتحرك فيه وتسكن في غيره، إلا أن القول خرج على الغالب. وعد هذا في جملة النعم فإنه لو شاء خلق العبد مضطربا أبدا كالأفلاك لكان ذلك كما خلق وأراد، لو خلقه ساكنا كالأرض لكان كما خلق وأراد، ولكنه أوجده خلقا يتصرف للوجهين، ويختلف حاله بين الحالتين، ورده كيف وأين. والسكن مصدر يوصف به الواحد والجمع. ثم ذكر تعالى بيوت القلة والرحلة:

(وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها) أي من الأنطاع والأدم." بيوتا" يعني الخيام والقباب يخف عليكم حملها في الأسفار. (يوم ظعنكم) الظعن: سير البادية في الانتجاع «١» والتحول من موضع إلى موضع، ومنه قول عنترة:

ظعن الذين فراقهم أتوقع ... وجرى ببينهم الغراب الأبقع

والظعن الهودج أيضا، قال:

ألا هل هاجك الأظعان إذ بانوا ... وإذ جادت بوشك البين غربان

وقرئ بإسكان العين وفتحها كالشعر والشعر. وقيل: يحتمل أن يعم (به «٢» بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف، لأن هذه من الجلود لكونها ثابتة فيها، نحا إلى ذلك ابن سلام. وهو احتمال حسن، ويكون قوله" ومن أصوافها" ابتداء كلام، كأنه قال جعل أثاثا، يريد الملابس والوطاء، وغير ذلك، قال الشاعر:

أهاجتك الظعائن يوم بانوا ... بذي الزي الجميل من الأثاث

ويحتمل أن يريد بقوله" من جلود الأنعام" بيوت الأدم فقط كما قدمناه أولا. ويكون قوله" ومن أصوافها" عطفا على قوله" من جلود الأنعام" أي جعل بيوتا أيضا.

ثم قال:

(. من أصوافها وأوبارها وأشعارها) أذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووبر الإبل وشعر المعز، كما أذن في الأعظم، وهو ذبحها وأكل لحومها، ولم يذكر القطن والكتان لأنه لم يكن في بلاد العرب المخاطبين به، وإنما عدد

عليهم ما أنعم به عليهم، وخوطبوا فيما عرفوا بما فهموا. وما قام مقام هذه وناب منابها فيدخل في الاستعمال والنعمة مدخلها، وهذا كقوله تعالى:" وينزل من السماء من جبال فيها من برد «١» " فخاطبهم بالبرد لأنهم كانوا يعرفون نزوله كثيرا عندهم، وسكت عن ذكر الثلج، لأنه لم يكن في بلادهم، وهو مثله في الصفة والمنفعة، وقد ذكرهما النبي صلى الله عليه وسلم معا في التطهير فقال:" اللهم اغسلني بماء وثلج وبرد".

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يذكر تعالى عباده نعمه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها فقال: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا} في الدور والقصور ونحوها تكنُّكم من الحر والبرد وتستركم أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف (١) والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم وفيها حفظ لأموالكم وحرمكم وغير ذلك من الفوائد المشاهدة، [ص:٤٤٦] {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأنْعَامِ} إما من الجلد نفسه أو مما نبت عليه، من صوف وشعر ووبر.

{بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا} أي: خفيفة الحمل تكون لكم في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر، {وَ} جعل لكم {مِنْ أَصْوَافِهَا} أي: الأنعام {وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا} وهذا شامل لكل ما يتخذ منها من الآنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك.

{وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} أي: تتمتعون بذلك في هذه الدنيا وتنتفعون بها، فهذا مما سخر الله العباد لصنعته وعمله.

قال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا﴾ أي: موضعًا تسكنون فيه، وهي المساكن المتَّخَذة من الحجر والمدر تستر العورات والحُرَم، وذلك أن الله تعالى خلق الخشب والمدر والآلة التي بها يمكن بناء البيت وتسقيفه، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتًا﴾ وهي القباب والخيم المتخذة من الأدم ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ أي: يخفُّ عليكم حملها ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو «ظَعَنِكُم» بفتح العين. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بتسكين العين، وهما لغتان، كالشَّعَر والشَّعْر، والنَّهَر والنَّهْر، والمعنى: إذا سافرتم، ﴿وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ أي: لا تثقل عليكم في الحالين. ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا﴾ يعني: الضأن ﴿وَأَوۡبَارِهَا﴾ يعني: الإبل ﴿وَأَشۡعَارِهَآ﴾ يعني: المعز ﴿أَثَٰثًا﴾ قال الفراء: الأثاث: المتاع، لا واحد له، كما أن المتاع لا واحد له. والعرب تقول: جمع المتاع أمتعه، ولو جمعت الأثاث، لقلت: ثلاثة أإثَّةٍ، وأُثُث: مثل أعثة وغُثث لا غير. وقال ابن قتيبة: الأثاث: متاع البيت من الفرش والأكسية. قال أبو زيد: واحد الأثاث: أثاثة. وقال الزجاج: يقال: قد أثَّ يأث أثًّا: إذا صار ذا أثاث. وروي عن الخليل أنه قال: أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعض، ومنه: شَعَر أثيث.

فأما قوله: ﴿وَمَتَٰعًا﴾ فقيل: إنما جمع بينة وبين الأثاث، لاختلاف اللفظين.

وفي قوله: ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ قولان:

أحدهما: أنه الموت، والمعنى: ينتفعون به إلى حين الموت، قاله ابن عباس، ومجاهد.

والثاني: أنه إلى حين البلى، فالمعنى: إلى أن يَبلى ذلك الشيء، قاله مقاتل.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: والله جعل لكم مما خلق من الأشجار والجبال وغيرها ظلالًا تستظلون بها، وجعل لكم من الجبال مساكن تُكنُّكم كالغار الذي في الجبل والمغارة وغير ذلك، وجعل لكم سرابيل، أي: ملابس من القطن والصوف والكتان وغير ذلك تقيكم الحرَّ، وكذا تقيكم البرد، وسرابيل من الحديد، أي ودروع من الحديد وقمصان حديدية تقيكم بأسكم، أي: تقي بعضكم بأس بعض أي: تصد السهام عن أجسامكم فلا تصل السهام إلى قلوبكم، وكما أعطاكم ربكم هذه الأشياء فإنه ﷻ يعطيكم ما تحتاجون إليه لعلكم تسلمون، تدخلوا الإسلام.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومن نعمة الله عليكم أيها الناس أن جعل لكم مما خلق من الأشجار وغيرها ظلالا تستظلون بها من شدة الحرّ، وهي جمع ظلّ.

وقوله (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا) يقول: وجعل لكم من الجبال مواضع تسكنون فيها، وهي جمع كنّ.

وأورد بسندٍ صحيح بطريقيه عن قتادة، قوله: (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا) يقول: غيرانا من الجبال يسكن فيها.

(وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ) يعني ثياب القطن والكتان والصوف

وقمصها.

وقوله (وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ) يقول: ودروعا تقيكم بأسكم، والبأس: هو الحرب، والمعنى: تقيكم في بأسكم السلاح أن يصل إليكم.

وقوله (كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) يقول تعالى ذكره: كما أعطاكم ربكم هذه الأشياء التي وصفها في هذه الآيات نعمة منه بذلك عليكم، فكذا يُتِمّ نعمته عليكم لعلكم تسلمون. يقول: لتخضعوا لله بالطاعة، وتذِلّ منكم بتوحيده النفوس، وتخلصوا له العبادة. وقد روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ (لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ) بفتح التاء.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: {والله جعل لكم مما خلق ظلالا} قال قتادة: يعني: الشجر.

{وجعل لكم من الجبال أكنانا} أي: حصونا ومعاقل، كما {جعل لكم سرابيل تقيكم الحر} وهي الثياب من القطن والكتان والصوف، {وسرابيل تقيكم بأسكم} كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك، {كذلك يتم نعمته عليكم} أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه، ليكون -عونا لكم على طاعته وعبادته، {لعلكم تسلمون}

هكذا فسره الجمهور، وقرؤوه بكسر اللام من " تسلمون " أي: من الإسلام.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: فإن أعرض هؤلاء يا رسول الله عن

الإسلام والإيمان فما عليك من أمر هدايتهم من شيء إنما أمر هدايتهم موكولٌ إلى الله سبحانه وتعالى، وما عليك إلا إبلاغهم بلاغًا واضحًا مُظهرًا ما يريده الله منهم، وما الذي ينهاهم عنه ربُّهم ﷻ، أمّا هُم فإنهم يعرفون نعمة الله التي أنعم بها عليهم من النعم المذكورة وغيرها، وينسون أنها فضلٌ من الله عليهم فيجحدونها، وكذا يجحدون نعمة الله عليهم بإرسال النبي محمد ﷺ إليهم فينكرون نبوته مع علمهم به صلوات الله وسلامه عليه وعلمهم بصدقه، وأكثرهم الجاحدون لنبوة رسول الله ﷺ.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فإن أدبر هؤلاء المشركون يا محمد عما أرسلتك به إليهم من الحقّ، فلم يستجيبوا لك وأعرضوا عنه، فما عليك من لوم ولا عذل لأنك قد أديت ما عليك في ذلك، إنه ليس عليك إلا بلاغهم ما أرسلت به. ويعني بقوله (الْمُبِينُ) الذي يبين لمن سمعه حتى يفهمه.

وأما قوله (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا) فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنى بالنعمة التي أخبر الله تعالى ذكره عن هؤلاء المشركين أنهم ينكرونها مع معرفتهم بها، فقال بعضهم: هو النبيّ صلى الله عليه وسلم عرفوا نبوته ثم جحدوها وكذبوه.

وأورد بسندٍ صحيح عن السديّ (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا) قال: محمد ﷺ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره في هذه السورة من النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم بذلك عليهم، ولكنهم

يُنْكرون ذلك، فيزعمون أنهم وثورة عن آبائهم.

وقال آخرون: معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم: من رزقكم؟ أقرّوا بأن الله هو الذي رزقهم، ثم يُنْكرون ذلك بقولهم: رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب وأشبهها بتأويل الآية، قول من قال: عني بالنعمة التي ذكرها الله في قوله (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ) النعمة عليهم بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم إليهم داعيًا إلى ما بعثه بدعائهم إليه، وذلك أن هذه الآية بين آيتين كلتاهما خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعما بعث به، فأولى ما بينهما أن يكون في معنى ما قبله وما بعده، إذ لم يكن معنى يدلّ على انصرافه عما قبله وعما بعده فالذي قبل هذه الآية قوله (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا) وما بعده (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) وهو رسولها. فإذا كان ذلك كذلك، فمعنى الآية: يعرف هؤلاء المشركون بالله نعمة الله عليهم يا محمد بك، ثم ينكرونك ويجحدون نبوّتك (وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) يقول: وأكثر قومك الجاحدون نبوّتك، لا المقرّون بها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله {فإن تولوا} أي: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم، {فإنما عليك البلاغ المبين} وقد أديته إليهم.

{يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها} أي: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق (٤) إلى غيره، {وأكثرهم الكافرون}.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ
يُسۡتَعۡتَبُونَ ٨٤ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ
يُنظَرُونَ ٨٥ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ
شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ
لَكَٰذِبُونَ ٨٦ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ
يَفۡتَرُونَ ٨٧ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ
ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ٨٨ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا
عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩ ﴾

[النحل: ٨٤-٨٩]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿يُسْتَعْتَبُونَ - يُنظَرُونَ - شُرَكَآءَهُمْ - نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ - فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ - ٱلسَّلَمَ - وَضَلَّ عَنْهُم - يَفْتَرُونَ - تِبْيَٰنًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾	يُطلب منهم الرجوع إلى الدنيا للاستقامة.
﴿يُنظَرُونَ﴾	يؤخرون - يمهلون - يؤجلون.
﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾	يلهتهم التي جعلوها شريكة لله ﷻ.
﴿نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾	نعبد معك - نعبد غيرك.
﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾	فردوا عليهم قولهم.
﴿ٱلسَّلَمَ﴾	الاستسلام والخضوع والانقياد.
﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾	غاب عنهم، ففقدوا نصرهم.
﴿يَفْتَرُونَ﴾	يكذبون- يدَّعونها آلهة كذبًا وزورًا.
﴿تِبْيَٰنًا﴾	بيانًا.

❁ ❁ ❁

من مشاهد القيامة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

ج: **المعنى – والله أعلم –:** واذكر يوم القيامة، يوم نبعث من كل أمةٍ شهيدًا يشهد عليها بما صنعته معه وبما أجابته به، وهؤلاء الشهداء هم خيرة خلق الله من البشر، وهم رسل الله الكرام عليهم الصلاة والسلام، وقد قال تعالى فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: لا يؤذن لهم في الاعتذار، كما قال تعالى: ﴿﴾.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: ولا يُطلب منهم الرجوع إلى الدنيا لإصلاح ما أفسدوه وللتصديق بما كذبوا به، وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: يعرفون نعمة الله ثم يُنكرونها اليوم ويستنكرون (يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) وهو الشاهد عليها بما أجابت داعي الله، وهو رسولهم الذي أرسل إليهم (ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) يقول: ثم لا يؤذن للذين كفروا في الاعتذار، فيعتذروا مما كانوا بالله وبرسوله يكفرون (وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) فيتركوا الرجوع إلى الدنيا فينيبوا ويتوبوا وذلك كما قال تعالى (هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) .

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) وشاهدها نبيها، على أنه قد بلغ رسالات ربه، قال الله تعالى (وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاءِ) .

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيدا، وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى، {ثم لا يؤذن للذين كفروا} أي: في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كما قال: {هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون} [المرسلات: ٣٥، ٣٦] . ولهذا قال: {ولا هم يستعتبون}.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ يعني: يوم القيامة، وشاهد كلِّ أُمةٍ نبيُّها يشهد عليها بتصديقها وتكذيبها، ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في الاعتذار ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ أي: لا يُطلب منهم أن يرجعوا إلى ما أمر الله به، لأن الآخرة ليست بدار تكليف.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: {ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا}، لم يبين تعالى في هذه الآية الكريمة متعلق الإذن في قوله: {لاَ يُؤْذَنُ} [١٦/ ٨٤]، ولكنه بين في "المرسلات" أن متعلق الإذن الاعتذار؛ أي: لا يؤذن لهم في الاعتذار، لأنهم ليس لهم عذر يصح قبوله، وذلك في قوله: {هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [٧٧/ ٣٥-٣٦].

فإن قيل: ما وجه الجمع بين نفي اعتذارهم المذكور هنا، وبين ما جاء في القرآن من اعتذارهم؛ كقوله تعالى عنهم: {وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [٦/ ٢٣]، وقوله: {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ} [١٦/ ٢٨]، وقوله: {بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا} [٤٠/ ٧٤]، ونحو ذلك من الآيات.

فالجواب: من أوجه:

منها: أنهم يعتذرون حتى إذا قيل لهم: {قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ} [٢٣/ ١٠٨]، انقطع نطقهم ولم يبق إلا الزفير والشهيق؛ كما قال تعالى: {وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ} [٢٧/ ٨٥].

ومنها: أن نفي اعتذارهم يراد به اعتذار فيه فائدة.

قوله تعالى: {وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}، اعلم أولاً، أن استعتب تستعمل في اللغة بمعنى طلب العتبى؛ أي: الرجوع إلى ما يرضي العاتب ويسره. وتستعمل أيضاً في اللغة بمعنى أعتب: إذا أعطى العتبى؛ أي: رجع إلى ما يحب العاتب ويرضى، فإذا علمت ذلك، فاعلم أن في قوله: {وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} [١٦/ ٨٤]، وجهين من التفسير متقاربي المعنى.

قال بعض أهل العلم: {وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}، أي: لا تطلب منهم العتبى، بمعنى لا يكلفون أن يرضوا ربهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، فلا يردون إلى الدنيا ليتوبوا.

وقال بعض العلماء: {وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}، أي: يعتبون، بمعنى يزال عنهم العتب، ويعطون العتبى وهي الرضا؛ لأن الله لا يرضى عن القوم الكافرين. وهذا المعنى كقوله تعالى في قراءة الجمهور: {وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ} [٤١/ ٢٤]، أي: وإن يطلبوا العتبى - وهي الرضا عنهم لشدة جزعهم - فما هم من المعتبين؛ بصيغة اسم المفعول، أي: المعطين العتبى وهي الرضا عنهم؛ لأن العرب تقول: أعتبه إذا رجع إلى ما يرضيه ويسره.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

{وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا} يشهد عليهم بأعمالهم وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى وذلك الشهيد الذي يبعثه الله أزكى الشهداء وأعدلهم وهم

الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم.

فـ {لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا} في الاعتذار لأن اعتذارهم بعد ما علم يقينا بطلان ما هم عليه، اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئا، وإن طلبوا أيضا الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا لم يجابوا ولم يعتبوا، بل يبادرهم العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونه لأنهم لا حساب عليهم لأنهم لا حسنات لهم وإنما تعد أعمالهم وتحصى ويوقفون عليها ويقرون بها ويفتضحون.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وإذا رأى أهل الشرك، الذين ظلموا أنفسهم وأنزلوها أسوأ المنازل بشركهم بالله ﷻ، وكان من حق أنفسهم عليهم أن يجلبوا لها الأمان، إذا رأى هؤلاء العذاب يوم القيامة، ودخلوا جهنم لا يُفتَّر عنهم، لا يتوقف عنهم ولا يخفف عنهم، ولا هم يمهلون، بل يَصْلَونه ويذوقونه ولا يؤخرون عنه ولا يمهلون.

﴿﴾ أي: آلهتهم الت عبدوها من دون الله وجعلوها شريكة لله ﷻ، قال أهل الشرك ﴿﴾ آلهتنا ﴿﴾ التي كنا نعبدها معك، فكذبتهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله وردوا عليهم بقوله: ﴿﴾، ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا أقررناكم على ذلك، فحينئذٍ أظهر أهل الكفر الاستسلام والانقياد لله ﷻ كما

قال تعالى: ﴿﴾ وكما قال: ﴿﴾.

أما آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ويكذبون ويزعمون أنها شريكة لله ففقدوها وفقدوا نصرتها لهم وهم أحوج ما يكون إلى ناصرٍ ينصرهم فغابت عنهم تلك الآلهة الباطلة التي عبدوها مع الله ولم تدفع عنهم عذابًا ولم تجلب لهم خيرًا.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وإذا عاين الذين كذّبوك يا محمد، وجَحَدُوا نُبوّتك والأمم الذين كانوا على منهاج مشركي قومك عذاب الله، فلا ينجيهم من عذاب الله شيء، لأنهم لا يؤذن لهم، فيعتذرون، فيخفَّف عنهم العذاب بالعذر الذي يدعونه، (وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ) يقول: ولا يُرْجَئُون بالعقاب، لأن وقت التوبة والإنابة قد فات، فليس ذلك وقتا لهما، وإنما هو وقت للجزاء على الأعمال، فلا ينظر بالعتاب ليعتب بالتوبة.

وقال في تأويل قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦)}

يقول تعالى ذكره: وإذا رأى المشركون بالله يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله من الآلهة والأوثان وغير ذلك، قالوا: ربنا هؤلاء شركاؤنا في الكفر بك، والشركاء الذين كنا ندعوهم آلهة من دونك، قال الله تعالى ذكره (فأَلْقَوْا) يعني: شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله، القول، يقول: قالوا لهم: إنكم لكاذبون أيها المشركين، ما كنا ندعوكم إلى عبادتنا.

وقال في تأويل قوله تعالى: {وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧)}

يقول تعالى ذكره: وألقى المشركون إلى الله يومئذ السلم يقول: استسلموا يومئذ وذَلُّوا لحكمه فيهم، ولم تغن عنهم آلهتهم التي كانوا يدعون في الدنيا من دون الله، وتبرأت منهم، ولا قومهم، ولا عشائرهُم الذين كانوا في الدنيا يدافعون عنهم، والعرب تقول: ألقيت إليه كذا تعني بذلك قلت له. وقوله (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) يقول: وأخطأهم من آلهتهم ما كانوا يأملون من الشفاعة عند الله بالنجاة.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله: (وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ) يقول: ذلوا واستسلموا يومئذ (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

{وإذا رأى الذين ظلموا} أي: أشركوا {العذاب فلا يخفف عنهم} أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة، {ولا هم ينظرون} أي: [و] (١) لا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعا من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام[١]، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عنق منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا (١) يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد، الذي جعل مع الله إلها آخر[٢]، وبكذا وكذا (٢) وتذكر (٣) أصنافا من الناس، كما جاء في الحديث. ثم تنطوي (٤) عليهم وتتلقطهم من الموقف كما يتلقط الطائر الحب قال الله تعالى: {إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا

(١) الحديث بذلك في صحيح مسلم وقد أعلَّه بعض أهل العلم.
(٢) سنده معلول والراجح ضعفه، والله أعلم.

وزفيرا وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا} [الفرقان: ١٢ -١٤]، وقال تعالى: {ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا} [الكهف: ٥٣]. وقال تعالى: {لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون} [الأنبياء: ٣٩، ٤٠].

ثم أخبر تعالى عن تبرئ آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها، فقال: {وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم} أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، {قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون} أي: قالت لهم الآلهة: كذبتم، ما نحن أمرناكم (٥) بعبادتنا. كما قال تعالى: {ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين} [الأحقاف: ٥، ٦] وقال تعالى: {واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا} [مريم: ٨١، ٨٢]. وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: {ثم يوم القيامة (٦) يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين} [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: {ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم (٧) فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا} [الكهف: ٥٢] والآيات في هذا كثيرة.

وقوله: {وألقوا إلى الله يومئذ السلم} -قال قتادة، وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أي: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، كما قال: {أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا} [مريم: ٣٨] أي: ما أسمعهم وما

أبصرهم يومئذ! وقال تعالى: {ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون} [السجدة: ١٢]، وقال: {وعنت الوجوه للحي القيوم} [طه: ١١١] أي: خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت.

{وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون} أي: ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجيز.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار إذا رأوا العذاب لا يخفف عنهم، ولا ينظرون، أي: لا يمهلون، وأوضح هذا المعنى في مواضع أُخر، وبين أنهم يرون النار، وأنها تراهم، وأنها تكاد تتقطع من شدة الغيظ عليهم؛ كقوله تعالى: {لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ} [٢١/ ٣٩-٤٠]، وقوله: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} [١٨/ ٥٣]، وقوله: {إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً} [٢٥/ ١٢]، وقوله: {إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ} [٦٧/ ٧، ٨]، وقوله: {وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [٢/ ١٦٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: {وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ}، ذكر جل وعلا

في هذه الآية الكريمة: أن المشركين يوم القيامة إذا رأوا معبوداتهم التي كانوا يشركونها بالله في عبادته قالوا لربهم: {رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ} [١٦/ ٨٦]، وأن معبوداتهم تكذبهم في ذلك، فيقولون لهم: كذبتم! {مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} [١٠/ ٢٨].

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [٤٦/ ٥-٦]، وقوله: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً} [١٩/ ٨١-٨٢]، وقوله: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [٢٩/ ٢٥]، وقوله: {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ} [٢٨/ ٦٤]، وقوله: {فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} [١٠/ ٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

فإن قيل: كيف كذبتهم آلهتهم ونفوا أنهم عبدوهم، مع أن الواقع خلاف ما قالوا، وأنهم كانوا يعبدونهم في دار الدنيا من دون الله!

فالجواب: أن تكذيبهم لهم منصب على زعمهم أنهم آلهة، وأن عبادتهم حق، وأنها تقربهم إلى الله زلفى، ولا شك أن كل ذلك من أعظم الكذب وأشنع الافتراء، ولذلك هم صادقون فيما ألقوا إليهم من القول، ونطقوا فيه بأنهم كاذبون، ومراد الكفار بقولهم لربهم: {هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا}، قيل: ليحملوا شركاءهم تبعة ذنبهم، وقيل: ليكونوا شركاءهم في العذاب، كما قال تعالى: {رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ} [٧/ ٣٨]، وقد نص تعالى

على أنهم وما يعبدونه من دون الله في النار جميعًا في قوله: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ...} الآية [٢١/ ٩٨]، وأخرج من ذلك الملائكة وعيسى وعزيراً بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ...} الآية [٢١/ ١٠١]؛ لأنهم ما عبدوهم برضاهم، بل لو أطاعوهم لأخلصوا العبادة لله وحده جلَّ وعلا.

قوله تعالى: {وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، إلقاؤهم إلى الله السلم: هو انقيادهم له، وخضوعهم؛ حيث لا ينفعهم ذلك كما تقدم في قوله: {فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ} [١٦/ ٢٨]، والآيات الدالة على ذلك كثيرة؛ كقوله: {بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} [٣٧/ ٢٦]، وقوله: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [٢٠/ ١١١]، ونحو ذلك من الآيات، وقد قدمنا طرفًا من ذلك في الكلام على قوله: {فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ} [١٦/ ٢٨].

وقوله: {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [١٦/ ٨٧]، أي: غاب عنهم واضمحل ما كانوا يفترونه: من أن شركاءهم تشفع لهم وتقربهم إلى الله زلفى؛ كما قال تعالى: {وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ...} الآية [١٠/ ١٨]، وكقوله: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}. وضلال ذلك عنهم مذكور في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: {وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [١٠/ ٣٠]، وقوله: {فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [٢٨/ ٧٥]، وقد قدمنا معاني الضلال في القرآن وفي اللغة بشواهدها.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

{وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ} يوم القيامة وعلموا بطلانها ولم

يمكنهم الإنكار.

{قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ} ليس عندها نفع ولا شفع، فنوَّهوا بأنفسهم ببطلانها، وكفروا بها، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها، {فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ} أي: ردت عليهم شركاؤهم قولهم، فقالت لهم: {إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ} حيث جعلتمونا شركاء لله، وعبدتمونا معه فلم نأمركم بذلك، ولا زعمنا أن فينا استحقاقا للألوهية فاللوم عليكم.

فحينئذ استسلموا لله، وخضعوا لحكمه وعلموا إنهم مستحقون للعذاب.

{وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} فدخلوا النار وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم ومن حمد ربهم وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: أشركوا ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ يعني: النار ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ﴿وَلَاهُمْ يُنظَرُونَ﴾ لا يؤخرون، ولا يمهلون. ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ يعني: الأصنام التي جعلوها شركاء لله في العبادة، وذلك أن الله يبعث كل معبود من دونه، فيقول المشركون: ﴿ربَّنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو﴾ أي: نعبد من دونك.

فان قيل: فهذا معلوم عند الله تعالى، فما فائدة قولهم: «هؤلاء شركاؤنا»؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أنهم لما كتموا الشرك في قولهم: واللهِ ما كنا مشركين، عاقبهم الله تعالى باصمات ألسنتهم، وإِنطاق جوارحهم، فقالوا عند معاينه آلهتهم: ﴿ربنا هؤلاء شركاؤنا﴾ أي: قد أقررنا بعد الجحد، وصدَّقنا بعد الكذب، التماسًا للرحمة، وفرارًا من الغضب، وكأنَّ هذا القول منهم على وجه الاعتراف

بالذنْب، لا على وجه إعلام من لا يعلم.

والثاني: أنهم لما عاينوا عِظَم غضب الله تعالى قالوا: هؤلاء شركاؤنا، تقديرَ أن يعود عليهم من هذا القول روح، وأن تلزم الأصنام إجرامهم، أو بعض ذنوبهم إذْ كانوا يدَّعون لها العقل والتمييز، فأجابتهم الأصنام بما حسم طمعهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: أجابوهم وقالوا لهم ﴿ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ قال الفراء: ردت عليهم آلهتهم قولهم. وقال أبو عبيدة: «فألقوا» أي: قالوا لهم. يقال: ألقيت إلى فلان كذا. أي: قلت له. قال العلماء: كذَّبوهم في عبادتهم إياهم، وذلك أن الأصنام كانت جمادًا لا تعرف عابديها، فظهرت فضيحتهم يومئذٍ إذْ عبدوا مَن لم يعلم بعبادتهم، وذلك كقوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ [مريم: ٨٣]. قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ المعنى: أنهم استسلموا له. وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: أنهم المشركون، قاله الأكثرون. ثم في معنى استسلامهم. قولان: أحدهما: أنهم استسلموا [له] بالإقرار بتوحيده وربوبيته. والثاني: أنهم استسلموا لعذابه.

والثاني: أنهم المشركون والأصنام كلُّهم. قال الكلبي: والمعنى: أنهم استسلموا لله منقادين لحُكمه.

قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: بَطَل قولهم أنها تشفع لهم.

والثاني: ذهب عنهم ما زيَّن لهم الشيطان أن لله شريكًا وولدًا.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم-: الذين جحدوا وحدانية اله ﷻ وكفروا به وكذبوا رسله وأنكروا كتبه، وسعوا في صرف الناس عن طريق الحق وصدِّهم عنه زدناهم عذابًا لصرف الناس عن الحق، وصدهم الناس عن الطريق الموصل إلى الله فوق العذاب الذي استحقوه لكفرهم، وذلك بإفسادهم في الأرض، فعليه إفسادهم له صورتان:

إحداهما: أنهم كفروا واستباحوا ما حرَّمه الله.

والثاني: أنهم صرفوا الناس عن الحق وصدروهم عنه، الآية كقوله تعالى: ﴿﴾.

وكقوله ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْـمِ مثلُ آثَـامِ مَنِ اتَّبَعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ من آثامهم شيئًا» والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: الذين جحدوا يا محمد نبوّتك وكذّبوك فيما جئتهم به من عند ربك، وصَدُّوا عن الإيمان بالله وبرسوله، ومن أراده زدناهم عذابًا يوم القيامة في جهنم فوق العذاب الذي هم فيه قبل أن يزادوه. وقيل: تلك الزيادة التي وعدهم الله أن يزيدهموها عقارب وحيات.

وأورد بسندٍ صحيح عن عبد الله[1]: (زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ) قال: عقارب لها أنياب كالنخل.

وقوله (بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) يقول: زدناهم ذلك العذاب على ما بهم من

(١) هو ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العذاب بما كانوا يفسدون، بما كانوا في الدنيا يعصُون الله، ويأمرون عباده بمعصيته، فذلك كان إفسادهم، اللهم إنا نسألك العافية يا مالك الدنيا والآخرة الباقية.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قال تعالى: {الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون} أي: عذابا على كفرهم، وعذابا على صدهم الناس عن اتباع الحق، كما قال تعالى: {وهم ينهون عنه وينأون عنه} [الأنعام: ٢٦] أي: ينهون الناس، عن اتباعه، ويبتعدون هم منه أيضا {وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون} [الأنعام: ٢٦]

وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال [الله] (١) تعالى: {قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون} [الأعراف: ٣٨].

❁ ❁ ❁

تفاوت أهل النار في العذاب، عياذًا بالله

س: أهل الكفر يتفاوتون في العذاب، دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿﴾.

وقوله تعالى: ﴿﴾ [].

وقوله تعالى: ﴿﴾ [].

وقوله تعالى: ﴿﴾ [].

وقوله تعالى: ﴿﴾ [].

مع قوله ﷺ في شأن عمه أبي طالب: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ يَغلي مِنْهمَا دِمَاغه ولَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِن النَّارِ». إلى غير ذلك من الأدلة.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: واذكر يا رسول الله يوم نبعث في كل أمة شهيدًا عليهم من أنفسهم، وهو الرسول الذي أرسله الله إليهم، وجئنا بك يا رسول الله شهيدًا على قومك هؤلاء، كما قال تعالى: ﴿﴾.

﴿﴾ أي: بيانًا لكل شيء مما أحلَّه الله ﷻ وحرَّمه، ﴿﴾ هداية ودلالة ﴿﴾ بجنات النعيم ورضوان رب العالمين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ)

يقول: نسأل نبيهم الذي بعثناه إليهم للدعاء إلى طاعتنا، وقال (مِنْ أَنْفُسِهِمْ) لأنه تعالى ذكره كان يبعث إلى أمم أنبياءها منها: ماذا أجابوكم، وما ردّوا عليكم (وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاءِ) يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وجئنا بك يا محمد شاهدا على قومك وأمتك الذين أرسلتك إليهم بما أجابوك، وماذا عملوا فيما أرسلتك به إليهم. وقوله (وَنزلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) يقول: نزل عليك يا محمد هذا القرآن بيانا لكلّ ما بالناس إليه الحاجة من معرفة الحلال والحرام والثواب والعقاب (وَهُدًى) من الضلال (وَرَحْمَةً) لمن صدّق به، وعمل بما فيه من حدود الله، وأمره ونهيه، فأحل حلاله، وحرّم حرامه (وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) يقول: وبشارة لمن أطاع الله وخضع له بالتوحيد، وأذعن له بالطاعة، يبشره بجزيل ثوابه في الآخرة، وعظيم كرامته.

وأورد بسندٍ يصحح بطرقه عن مجاهد: (تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) مما أحلّ لهم وحرّم عليهم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم: {ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء} (٥) يعني أمته.

أَيِ: اذْكُرْ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَهَوْلَهُ وَمَا مَنَحَكَ اللهُ فِيهِ مِنَ الشَّرَفِ الْعَظِيمِ وَالْمَقَامِ الرَّفِيعِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِالْآيَةِ الَّتِي انْتَهَى إِلَيْهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ حِينَ قَرَأَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدْرَ سُورَةِ "النِّسَاءِ" فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا}

[النِّسَاءِ: ٤١] . فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**حَسْبُكَ**". قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فَالْتَفَتُّ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ (٦) .

وقوله: {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء} قال ابن مسعود: [و] (٧) قد بين لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء.

وقال مجاهد: كل حلال وحرام.

وقول ابن مسعود: أعم وأشمل؛ فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون (٨) في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم.

{وهدى} أي: للقلوب، {ورحمة وبشرى للمسلمين}

وقال الأوزاعي: {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء} أي: بالسنة.

ووجه اقتران قوله: {ونزلنا عليك الكتاب} مع قوله: {وجئنا بك شهيدا على هؤلاء} أن المراد -والله أعلم-: إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة، {فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين} [الأعراف: ٦] ، {فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون} [الحجر: ٩٢، ٩٣] ، {يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب} [المائدة: ١٠٩] ، وقال تعالى: {إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد} [القصص: ٨٥] أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه، ومعيدك يوم القيامة، وسائلك عن أداء ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو متجه حسن.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ

شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه يوم القيامة يبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم يشهد عليهم بما أجابوا به رسولهم، وأنه يأتي بنبينا صلى الله عليه وسلم شاهداً علينا، وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ...} الآية [٤/ ٤١، ٤٢]، وكقوله: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ} [٥/ ١٠٩]، وكقوله: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [٧/ ٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقرأ علي"، قال: فقلت: يا رسول الله! أأقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: "نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري"، فقرأت "سورة النساء"، حتى أتيت إلى هذه الآية: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً} [٤/ ٤١]، فقال: "حسبك الآن"، فإذا عيناه تذرفان اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه نزل على رسوله هذا الكتاب العظيم تبياناً لكل شيء، وبين ذلك في غير هذا الموضع؛ كقوله: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [٦/ ٣٨]، على القول بأن المراد بالكتاب فيها القرآن. أما على القول بأنه اللوح المحفوظ - فلا بيان بالآية. وعلى كل حال فلا شك أن القرآن فيه بيان كل شيء. والسنة كلها تدخل في آية واحدة منه؛ وهي قوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ

الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [٥٩/ ٧].

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ
ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠
وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ
جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١ وَلَا تَكُونُواْ
كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا
بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٩٢ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ
وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ
٩٣ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ
بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ
ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥ مَا عِندَكُمۡ
يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ٩٦ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ
حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧ ﴾

[النحل: ٩٠-٩٧]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿بِٱلْعَدْلِ - وَٱلْإِحْسَٰنِ - وَإِيتَآيِٕ - ذِى ٱلْقُرْبَىٰ - ٱلْفَحْشَآءِ - وَٱلْمُنكَرِ - وَٱلْبَغْىِ - يَعِظُكُمْ - بِعَهْدِ ٱللَّهِ - وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ - تَوْكِيدِهَا - كَفِيلًا - نَقَضَتْ غَزْلَهَا - مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا - دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ - أُمَّةٌ وَٰحِدَةً - فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ - بَعْدَ ثُبُوتِهَا - يَنفَدُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿بِٱلْعَدْلِ﴾	الإنصاف، إعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه.
﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾	قيل: المراد العفو، وقيل: الفضل، وقيل: المراد إحسان عبادة الله بحسن مراقبته.
﴿وَإِيتَآيِٕ﴾	إعطاء.
﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾	الأرحام - القرابات.
﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾	ما فحش من الأقوال والأعمال، ويدخل فيه الزنا.
﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾	قيل: إنها المحرمات الظاهرة، وقيل: إنها الشرك وعموم المعاصي.
﴿وَٱلْبَغْىِ﴾	التعدي على الآخرين وظلمهم.
﴿يَعِظُكُمْ﴾	يُذكِّركم بطيب القول وبلينٍ من الخطاب.
﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾	العهود التي تعاهدتم عليها مع الناس وأقسمتم لهم بالله على الوفاء بها وقيل: عموم العهود.
﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾	لا تخالفوا العهود التي عاهدتم الناس عليها.

﴿تَوۡكِيدِهَا﴾	تأكيدها.
﴿كَفِيلًا﴾	المراد هنا: الشاهد والرقيب والمُحاسب.
﴿نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا﴾	بعد أن صنعت الخيوط والحبال ولفت بعضها على بعض متقنةً لذلك حلَّتها وأرجعتها كما كانت مرةً أخرى.
﴿مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾	من بعد ما بذلت جهدًا في الغزل.
﴿أَنكَٰثٗا﴾	أنقاضًا (أي: نقضتها نقضًا نقضًا).
﴿دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾	غشًّا – خديعةً – مكرًا.
﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾	جماعة على رأي واحد – مؤمنين كلكم، أو كفار كلكم.
﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾	المراد فيرتد قومٌ بعد أن اقتربوا من الإيمان.
﴿يَنفَدُ﴾	ينتهي.

❁ ❁ ❁

س: ما مدى صحة الوارد في أن هذه الآية أجمع آية في كتاب الله ﷻ؟

ج: أما عن رسول الله ﷺ فلا يصح في هذا خبرٌ عن النبي ﷺ.

أما عن غير رسول الله ﷺ فقد أخرج الطبري من طريقيه[1] عن الشعبي عن شتَير بن شَكَل، قال: سمعت عبد الله يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) ... إلى آخر الآية.

❁ ❁ ❁

من محاسن الشريعة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: إن الله ﷻ يأمر عباده بالعدل الذي هو الإنصاف والحق، وهذا يكون في حق الله ﷻ، وفي حق العباد فالعدل في حق الله أن تقول ما هو حق في شأنه، وذلك بقولك: لا إله إلا الله، وأن تنفي عنه الشريك والولد والنِّد والصاحبة، وأن تقول فيه ما قاله عن نفسه وقاله عنه رسوله ﷺ.

ومن العدل القصاص كما قال تعالى: ﴿ ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ ﴾، وكما قال: ﴿ ﴾.

ومن العدل الإنصاف في الحكم بين الناس وهذا يشمل الحاكم والكافي والأمير وكل من يقضي بين الناس ومن العدل أن تؤدي ما عليك كاملًا مستوفًى غير ناقص إلا إذا رضي صاحبة بأقل من حقه.

... فهذه بعض صور العدل.

---

(١) صحيح عن ابن مسعود ﷺ.

أما الإحسان فله صور:

منها: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

ومنها: الصبرو العفو كما قال تعالى: ﴿﴾.

وكما قال بعد أن أمر بالعدل في قوله: ﴿﴾ أرشد بقوله: ﴿﴾

وكما قال بعد أن قال: ﴿﴾ أرشد إلى العفو قائلًا: ﴿﴾.

ولما حث على العدل في قوله: ﴿﴾ أرشد إلى العفو بقوله: ﴿﴾.

فالحاصل أن الله أمر بالعدل وأرشد إلى الفضل، الذي هو الإحسان.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: وإعطاء القرابات والأرحام حقوقهم كما قال تعالى: ﴿﴾، وقوله تعالى: ﴿﴾، وهو كل ما فحش من الأقوال والأفعال، والتي منها الزنى وفحش القول والعمل ﴿﴾ قيل: إنه عموم ما حرم الله، وقيل: إنه الشرك، وقيل: إنه المنكرات الظاهرة، أما ﴿﴾ فهو التعدي على العباد وظلمهم، وقوله: ﴿﴾ أي: يُذكركم لعلكم تتذكرون، والوعظ التذكير بما يلين القلوب.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن الله يأمر في هذا الكتاب الذي أنزله إليك يا محمد بالعدل، وهو الإنصاف، ومن الإنصاف: الإقرار بمن أنعم علينا بنعمته، والشكر له على إفضاله، وتولي الحمد أهله. وإذا كان ذلك هو العدل، ولم يكن للأوثان والأصنام عندنا يد تستحقّ الحمد عليها، كان جهلا بنا حمدها وعبادتها، وهي لا تنعِم فتشكر، ولا تنفع فتعبد، فلزمنا أن نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولذلك قال من قال: العدل في هذا الموضع شهادة أن لا إله إلا الله.

وقوله: {والإحسان}، فإن الإحسان الذي أمر به تعالى ذكره مع العدل الذي وصفنا صفته: الصبر لله على طاعته فيما أمر ونهى، في الشدّة والرخاء، والمَكْرَه والمَنْشَط، وذلك هو أداء فرائضه.

وقوله (وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) يقول: وإعطاء ذي القربى الحقّ الذي أوجبه الله عليك بسبب القرابة والرحم.

وقوله (وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ) قال: الفحشاء في هذا الموضع: الزنا.

وقوله (والبَغْيِ) قيل: عُني بالبغي في هذا الموضع: الكبر والظلم.

وقوله (يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) يقول: يذكركم أيها الناس ربكم لتذكروا فتنيبوا إلى أمره ونهيه، وتعرفوا الحقّ لأهله.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) ... الآية، إنه ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خُلق سيِّئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدّم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومَذامِّها.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كما قال تعالى: {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين} [النحل: ١٢٦]، وقال {وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله} [الشورى: ٤٠]، وقال {والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له} [المائدة: ٤٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا، من (١) شرعية العدل والندب إلى الفضل.

وقوله: {وإيتاء ذي القربى} أي: يأمر بصلة الأرحام، كما قال: {وآت ذا

القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا} [الإسراء: ٢٦].

وقوله: {وينهى عن الفحشاء والمنكر} فالفواحش: المحرمات. والمنكرات: ما ظهر منها من فاعلها؛ ولهذا قيل في الموضع الآخر: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن} [الأعراف: ٣٣]. وأما البغي فهو: العدوان على الناس. وقد جاء في الحديث:

«مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يُدَّخَرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ، مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»[1].

وقوله {يعظكم} أي: يأمركم بما يأمركم به من الخير، وينهاكم عما (٢) ينهاكم عنه من الشر، {لعلكم تذكرون}.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما الإحسان فقد قال علماؤنا: الإحسان مصدر أحسن يحسن إحسانا. ويقال على معنيين: أحدهما متعد بنفسه، كقولك: أحسنت كذا، أي حسنته وكلمته، وهو منقول بالهمزة من حسن الشيء. وثانيهما متعد بحرف جر، كقولك: أحسنت إلى فلان، أي أوصلت إليه ما ينتفع به.

قلت: وهو في هذه الآية مراد بالمعنيين معا، فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض، حتى أن الطائر في سجنك والسنور في دارك لا ينبغي أن تقصر تعهده بإحسانك، وهو تعالى غني عن إحسانهم، ومنه الإحسان والنعم والفضل والمنن. وهو في حديث جبريل بالمعنى الأول لا بالثاني، فإن المعنى الأول راجع إلى إتقان العبادة ومراعاتها بأدائها المصححة والمكملة، ومراقبة الحق فيها واستحضار عظمته وجلاله حالة الشروع وحالة

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

الاستمرار. وهو المراد بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وأرباب القلوب في هذه المراقبة على حالين: أحدهما غالب عليه مشاهدة الحق فكأنه يراه. ولعل النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى هذه الحالة بقوله: «وجعلت قرة عيني في الصلاة». وثانيهما- لا تنتهي إلى هذا، لكن يغلب عليه أن الحق سبحانه مطلع عليه ومشاهد له، وإليه الإشارة بقوله تعالى: {الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين} وقوله:" إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه «٢» " الثالثة- قوله تعالى: وإيتاء ذي القربى أي القرابة، يقول: يعطيهم المال كما قال:" وآت ذا القربى حقه «٣» " يعني صلته. وهذا من باب عطف المندوب على الواجب، وبه استدل الشافعي في إيجاب إيتاء المكاتب، على ما يأتي بيانه. وإنما خص ذا القربى لأن حقوقهم أوكد وصلتهم أوجب، لتأكيد حق الرحم التي اشتق الله اسمها من اسمه، وجعل صلتها من صلته، فقال في الصحيح:" أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك «٤» ". ولا سيما إذا كانوا فقراء. الرابعة- قوله تعالى: (وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) الفحشاء: الفحش، وهو كل قبيح من قول أو فعل. ابن عباس: هو الزنى. والمنكر: ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وهو يعم جميع المعاصي والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها. وقيل هو الشرك. والبغي: هو الكبر والظلم والحقد والتعدي، وحقيقته تجاوز الحد، وهو داخل تحت المنكر، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماما به لشدة ضرره.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق

المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء ونواب الخليفة، ونواب القاضي.

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات، بإيفاء جميع ما عليك فلا تبخس لهم حقا ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى -وإن كان داخلا في العموم- لتأكد حقهم وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك.

ويدخل في ذلك جميع الأقارب قريبهم وبعيدهم لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر.

وقوله: {وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ} وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقة والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش.

ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى.

وبالبغي كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض.

فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء.

ولهذا قال: {يَعِظُكُمْ} به أي: بما بينه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم.

{لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه، فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن يأمر خلقه بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وأنه ينهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي؛ لأجل أن يتَّعظوا بأوامره ونواهيه، فيمتثلوا أمره، ويجتنبوا نهيه، وحذف مفعول {يَأْمُرُ}، {وَيَنْهَى} [١٦/ ٩٠]، لقصد التعميم.

ومن الآيات التي أمر فيها بالعدل قوله تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [٥/ ٨]، وقوله: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ} [٤/ ٥٨].

ومن الآيات التي أمر فيها بالإحسان، قوله تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [٢/ ١٩٥]، وقوله: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [١٧/ ٢٣]، وقوله: {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ

إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ} [٢٨/ ٧٧]، وقوله: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [٢/ ٨٣]، وقوله: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} [٩/ ٩١].

ومن الآيات التي أمر فيها بإيتاء ذي القربى، قوله تعالى: {فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [٣٠/ ٣٨]، وقوله: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً} [١٧/ ٢٦]، وقوله: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى...} الآية [٢/ ١٧٧]، وقوله: {أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ} [٩٠/ ١٤، ١٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الآيات التي نهى فيها عن الفحشاء والمنكر والبغي، قوله: {وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...} الآية [٦/ ١٥١]، وقوله: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ...} الآية [٧/ ٣٣]، وقوله: {وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ} [٦/ ١٢٠]، والمنكر وإن لم يصرح باسمه في هذه الآيات، فهو داخل فيها.

ومن الآيات التي جمع فيها بين الأمر بالعدل والتفضل بالإحسان، قوله: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} [١٦/ ١٢٦]، فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: {وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} [١٦/ ١٢٦]، وقوله: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} [٤٢/ ٤٠]، فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ} [٤٢/ ٤٠].

وقوله: {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ} [٥/ ٤٥]، فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: {فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ} [٥/ ٤٥]، وقوله: {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ

ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ...} الآية [٤٢/ ٤١]، فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [٤٢/ ٤٣]، وقوله: {لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ} [٤/ ١٤٨]، فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: {إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً} [٤/ ١٤٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن العدل في اللغة: القسط والإنصاف، وعدم الجور، وأصله التوسط بين المرتبتين؛ أي: الإفراط والتفريط، فمن جانب الإفراط والتفريط فقد عدل، والإحسان مصدر أحسن، وهي تستعمل متعدية بالحرف نحو: أحسن إلى والديك؛ ومنه قول تعالى عن يوسف: {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ...} الآية [١٢/ ١٠٠]، وتستعمل متعدية بنفسها؛ كقولك: أحسن العامل عمله، أي: أجاده وجاء به حسناً. والله جل وعلا يأمر بالإحسان بمعنييه المذكورين، فهما داخلان في الآية الكريمة، لأن الإحسان إلى عباد الله لوجه الله عمل أحسن فيه صاحبه. وقد فسر النَّبي صلى الله عليه وسلم الإحسان في حديث جبريل بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، وقد قدمنا إيضاح ذلك "في سورة هود". فإذا عرفت هذا، فاعلم أن أقوال المفسرين في الآية الكريمة راجعة في الجملة إلى ما ذكرنا؛ كقول ابن عباس: العدل: لا إله إلا الله، والإحسان: أداء الفرائض؛ لأن عبادة الخالق دون المخلوق هي عين الإنصاف والقسط، وتجنب التفريط والإفراط. ومن أدى فرائض الله على الوجه الأكمل فقد أحسن؛ ولذا قال النَّبي صلى الله عليه وسلم في الرجل الذي حلف لا يزيد على الواجبات: "أفلح إن صدق". وكقول سفيان: العدل: استواء العلانية والسريرة.

والإحسان: أن تكون السريرة أفضل من العلانية، وكقول علي رضي الله عنه: العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل، إلى غير ذلك من أقوال السلف، والعلم عند الله تعالى.

وقوله {يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [١٦/ ٩٠]، الوعظ: الكلام الذي تلين له القلوب.

❁ ❁ ❁

الوفاء بالعهود والتحذير من نقضها

س: لماذا عُبر بلفظ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم–: وأوفوا يا أهل الإسلام بعهد الله ﷻ إذا عاهدتم، وهذا يشمل العهود التي بين العبد وبين ربِّه تبارك وتعالى – على ما قدمته في مطلع سورة المائدة وغيرها – فقد عاهدتم ربكم بقولكم سمعنا وأطعنا، ويشمل العهود التي بين العباد وبعضهم كالمعاهدات التي بين المسلمين وغيرهم والمعاهدات التي بين المسلمين وبعضهم، وكذلك العقود، ويشمل التحالفات التي كانت تجري بين بعض الناس وبعضهم فهو أمرٌ عامٌ بالوفاء بكل العهود.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فهي الأيمان المصاحبة للعقود، فكانوا يتعاقدون ويقسمون أيمانًا على الوفاء بالعهود، فنهاهم الله ﷻ عن نقض هذه العهود

وتلك الأيمان.

أما قوله تعالى: ﴿بعد توكيدها﴾ أي: بعد تأكيدها سواء كان هذا التأكيد بتغليظ اليمين أو بتكريره، وهذا لا يشمل من أقسم يمينًا على شيء ثم بدا له أن يفعل خلافه، فإن هذا يكفر كفارة يمين ويفعل الخير، أما العهود التي بين الناس فلا تندرج تحت هذا، بل يلزم الوفاء بها أو التحلل منها.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: قلتم عند العهود -أي: أثناء كتابتها والاتفاق عليها- كفى بالله وكيلًا، وكفى بالله كفيلًا، أي: أشهدتم ربكم على الوفاء بها، وأقسمتم بالله على الوفاء بها.

أما قوله: ﴿﴾ فحاصله: أنه يعلمه وسيجازيكم على ما صنعتم من نقض العهود إذا نقضتموها ويجازيكم كذلك خيرًا على وفائكم بها.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ فحاصل معناه: أن ناقض العهد شبِّه بامرأة خرقاء طائشة حمقاء تغزل الغزل وتُحكمه وتؤكد إحكامه ثم وبعد أن تتقن الغزل أشد الإتقان إذا بها تنقضه نقضًا، تنقضه أنقاضًا، فتعبت في أول أمرها عند إتقان غزلها، ثم تعبت تعبًا آخر أثناء نقض الغزل، وهكذا ناقض العهد يُشدد على الوفاء به ويؤكد أنه سيفي به ثم ينقض ما قاله.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: تسترون بالأيمان وتتخذون الأيمان للغش والغدر والخيانة والخديعة، تخدعون بها بعضكم وتغشونه بها، تفعلون ذلك لكون جماعة من الناس أقوى من الجماعة التي تحالفتم معها، فكان القوم يتحالفون مع قوم فإذا جاء قوم أكثر منهم عددًا نقضوا التحالف الأول والعهد الأول، ودخلوا مع الأكثر عددًا في تحالف آخر غير التحالف الأول، فقوله: ﴿﴾ معناه: أنكم تنقضون العهد من أجل أمةٍ أكثر عددًا من أمةٍ أخرى.

ألا فاعلموا أن الله ﷻ يبلوكم بذلك، يختبركم بأن يسوق إليكم بعدما تعاقدتم التعاقد الأول، يسوق إليكم قبيلة أُخرى هي أقوى وأكثر اختبارًا هل تفون بالعهد الأول أم أنكم تنقضون العهد وتدخلون مع القوم الأكثر عَددًا وعُددًا.

وليظهرن الله لكم يوم القيامة حقيقة الأمور التي كنتم تتنازعون فيها في دنياكم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: وأوفوا بميثاق الله إذا واثقتموه، وعقده إذا عاقدتموه، فأوجبتم به على أنفسكم حقا لمن عاقدتموه به وواثقتموه عليه ﴿وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يقول: ولا تخالفوا الأمر الذي تعاقدتم فيه الأيمان، يعني بعد ما شددتم الأيمان على أنفسكم، فتحنثوا في أيمانكم وتكذبوا فيها وتنقضوها بعد إبرامها، يقال منه: وكّد فلان يمينه يوكدها توكيدًا: إذا شددها وهي لغة أهل الحجاز، وأما أهل نجد، فإنهم يقولون: أكدتها أؤكدها تأكيدا. وقوله ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا﴾ يقول: وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه على أنفسكم راعيًا يرعى الموفى منكم بعهد الله الذي عاهد على الوفاء به والناقض.

وقوله ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن الله أيها الناس يعلم ما تفعلون في العهود التي تعاهدون الله من الوفاء بها والأحلاف والأيمان التي تؤكدونها على أنفسكم، أتبرّون فيها أم تنقضونها وغير ذلك من أفعالكم، محصن ذلك كله عليكم، وهو مسائلكم عنها وعما عملتم فيها، يقول: فاحذروا الله أن تلقوه وقد خالفتم فيها أمره ونهيه، فتستوجبوا بذلك منه ما لا

قِبَل لكم به من أليم عقابه.

ويقول تعالى ذكره ناهيا عباده عن نقض الأيمان بعد توكيدها، وآمرًا بوفاء العهود، وممثلا ناقض ذلك بناقضة غزلها من بعد إبرامه وناكثته من بعد إحكامه: ولا تكونوا أيها الناس في نقضكم أيمانكم بعد توكيدها وإعطائكم الله بالوفاء بذلك العهود والمواثيق (كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ) يعني: من بعد إبرام. وكان بعض أهل العربية يقول: القوّة: ما غُزِل على طاقة واحدة ولم يثن. وقيل: إن التي كانت تفعل ذلك امرأة حمقاء معروفة بمكة.

وقال آخرون: إنما هذا مثل ضربه الله لمن نقض العهد، فشبهه بامرأة تفعل هذا الفعل. وقالوا في معنى نقضت غزلها من بعد قوة، نحوا مما قلنا.

وأورد بسندٍ حسن عن قتادة، قوله (وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا) فلو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد إبرامه لقلتم: ما أحمق هذه! وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده.

وبإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله (وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا) قال: هذا مثل ضربه الله لمن نقض العهد الذي يعطيه، ضرب الله هذا له مثلا بمثل التي غزلت ثم نقضت غزلها، فقد أعطاهم ثم رجع، فنكث العهد الذي أعطاهم.

وقوله (أَنْكَاثًا) يعني: أنقاضا، وكلّ شيء نُقِض بعد الفتل فهو أنكاث، واحدها: نكْث حبلا كان ذلك أو غزلا يقال منه: نَكَث فلان هذا الحبل فهو ينكُثُه نكثا، والحبل منتكِث: إذا انتقضت قُواه. وإنما عني به في هذا الموضع نكث العهد والعقد. وقوله (تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ) يقول تعالى ذكره: تجعلون أيمانكم التي تحلفون بها على أنكم

موفون بالعهد لمن عاقدتموه (دَخَلا بَيْنَكُمْ) يقول: خديعة وغرورا ليطمئنوا إليكم وأنتم مضمرون لهم الغدر وترك الوفاء بالعهد والنُّقلة عنهم إلى غيرهم من أجل أن غيرهم أكثر عددًا منهم. والدَّخَل في كلام العرب: كلّ أمر لم يكن صحيحًا، يقال منه: أنا أعلم دَخَل فلان ودُخْلُلَه وداخلة أمره ودخلته ودخيلته.

وأما قوله (أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ) فإن قوله أربى: أفعل من الربا، يقال: هذا أربى من هذا وأربأ منه، إذا كان أكثر منه.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله (تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ) يغرّ بها، يعطيه العهد يؤمنه وينزله من مأمنه، فتزلّ قدمه وهو في مأمن، ثم يعود يريد الغدر، قال: فأوّل بدو هذا (٣) قوم كانوا حلفاء لقوم تحالفوا، وأعطى بعضهم بعضا العهد، فجاءهم قوم قالوا: نحن أكثر وأعزّ وأمنع، فانقضوا عهد هؤلاء وارجعوا إلينا، ففعلوا، وذلك قول الله تعالى (وَلا تَنْقُضُوا الأيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا) (أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ) هي أربى: أكثر من أجل أن كانوا هؤلاء أكثر من أولئك نقضتم العهد فيما بينكم وبين هؤلاء، فكان هذا في هذا، وكان الأمر الآخر في الذي يعاهده فينزله من حِصْنه ثم ينكث عليه، الآية الأولى في هؤلاء القوم وهي مبدؤه، والأخرى في هذا.

وقوله (إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ) يقول تعالى ذكره: إنما يختبركم الله بأمره إياكم بالوفاء بعهد الله إذا عاهدتم، ليتبين المطيع منكم المنتهي إلى أمره ونهيه من العاصي المخالف أمره ونهيه (وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) يقول تعالى ذكره: وليبينن لكم أيها الناس ربكم يوم القيامة إذا وردتم عليه بمجازاة كلّ فريق منكم على عمله في الدنيا، المحسن منكم بإحسانه والمسيء

بإساءته، (مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) والذي كانوا فيه يختلفون في الدنيا أن المؤمن بالله كان يقرّ بوحدانية الله ونبوّة نبيه، ويصدق بما ابتعث به أنبياءه، وكان يكذّب بذلك كله الكافر فذلك كان اختلافهم في الدنيا الذي وعد الله تعالى ذكره عباده أن يبينه لهم عند ورودهم عليه بما وصفنا من البيان.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمقصود النهي عن العود إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم. وقال الفراء: المعنى لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم، وقد عززتموهم بالأيمان. (أربى) أي أكثر، من ربى الشيء يربو إذا كثر. والضمير في" به" يحتمل أن يعود على الوفاء الذي أمر الله به. ويحتمل أن يعود على الرباء، أي أن الله تعالى ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضهم الظهور على بعض، واختبرهم بذلك من يجاهد نفسه فيخالفها ممن يتبعها ويعمل بمقتضى هواها، وهو معنى قوله: (إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) من البعث وغيره.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا مما يأمر الله تعالى به (١) وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة؛ ولهذا قال: {ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها}

ولا تعارض بين هذا وبين قوله: {ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا [وتصلحوا بين الناس] } [البقرة: ٢٢٤] (٢) وبين قوله تعالى: {ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم} [المائدة: ٨٩] أي: لا تتركوها بلا تكفير، وبين قوله، عليه السلام فيما ثبت عنه في الصحيحين[(١)]:

---

(١) البخاري (٦٦٢٣)، ومسلم (١٦٤٩).

«إِنِّي وَاللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ، لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا ». وفي رواية: «وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي» لا تعارض بين هذا كله، ولا بين الآية المذكورة هاهنا وهي قوله: {ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا}؛ لأن هذه الأيمان، المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع.

... ثم قال:

وقوله: {إن الله يعلم ما تفعلون} تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

وقوله: {ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا} قال عبد الله بن كثير، والسدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت شيئا نقضته بعد إبرامه.

وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده.

وهذا القول أرجح وأظهر، وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا.

وقوله: {أنكاثا} يحتمل أن يكون اسم مصدر: نقضت غزلها أنكاثا، أي: أنقاضا. ويحتمل أن يكون بدلا عن خبر كان، أي: لا تكونوا أنكاثا، جمع نكث من ناكث؛ ولهذا قال بعده: {تتخذون أيمانكم دخلا بينكم} أي: خديعة ومكرا، {أن تكون أمة هي أربى من أمة} أي: يحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم. فنهى الله عن ذلك، لينبه بالأدنى على الأعلى؛ إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ}، أمر جل وعلا في هذه الآية الكريمة عباده أن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا، وظاهر الآية أنه شامل لجميع العهود فيما بين العبد وربه، وفيما بينه وبين الناس، وكرر هذا في مواضع أُخر؛ كقوله في "الأنعام": {وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ...} الآية [٦/ ١٥٢]، وقوله في "الإسراء": {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً} [١٧/ ٣٤]، وقد قدمنا هذا "في الأنعام".

وبين في مواضع أخر: أن من نقض العهد إنما يضر بذلك نفسه، وأن من أوفى به يؤتيه الله الأجر العظيم على ذلك؛ وذلك في قوله: {فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً} [٤٨/ ١٠]، وبين في مواضع آخر: أن نقض الميثاق يستوجب اللعن؛ وذلك في قوله: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ...} الآية [٥/ ١٣].

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}.

وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها إذا كان الوفاء بها برا، ويشمل أيضا ما تعاقد عليه هو وغيره كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره ويؤكده على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها

فقال: {وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} بعقدها على اسم الله تعالى: {وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ} أيها المتعاقدون {كَفِيلا} فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلا فيكون ذلك ترك تعظيم الله واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلا. فكما ائتمنك وأحسن ظنه فيك فلتف له بما قلته وأكدته.

{إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} يجازي كل عامل بعمله على حسب نيته ومقصده.

{وَلا تَكُونُوا} في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها على سفه متعاطيها، وذلك {كَالَّتِي} تغزل غزلا قويا فإذا استحكم وتم ما أريد منه نقضته فجعلته {أَنْكَاثًا} فتعبت على الغزل ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأي، فكذلك من نقض ما عاهد عليه فهو ظالم جاهل سفيه ناقص الدين والمروءة.

وقوله: {تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ} أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم تعقدون الأيمان المؤكدة وتنتظرون فيها الفرص، فإذا كان العاقد لها ضعيفا غير قادر على الآخر أتمها لا لتعظيم العقد واليمين بل لعجزه

❁ ❁ ❁

س: في قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ إشارة إلى نوعٍ من أنواع الابتلاءات، وهي الابتلاءات بتيسير أسباب المعاصي وضح ذلك.

ج: إيضاحه - كما تقدم- أن القوم كانوا يعاهدون قومًا فإذا جاء آخرون

أقوى وأكثر نقضوا العهد الأول، فالذي ساق القوم الآخرين هو الله ﷻ، ساقهم الله ابتلاءً واختبارًا ينظر ماذا سيصنع هؤلاء الذين عاهدوا هل يفون بالعهد أم لا؟

ولذلك صور فمنها: أن يبيع الشخص بيتًا بمائة ألف ويتمم البيع لكنه لم يكتبه فيأتي مشترٍ آخر يعرض مائتي ألف فينقض البائع البيع الأول ظُلمًا وعدوانًا من أجل السعر الجديد المعروض له.

وكذا فتاة مخطوبة معلومٌ أنها مخطوبة لفلان فيسوق الله شخصًا آخر يعرض نفسه فينقض أهل المخطوبة الخطبة الأولى طمعًا في ثراء الخاطب الجديد، وهكذا.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة متفقين في كل شيء على قلب رجل واحد، فلا تختلفون، ولكن ﷻ شاء أن يجعل منكم الوفيَّ ويجعل منكم الخائن، وكذا يجعل منكم المؤمن ويجعل منكم الكافر فيضل من يشاء عن طريق الحق، ويوفق من يشاء لطريق الحق والصواب، ولتُسألن يوم القيامة عن أعمالكم التي عملتوها.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولو شاء ربكم أيها الناس للطف بكم بتوفية من عنده، فصرتم جميعًا جماعة واحدة، وأهل ملة واحدة لا تختلفون ولا تفترقون،

ولكنه تعالى ذكره خالف بينكم، فجعلكم أهل ملل شتى، بأن وفَّق هؤلاء للإيمان به، والعمل بطاعته، فكانوا مؤمنين، وخذل هؤلاء فحَرَمهم توفيقه فكانوا كافرين، وليسألنكم الله جميعا يوم القيامة عما كنتم تعملون في الدنيا فيما أمركم ونهاكم، ثم ليجازينكم جزاء المطيع منكم بطاعته، والعاصي له بمعصيته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: {ولو شاء الله لجعلكم} أيها الناس {أمة واحدة} (١) ، كما قال تعالى: {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا} [يونس: ٩٩] أي: لوفق بينكم. ولما جعل اختلافا ولا تباغض ولا شحناء {ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم} [هود: ١١٨، ١١٩] ، وهكذا قال هاهنا: {ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء} ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطمير.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) أي على ملة واحدة. (ولكن يضل من يشاء) بخذلانه إياهم، عدلا منه فيهم. (ويهدي من يشاء) بتوفيقه إياهم، فضلا منه عليهم، ولا يسأل عما يفعل بل تسألون أنتم. والآية ترد على أهل القدر كما تقدم. واللام في" وليبينن ولتسئلن" مع النون المشددة يدلان على قسم مضمر، أي والله ليبينن لكم ولتسئلن.

❁ ❁ ❁

التحذير من أن تتسبب في إغواء شخص

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: ولا تتخذوا أيمانكم التي أقسمتموها عند العهود، لا تتخذوها لغش الناس وخديعتهم والمكر بهم فتتسببوا في ردة قومٍ بعد أن اقتربوا من طريق الهداية وتذوقوا العذاب بما أحدثتموه للناس من ردةٍ عن طريق الخير وانحرافٍ عن طريق الصواب، ولكم عذاب عظيم يوم القيامة وبإيضاح آخر، فالشخص المسلم ذو السمت الطيب والمظهر الحسن الموافق للكتاب والسنة يقبل عليه الناس ويحبونه ويوشكوا - لما يرونه من كريم أخلاقه - أن يدخلوا في الإسلام، فإذا رأوه عاهد وغدر، أو وعد فأخلق أو غش ودلَّس انصرفوا عن الدين بسببه، فيعاقبه الله ﷻ لما تسبب في انصراف من انصرف عن الدين، يعاقبه ربه في الدنيا وفي الآخرة بما تسبب فيه للناس.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولا تتخذوا أيمانكم بينكم دَخَلا وخديعة بينكم، تغزون بها الناس (فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا) يقول: فتهلكوا بعد أن كنتم من الهلاك آمنين. وإنما هذا مثل لكل مبتلى بعد عافية، أو ساقطٍ في ورطة بعد سلامة، وما أشبه ذلك: (زلّت قدمه)، كما قال الشاعر:

سَيَمْنَعُ مِنْكَ السَّبْقُ إنْ كُنْتَ سابِقا وتُلْطَعُ إنْ زَلَّتْ بِكَ النَّعْلانِ

وقوله (وَتَذُوقُوا السُّوءَ) يقول: وتذوقوا أنتم السوء وذلك السوء: هو عذاب الله الذي يعذّب به أهل معاصيه في الدنيا، وذلك بعض ما عذّب به أهل الكفر (بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) يقول: بما فَتنتم من أراد الإيمان بالله ورسوله عن الإيمان (وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) في الآخرة، وذلك نار جهنم، وهذه

الآية تدلّ على أن تأويل بُرَيْدة الذي ذكرنا عنه، في قوله (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ) والآيات التي بعدها، أنه عُنِيَ بذلك: الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام، عن (٢) مفارقة الإسلام لقلة أهله، وكثرة أهل الشرك هو الصواب، دون الذي قال مجاهد أنهم عنوا به، لأنه ليس في انتقال قوم تحالفوا عن حلفائهم إلى آخرين غيرهم، صدّ عن سبيل الله ولا ضلال عن الهدى، وقد وصف تعالى ذكره في هذه الآية فاعِلِي ذلك، أنهم باتخاذهم الأيمان دَخَلا بينهم، ونقضهم الأيمان بعد توكيدها، صادّون عن سبيل الله، وأنهم أهل ضلال في التي قبلها، وهذه صفة أهل الكفر بالله لا صفة أهل النُّقْلة بالحلف عن قوم إلى قوم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم حذر تعالى عباده عن (٢) اتخاذ الأيمان دخلا أي خديعة ومكرا، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها: مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحانثة (٣) المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام؛ ولهذا قال: {وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم}.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) كرر ذلك تأكيدا. (فتزل قدم بعد ثبوتها) مبالغة في النهي عنه لعظم موقعه في الدين وتردده في معاشرات الناس، أي لا تعقدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد فتزل قدم بعد ثبوتها، أي عن الأيمان بعد المعرفة بالله. وهذه استعارة للمستقيم الحال يقع في

شر عظيم ويسقط فيه، لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر، ومن هذا المعنى قول كثير:

فلما توافينا ثبت وزلت

والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية أو ساقط في ورطة: زلت قدمه، كقول الشاعر:

سيمنع منك السبق إن كنت سابقا وتقتل إن زلت بك القدمان

ويقال لمن أخطأ في شيء: زل فيه ثم توعد تعالى بعد، بعذاب في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة. وهذا الوعيد إنما هو فيمن نقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن من عاهده ثم نقض عهده خرج من الإيمان، ولهذا قال: (وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله) أي بصدكم. وذوق السوء في الدنيا هو ما يحل بهم من المكروه.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: {وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ} وعهودكم ومواثيقكم تبعا لأهوائكم متى شئتم وفيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها، فإنكم إذا فعلتم ذلك تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم، {وَتَذُوقُوا السُّوءَ} أي: العذاب الذي يسوءكم ويحزنكم {بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} حيث ضللتم وأضللتم غيركم {وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} مضاعف.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: ولا تعتاضوا عن الوفاء بالعهود والمواثيق والأيمان بأعراض دنيوية زائلة فانية فالوفاء بالعهود أولى من أعراض دنيوية زائلة، وما عند الله من النعيم الذي أعدَّه الله لمن أوفى بالعهد خير من هذا العرض الزائل المتأتي من وراء نقض العهود إن كنتم تعلمون ذلك.

ثم بيَّن الله ﷻ أنكم مهما جمعتم من حطام الدنيا فإنه سينفذ ويزول، وما عند الله باق، كما قال تعالى في النعيم المعدُّ لأهل الجنة: ﴿﴾، ثم قال تعالى: ﴿﴾ على الوفاء بالعهود فلم ينقضوها وصبروا على أوامر اله ﷻ فامتثلوها، وصبروا عن المحارم فلم يقترفوها، لنجزينهم أجرهم الحسن الجزاء وأتمه وأوفره على صبرهم الذين صبروا وعملهم الصالح الذي عملوا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولا تنقضوا عهودكم أيها الناس، وعقودكم التي عاقدتموها من عاقدتم مؤكِّديها بأيمانكم، تطلبون بنقضكم ذلك عرضًا من الدنيا قليلا ولكن أوفوا بعهد الله الذي أمركم بالوفاء به، يثبكم الله على الوفاء به، فإن ما عند الله من الثواب لكم على الوفاء بذلك، هو خير لكم إن كنتم تعلمون، فضل ما بين العِوَضين اللذين أحدهما الثمن القليل، الذي تشترون بنقض عهد الله في الدنيا، والآخر الثواب الجزيل في الآخرة على الوفاء به، ثم بين تعالى ذكره فرْق ما بين العِوَضين وفضل ما بين الثوابين، فقال: ما عندكم أيها الناس مما تتملكونه في الدنيا، وإن كَثُر فنافدٌ فان، وما عند الله لمن أوفى بعهده وأطاعه من الخيرات باق غير فانٍ، فلما عنده فاعملوا وعلى الباقي الذي لا يفنى فاحرصوا. وقوله (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) يقول تعالى ذكره: وليثيبنّ الله الذين صبروا على طاعتهم إياه في

السّراء والضرّاء، ثوابهم يوم القيامة على صبرهم عليها، ومسارعتهم في رضاه، بأحسن ما كانوا يعملُون من الأعمال دون أسوئها، وليغفرنّ الله لهم سيئها بفضله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

ثم قال تعالى: {ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا} أي: لا تعتاضوا عن الإيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي: جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به (٤) وطلبه، وحفظ عهده (٥) رجاء موعوده؛ ولهذا قال: {إن كنتم تعلمون ما عندكم ينفد}.

أي: يفرغ وينقضي، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه، {وما عند الله باق} أي: وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له فإنه دائم لا يحول ولا يزول، {ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون} قسم من الرب عز وجل (١) متلقى باللام، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ}، بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن ما عنده من نعيم الجنة باق لا يفنى، وأوضح هذا المعنى في مواضع أُخر؛ كقوله: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [١١/ ١٠٨]، وقوله: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} [٣٨/ ٥٤]، وقوله: {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً} [١٨/ ٢-٣]،إلى غير ذلك من الآيات.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) نهى عن الرشا وأخذ الأموال على نقض العهد، أي لا تنقضوا عهودكم لعرض قليل من الدنيا. وإنما كان قليلا وإن كثر لأنه مما يزول، فهو على التحقيق قليل، وهو المراد بقوله:" ما عندكم ينفد وما عند الله باق" فبين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفد وتحول، وما عند الله من مواهب فضله ونعيم جنته ثابت لا يزول لمن وفى بالعهد وثبت على العقد.

قوله تعالى: (ولنجزين الذين صبروا) أي على الإسلام والطاعات وعن المعاصي. أي من الطاعات، وجعلها أحسن لأن ما عداها من الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعات من حيث الوعد من الله.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي: مؤمنٍ رجلًا كان أو امرأة يعمل عملًا صالحًا موافقًا للكتاب وللسنة مُخلصًا في ذلك لله ﷻ فلنحيينه في الدنيا حياة طيبة بأن نمن عليه بالسعادة والرزق الحلال الطيب الحسن، والقناعة بما آتيناه ورضي القلب والنفس بذلك وراحة البال، فكل هذا يدخل في الحياة الطيبة في الدنيا، ولنجزينهم يوم القيامة أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، ففيها ما لا عين رات ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: من عمل بطاعة الله، وأوفى بعهود الله إذا عاهد من ذكر أو أنثى من بني آدم وهو مؤمن: يقول: وهو مصدّق بثواب الله الذي وعد أهل طاعته على الطاعة، وبوعيد أهل معصيته على المعصية (فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) .

واختلف أهل التأويل في الذي عَنى الله بالحياة الطيبة التي وعد هؤلاء القوم أن يُحْيِيَهموها، فقال بعضهم: عنى أنه يحييهم في الدنيا ما عاشوا فيها بالرزق الحلال.

وأورد نحو ذلك من وجوه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال آخرون: (فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) بأن نرزقه القناعة.

وقال آخرون: بل يعني بالحياة الطيبة الحياة مؤمنًا بالله عاملا بطاعته.

وقال آخرون: الحياة الطيبة السعادة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: الحياة في الجنة.

وأورد بسندٍ صحيح عن الحسن قال: لا تطيب الحياة لأحدٍ إلا في الجنة.

ونحوه بسندٍ حسن عن قتادة قال: ﴿﴾ وهي الجنة.

وبسندٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) قال: الحياة الطيبة في الآخرة: هي الجنة، تلك الحياة الطيبة، قال (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وقال: ألا تراه يقول (يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) قال: هذه آخرته. وقرأ أيضًا (وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ) قال: الآخرة دار حياة لأهل النار وأهل الجنة، ليس فيها موت لأحد من الفريقين.

ثم قال الطبري رحمه الله:

وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: فلنحيينه حياة طيبة

بالقناعة، وذلك أن من قنعه الله بما قسم له من رزق لم يكثر للدنيا تعبه، ولم يعظم فيها نَصَبه ولم يتكدّر فيها عيشه باتباعه بغية ما فاته منها وحرصه على ما لعله لا يدركه فيها.

وإنما قلت ذلك أولى التأويلات في ذلك بالآية، لأن الله تعالى ذكره أوعد قوما قبلها على معصيتهم إياه إن عصوه أذاقهم السوء في الدنيا، والعذاب في الآخرة، فقال تعالى (وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) فهذا لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم، فهذا لهم في الآخرة. ثم أتبع ذلك لمَن أوفى بعهد الله وأطاعه فقال تعالى: ما عندكم في الدنيا ينفد، وما عند الله باق، فالذي (١) هذه السيئة بحكمته أن (٢) يعقب ذلك الوعد لأهل طاعته بالإحسان في الدنيا، والغفران في الآخرة، وكذلك فَعَلَ تعالى ذكره.

وأما القول الذي رُوي عن ابن عباس أنه الرزق الحلال، فهو مُحْتَمَل أن يكون معناه الذي قلنا في ذلك، من أنه تعالى يقنعه في الدنيا بالذي يرزقه من الحلال، وإن قلّ فلا تدعوه نفسه إلى الكثير منه من غير حله. لا أنه يرزقه الكثير من الحلال، وذلك أن أكثر العاملين لله تعالى بما يرضاه من الأعمال لم نرهم رُزِقوا الرزق الكثير من الحلال في الدنيا، ووجدنا ضيق العيش عليهم أغلب من السعة.

وقوله (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فذلك لا شك أنه في الآخرة. وكذلك قال أهل التأويل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا -وهو العمل المتابع لكتاب الله

تعالى وسنة نبيه (٢) من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله -بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا وأن يجزيه (٣) بأحسن ما عمله في الدار الآخرة.

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت.

وأورد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: أقوال العلماء في تفسير الحياة الطيبة، على نحو مما ذكره الطبري، وقال: والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، وأورد ما أخرجه أحمد ومسلم [(١)]، من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمرو أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ ورُزق كَفَافًا، وقَنَّعه اللهُ بِمَا آتَاهُ»**.

وما أخرجه أحمد ومسلم [(٢)] أيضًا من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا [وَيُثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُعْطِيهِ حَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا] (٢) حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا خَيْرًا»**.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ} فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها بل لا تسمى أعمالا صالحة إلا بالإيمان والإيمان مقتض لها فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح {فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} وذلك بطمأنينة قلبه وسكون نفسه وعدم التفاته لما يشوش عليه

---

(١) أحمد (٢/ ١٦٨)، ومسلم (١٠٥٤).

(٢) أحمد (٣/ ١٢٣)، ومسلم (٢٨٠٨).

قلبه ويرزقه الله رزقا حلالا طيبا من حيث لا يحتسب {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ} في الآخرة {أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} من أصناف اللذات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيؤتيه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ
عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى
ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً
مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ
أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ
يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ
وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا
يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ
إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ
صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ
ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ
وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ

هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ
مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١١٠﴾

[النحل: ٩٨-١١٠]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ - سُلۡطَٰنٌ - يَتَوَكَّلُونَ - يَتَوَلَّوۡنَهُۥ - هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ - مُفۡتَرِۭ - رُوحُ ٱلۡقُدُسِ - يُلۡحِدُونَ - أَعۡجَمِيٌّ - لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ - شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا - ٱلۡغَٰفِلُونَ - لَا جَرَمَ - فُتِنُواْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾	اطلب من الله أن يعيذك ويحفظك.
﴿سُلۡطَٰنٌ﴾	حجة - تسلّط.
﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾	يعتمدون.
﴿يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾	يتخذونه وليًا ويطيعونه ويتبعونه.
﴿هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾	هم بالله مشركون، وقيل: هم بالشيطان مشركون، ويجعلونه شريكًا لله فيطيعوه ويتبعوه.
﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾	جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.
﴿يُلۡحِدُونَ﴾	يميلون إليه في نسبة القرآن إليه.
﴿أَعۡجَمِيٌّ﴾	لا يتكلم العربية ولا يستطيع الإفصاح للعرب بما يريد
﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾	لا يوفقهم الله.
﴿شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾	وسع صدره للكفر وقَبِلَهُ.
﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾	الساهون (عن الحق وعما أُعدَّ لهم من العذاب).
﴿لَا جَرَمَ﴾	حقًّا.

﴿فُتِـنُواْ ﴾	عُذِّبوا – صرفوا عن دينهم وأشركوا وهم مكرهون.

التعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند التلاوة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: فإذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله قبل القراءة من الشيطان الرجيم، أي: اطلب من الله ﷻ أن يعيذك من الشيطان المرجوم حتى لا يُلبس عليك قراءتك، وحتى لا يفقدك التدبر والتأمل والتفكر، وحتى لا يحول بينك وبين الاستعاذة من القرآن الكريم، ثم بيَّن الله سبحانه وتعالى أن الشيطان ليس له تسلطٌ بالحجة على أهل الإيمان المخلصين الذين آمنوا وأحسنوا الاعتماد على ربهم ﷻ، فهؤلاء ليس للشيطان عليهم تسلط بالحجة، وليس عليهم تسلط بإيقاعهم في الشرك أو بإيقاعهم في ذنب لا يتوبون منه، إنما تسلُّطه على الذين يتخذونه وليًّا لهم فيسمعوا له ويطيعوا، وتسلطه أيضًا على الذين هم بالله مشركون، أي: على أهل الشرك بالله.

فقوله تعالى: ﴿﴾ قيل: أي بالله ﴿﴾، وقال: ﴿﴾ أي: بالشيطان، أي: جعلوا الشيطان شريكًا لله بطاعتهم له، وباتباعه فيما حلل وحرَّم، وبجعلهم نصيبًا من الحرث والأنعام للشيطان وللآلهة المعبودة من دون الله.

فهؤلاء هم الذين يتسلط عليهم الشيطان ويوقعهم في الكفر والعصيان والفواحش والكبائر وغير ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وإذا كنت يا محمد

قارئًا القرآن، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

ثم قال:

وليس قوله (فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) بالأمر اللازم، وإنما هو إعلام وندب. وذلك أنه لا خلاف بين الجميع، أن من قرأ القرآن ولم يستعذ بالله من الشيطان الرجيم. قبل قرأته أو بعدها أنه لم يضيع فرضا واجبا.

ثم قال:

وأما قوله (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) فإنه يعني بذلك: أن الشيطان ليست له حجة على الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمر الله به وانتهوا عما نهاهم الله عنه (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) يقول: وعلى ربهم يتوكلون فيما نابهم من مهمات أمورهم (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ) يقول: إنما حجته على الذين يعبدونه، (وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) يقول: والذين هم بالله مشركون.

ثم قال:

وأما قوله (وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم فيه بما قلنا إن معناه: والذين هم بالله مشركون.

وقال آخرون: معنى ذلك: والذين هم به مشركون، أشركوا الشيطان في أعمالهم.

واختار الطبري القول الأول: الذي حاصله أن قوله: ﴿﴾ عائدة على الرب في قوله: ﴿﴾.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

هذا أمر من الله تعالى لعباده (٤) على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: إذا

أرادوا قراءة القرآن، أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم. وهو أمر ندب ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك (٥) الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطة في أول التفسير، ولله الحمد والمنة.

ثم قال:

والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة، لئلا يلبس (٦) على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمنعه من التدبر والتفكر، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة.

ثم قال:

{والذين هم به مشركون} أي: أشركوا في عبادة الله تعالى. ويحتمل أن تكون الباء سببية، أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى.

وقال آخرون: معناه: أنه شركهم في الأموال والأولاد.

وقال الشنقيطي (أضواء البيان):

وأظهر الأقوال في قوله: {وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [١٦/ ١٠٠]، أن الضمير عائد إلى الشيطان لا إلى الله. ومعنى كونهم مشركين به هو طاعتهم له في الكفر والمعاصي؛ كما يدل عليه قوله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [٣٦/ ٦٠]، وقوله عن إبراهيم: {يَاأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ} [١٩/ ٤٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما سلطانه على الذين يتولونه فهو ما جعلوه له على أنفسهم من الطاعة والاتباع والموالاة، بغير موجب يستوجب ذلك.

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المعنى: فاذا أردتَ القراءة فاستعذ، ومثله ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ [المائدة: ٦] وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب ٥٣] وقوله: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ [المجادلة: ١٢].

ومثله في الكلام: إذا أكلت فقل: باسم الله، هذا قول عامة العلماء واللغويين.

والثاني: أنه على ظاهره، وأن الاستعاذة بعد القراءة. روي عن أبي هريرة (١)، وداود.

والثالث: أنه من المقدَّم والمؤخَّر، فالمعنى: فاذا استعذت بالله فاقرأ، قاله أبو حاتم السجستاني، والأول أصح.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإذا أردت القراءة لكتاب الله الذي هو أشرف الكتب وأجلها وفيه صلاح القلوب والعلوم الكثيرة فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها.

فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله، والاستعاذة به من شره، فيقول القارئ: " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " متدبرا لمعناها، معتمدا بقلبه على الله في صرفه عنه، مجتهدا في دفع وساوسه وأفكاره الرديئة مجتهدا، على السبب الأقوى في دفعه، وهو التحلي بحلية الإيمان والتوكل.

فإن الشيطان {لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ} أي: تسلط {عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ} وحده لا شريك له {يَتَوَكَّلُونَ} فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه

(١) لم أقف عليه.

شر الشيطان ولا يبق له عليهم سبيل.

{إِنَّمَا سُلْطَانُهُ} أي: تسلطه {عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ} أي: يجعلونه لهم وليا، وذلك بتخليهم عن ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان، وانضمامهم لحزبه، فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم، فأزَّهم إلى المعاصي أزًّا وقادهم إلى النار قَوْدًا.

❁ ❁ ❁

دفع إشكال

س: ذكر الله ﷻ ما يفهم منه أن الشيطان له تسلط على الغواة من العباد إذ قال: ﴿﴾، وقال: ﴿﴾. ونفى الله في آية أُخرى سلطان الشيطان عليهم (كما يفهم من الآيات) إذ قال: ﴿﴾، وقال الشيطان: ﴿﴾.

فكيف الجمع بين الآيات التي أثبتت سلطانه على الغواة، والآيات التي نفت ذلك؟

ج: أجاب العلماء على ذلك بجوابين:

أحدها: أن السلطان المثبت غير السلطان المنفي فالسلطان المثبت هو تزيينه المعاصي وتحسينه لها، أما السلطان المنفي فهو سلطان الحجة والغلبة، فليس له حجة، وليست له غلبة.

الثاني: أن الله لم يجعل للشيطان حجة على العباد ابتداء، بل هم الذين سلطوه على أنفسهم بطاعتهم له.

❁ ❁ ❁

س: ما وجه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾ مع أن أهل الإيمان قد تصدر منهم معاصي؟

ج: في هذا والله أعلم وجوهٌ:

أحدهما: لا يستطيع الشيطان أن يحمل المتوكلين على الله المؤمنين بالله لا يستطيع أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، بل إن أذنبوا تابوا وأقلعوا ورجعوا.

الثاني: لا يستطيع الشيطان أن يوقعهم في الشرك كما قال تعالى: ﴿﴾.

الثالث: أنه لا حجة له عليهم، بل وإن عملوا ذنبًا فهم مقرون أنه ذنب.

❁ ❁ ❁

س: هل الاستعاذة قبل القراءة أم بعدها؟

ج: بل قبل القراءة قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

فإذا أخذت في قراءته فاستعذ بالله من أن يعرض لك الشيطان فيصدك عن تدبره والعمل بما فيه، وليس يريد استعذ بعد القراءة، بل هو كقولك إذا أكلت فقل بسم الله، أي إذا أردت أن تأكل. وقد روى جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح الصلاة قال" اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه «١» ". وروى أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ في صلاته قبل القراءة. قال ألكيا الطبري: ونقل عن بعض السلف التعوذ بعد القراءة مطلقا، احتجاجا بقوله تعالى:" فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم" ولا شك أن ظاهر ذلك يقتضي أن تكون الاستعاذة بعد القراءة، كقوله تعالى:" فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا «٢» ". إلا أن غيره محتمل، مثل قوله تعالى:" وإذا قلتم فاعدلوا «٣» وإذا سألتموهن متاعا فسئلوهن من وراء حجاب «٤» " وليس المراد به أن يسألها من وراء حجاب بعد سؤال متقدم.

ومثله قول القائل: إذا قلت فاصدق، وإذا أحرمت فاغتسل، يعني قبل الإحرام.
والمعنى في جميع ذلك: إذا أردت ذلك، فكذلك الاستعاذة.

❃ ❃ ❃

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وإذا نسخنا آية وجئنا مكانها بآية أُخرى، أو رفعنا آية من الصدور وأتينا مكانها بآية أخرى، أو أبقينا آية ولكن نسخنا العمل بها بآية أُخرى، كما قال تعالى: ﴿﴾ فإذا نسخنا آية وبدلناها بآية أخرى، والله أعلم بالذي نسخ وبالذي نزل، وبالذي رُفع من الصدور، لو بدلنا آية مكان آية لقال أهل الكفر إنما أنت مفتر لهذا القول من عند نفسك، ولم يُنزل الله عليك كتابًا، قال تعالى: ﴿﴾ لا يعلمون أن الله الذي أنزل القرآن وبدل آية مكان آية، فقل لهؤلاء المنكرون الجاحدون، قل لهم نزَّل هذا القرآن روحُ القدس، وهو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، نزل به من عند الله بالحق حاملاً الحق مشتملاً على الحق، ونزوله أيضًا بالحق، نزل به ليثبت الذين آمنوا على إيمانهم، ونزل به هداية، وتوفيقًا وإرشادًا لأهل الإيمان، نزل به بشارةً لأهل الإسلام بجنات النعيم، ورضوان رب العالمين.

وبنحو ذلك قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا نسخنا حكم آية، فأبدلنا مكانه حكم أخرى، والله أعلم بما ينزل: يقول: والله أعلم بالذي هو أصلح لخلقه فيما يبدِّل ويغير من

أحكامه، قالوا: إنما أنت مفتر يقول: قال المشركون بالله، المكذبو رسوله لرسوله: إنما أنت يا محمد مفتر: أي مكذب تخرص بتقوّل الباطل على الله، يقول الله تعالى بل أكثر هؤلاء القائلين لك يا محمد: إنما أنت مفتر جهال، بأنّ الذي تأتيهم به من عند الله ناسخه ومنسوخه، لا يعلمون حقيقة صحته.

وقال في تأويل قوله تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)}

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد للقائلين لك إنما أنت مفتر فيما تتلو عليهم من آي كتابنا، أنزله روح القُدُس: يقول: قل جاء به جَبرئيل من عند ربي بالحقّ.

وقوله (لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا) يقول تعالى ذكره: قل نزل هذا القرآن ناسخه ومنسوخه، روح القدس عليّ من ربي، تثبيتا للمؤمنين، وتقوية لإيمانهم، ليزدادوا بتصديقهم لناسخه ومنسوخه إيمانا لإيمانهم، وهدى لهم من الضلالة، وبُشرى للمسلمين الذين استسلموا لأمر الله، وانقادوا لأمره ونهيه، وما أنزله في آي كتابه، فأقرّوا بكل ذلك،وصدقوا به قولا وعملا.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول: {إنما أنت مفتر} أي: كذاب وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وقال مجاهد: {بدلنا آية مكان آية} أي: رفعناها وأثبتنا غيرها.

وقال قتادة: هو كقوله تعالى: {ما ننسخ من آية أو ننسها} [البقرة:١٠٦] .

فقال تعالى مجيبا لهم: {قل نزله روح القدس} أي: جبريل، {من ربك بالحق} أي: بالصدق والعدل، {ليثبت الذين آمنوا} فيصدقوا بما أنزل أولا وثانيا وتخبت له قلوبهم، {وهدى وبشرى للمسلمين} أي: وجعله هاديا [مهديا] (١) وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

ج: هذه مواساة لرسول الله ﷺ وتصبيرٌ له فيقسم الله ﷻ أنه يعلم ما يقوله أهل الكفر في شأن رسول الله ﷺ والقرآن الذي يتلوه، إنهم يقولون: إن رسول الله ﷺ يعلمه هذا القرآن بشرٌ، وقصدوا بذلك رجلًا أعجميًّا، لا يتكلم اللغة العربية، على اختلاف بين العلماء في تسيمة هذا الأعجمي، فالحاصل أنهم نسبوا القرآن إلى رجلٍ، وقالوا إن هذا الرجل اقتبسه من أساطير الأولين، وحكاياتهم وعلمه رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿﴾، فقل يا رسول الله لهؤلاء الذين قالوا إن بشرًا يعلمك، قل لهم هذا الذي تميلون إليه وتتركون قولة الحق، فتقولون إنه علمني وتعدلون عن القول بأن الله أوحى إلى هذي القرين، هذا الرجل الذي تزعمون أنه علمني رجل أعجمي لا يجيد الغة العربية ولا يتقنها، فكيف تزعمون أنه علمني والقرآن نزل بلسان عربيٍّ مبين.

وبنحو ما ذُكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد نعلم أن هؤلاء المشركين يقولون جهلا منهم:

إنما يعلم محمدا هذا الذي يتلوه بشر من بني آدم، وما هو من عند الله، يقول الله تعالى ذكره مكذّبهم في قيلهم ذلك: ألا تعلمون كذب ما تقولون، إن لسان الذي تلحدون إليه: يقول: تميلون إليه بأنه يعلم محمدا أعجميّ، وذلك أنهم فيما ذُكر كانوا يزعمون أن الذي يعلِّم محمدا هذا القرآن عبد روميّ، فلذلك قال تعالى (لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) يقول: وهذا القرآن لسان عربيّ مبين.

وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل على اختلاف منهم في اسم الذي كان المشركون يزعمون أنه يعلِّم محمدا صلى الله عليه وسلم هذا القرآن من البشر، فقال بعضهم: كان اسمه بَلْعام، وكان قَينا بمكة نصرانيا.

وقال آخرون: اسمه يعيش.

وقال آخرون: بل كان اسمه جَبْر.

وقال آخرون: بل كانا غلامين اسم أحدهما يسار والآخر جَبْر.

وقال آخرون: بل كان ذلك سَلْمان الفارسي.

... إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تستند إلى دليل صحيح.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرا عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت: أن محمدا إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعا يبيع عند الصفا، فربما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه؛ فلهذا قال الله تعالى

رادا عليهم في افترائهم ذلك: {لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين} يعني: القرآن أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من (١) معاني كل كتاب نزل على نبي أرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مسكة (٢) من العقل.

وقال الشنقيطي رحمه الله (أضواء البيان):

قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ}، أقسم جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه يعلم أن الكفار يقولون: إن هذا القرآن الذي جاء به النَّبي صلى الله عليه وسلم ليس وحيًا من الله، وإنما تعلمه من بشر من الناس.

وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [٢٥/ ٥]، وقوله: {فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} [٧٤/ ٢٤]، أي: يرويه محمد صلى الله عليه وسلم عن غيره، وقوله: {وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ...} الآية [٦/ ١٠٥]، كما تقدم في "الأنعام".

وقوله في هذه الآية الكريمة: {يُلْحِدُونَ} [١٦/ ١٠٣]، أي: يميلون عن الحق. والمعنى لسان البشر الذي يلحدون، أي: يميلون قولهم عن الصدق والاستقامة إليه؛ أعجمي غير بين، وهذا القرآن لسان عربي مبين، أي: ذو بيان وفصاحة.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: إن الذين لا يصدقون بحجج الله ﷻ، بل يكذبونها ويصرفون الانس عليها، فهؤلاء لا يوفقهم الله ﷻ للإيمان، بل وأعد الله لهم أليم العذاب، وهو جهنم والعياذ بالله، والآية كقوله تعالى: ﴿﴾، وكقوله تعالى: ﴿﴾.

ثم بين الله ﷻ أن الكذبة والمفترين ليسوا هم الأنبياء والرسل وأهل الإيمان والصلاح إنما الذين يفترون الكذب على الله هم المكذبون بآياته فأولئك هم أهل الكذب، وهم أولى به وهم أحق بأن يكونوا له أهلًا.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري:

يقول تعالى إن الذين لا يؤمنون بحجج الله وأدلته، فيصدّقون بما دلَّت عليه (لا يَهْدِيهِمُ اللهُ) يقول: لا يوفقهم الله لإصابة الحقّ، ولا يهديهم لسبيل الرشد في الدنيا، ولهم في الآخرة وعند الله إذا وردوا عليه يوم القيامة عذاب مؤلم موجع. ثم أخبر تعالى ذكره المشركين الذين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: إنما أنت مفتر، أنهم هم أهل الفرية والكذب، لا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون به، وبرأ من ذلك نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فقال: إنما يتخرّص الكذب، ويتقوّل الباطل، الذين لا يصدّقون بحجج الله وإعلامه، لأنهم لا يرجون على الصدق ثوابا، ولا يخافون على الكذب عقابا، فهم أهل الإفك وافتراء الكذب، لا من كان راجيا من الله على الصدق الثواب الجزيل، وخائفا على الكذب العقاب الأليم. وقوله (وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) يقول: والذين لا يؤمنون بآيات الله هم أهل الكذب لا المؤمنون.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة.

ثم أخبر تعالى أن رسوله ليس بمفتر ولا كذاب؛ لأنه {إنما يفتري الكذب} على الله وعلى رسوله شرار الخلق، {الذين لا يؤمنون بآيات الله} من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس. والرسول محمد صلى الله عليه وسلم، كان (٧) أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علما وعملا وإيمانا وإيقانا، معروفا بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد؛ ولهذا لما سَأَلَ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّوم أَبَا سُفْيَانَ عَنْ تِلْكَ الْمَسَائِلِ الَّتِي سَأَلَهَا مِنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ فِيمَا قال له: أو كُنْتُمْ (١) تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا. فَقَالَ: هِرَقْلُ فَمَا كَانَ لِيَدع الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ[(١)].

❁ ❁ ❁

س: هل صح لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ سبب نزول؟

ج: أورد الطبري عدة آثار في سبب نزول الآية، وذلك أنها في عمار بن ياسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا حين أكره وتلفظ بكلمة الكفر وهو مكرهٌ.

وهذه الآثار التي أوردها الطبري لا يخلو إسناد أثرٍ منها من مقال، لكنها بمجموع طُرقها تُحسَّن، والله أعلم، هذ، ومن هذه الآثار أثر.

---

(١) بنحوه أخرجه البخاري (حديث ٦، وفي غير موطن من صحيحه)، ومسلم (١٧٧٣) وغيرهما.

أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر، فعذّبوه حتى باراهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقال النبيّ ﷺ: **كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟** قال: مطمئنا بالإيمان. قال النبيّ ﷺ: **فإنْ عادُوا فَعُدْ**".

وكما أسلفت فإنه ضعيف الإسناد ولكن له شواهد يُحسَّن بها، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: من كفر بالله ﷻ بعد أن آمن به، وهذه تشمل المرتد عن دينه، وقد يحمل الإيمان على بعض معانيه، أي: من جحد وحدانية الله ﷻ، بعد أن أقرَّ بان الله خالقه ورزاقه، فهذا الذي شرح بالكفر صدره، وسع صدره لقبول الكفر وللجحود بوحدانية الله ﷻ وتكذيب رسله فهؤلاء عليهم غضب من الله ولهم يوم القيامة عذاب عظيم، لكن من أكره على كلمة الكفر وأُجبر عليها، وعذِّب وقلبه مطمئن بالإيمان فهؤلاء وإن تكلموا بالكفر وهم مكرهون عليه فالله ﷻ يعفو عنهم، فهو رحيم ولا يكلف نفسًا إلى وسعها، وقد قال كثيرون من أهل العلم إن الآية الكريمة نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنهما أُكره على أن يتكلم بكلمة الكفر فمثله معفو عنه للإكراه، أما الذين رضوا بالكفر وانشرحت له صدورهم فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك

العذاب؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا ففضلوها على الآخرة، وأقبلوا على دنياهم ونسوا أُخراهم، فاستحقوا العذاب لذلك؛ ولأن الله ﷻ لا يوفق القوم الجاحدين لوحدانيته المنكرين لآياته المكذبين رسله، فأولئك أهل الكفر الذين لا يهديهم الله هم الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فلا يعقلون شيئًا من الخير والإيمان ولا يسمعون سماعًا ينتفعون به، ولا يبصرون ما ينفعهم وأولئك هم الغافلون، الساهون عما أُعد لهم من العذاب الاليم، فحقًّا أنهم في الآخرة هم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم، وخسروا أهليهم يوم القيامة.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

أورد الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ آثارًا في كون الآية الكريمة نزلت في عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ثم قال:

فتأويل الكلام إذن: من كفر بالله من بعد إيمانه، إلا من أكره على الكفر، فنطق بكلمة الكفر بلسانه وقلبه مطمئنّ بالإيمان، موقن بحقيقته، صحيح عليه عزمه، غير مفسوح الصدر بالكفر، لكن من شرح بالكفر صدرا فاختاره وآثره على الإيمان، وباح به طائعا، فعليهم غضب من الله، ولهم عذاب عظيم.

وقال في تأويل قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧)}.

يقول تعالى ذكره: حلّ بهؤلاء المشركين غضب الله، ووجب لهم العذاب العظيم، من أجل أنهم اختاروا زينة الحياة الدنيا على نعيم الآخرة، ولأن الله لا يوفق القوم الذين يجحدون آياته مع إصرارهم على جحودها.

وقال في تأويل قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ

وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) }

يقول تعالى ذكره: هؤلاء المشركون الذين وصفت لكم صفتهم في هذه الآيات أيها الناس، هم القوم الذين طبع الله على قلوبهم، فختم عليها بطابعه، فلا يؤمنون ولا يهتدون، وأصمّ أسماعهم فلا يسمعون داعي الله إلى الهدى، وأعمى أبصارهم فلا يبصرون بها حجج الله إبصار معتبر ومتعظ (وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) يقول: وهؤلاء الذين جعل الله فيهم هذه الأفعال هم الساهون، عما أعدّ الله لأمثالهم من أهل الكفر وعما يراد بهم.

وقوله (لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) الهالكون، الذين غَبَنوا أنفسهم حظوظها من كرامة الله تعالى.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابا عظيما في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا (٢) على ما أقدموا عليه من الردة لأجل (٣) الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم فلا (٤) يعقلون بها شيئا ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئا، فهم غافلون عما يراد بهم.

{لا جرم} أي: لا بد ولا عجب أن من هذه صفته، {أنهم في الآخرة هم الخاسرون} أي: الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم (٥) يوم القيامة.

وأما قوله: {إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان} فهو استثناء ممن (٦)

كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن شناعة حال {مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ} فعمى بعد ما أبصر ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى، وشرح صدره بالكفر راضيا به مطمئنا أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء وغضب عليهم كل شيء، {وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} أي: في غاية الشدة مع أنه دائم أبدا.

و {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ} حيث ارتدوا على أدبارهم طمعا في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه وزهدا في خير الآخرة، فلما اختاروا الكفر على الإيمان منعهم الله الهداية فلم يهدهم لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم. فشملتهم الغفلة وأحاط بهم الخذلان، وحرموا رحمة الله التي وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها.

{لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة وفاتهم النعيم المقيم وحصلوا على العذاب الأليم.

وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان؛ راغب فيه فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها.

ودل ذلك على أن كلام المكره على الطلاق أو العتاق أو البيع أو الشراء

أو سائر العقود أنه لا عبرة به، ولا يترتب عليه حكم شرعي، لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها فغيرها من باب أولى وأحرى.

❁ ❁ ❁

س: هل صح لقوله تعالى: ﴿﴾ سبب نزول؟

ج: قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

حدثنا أحمد بن منصور، قال ثنا أبو أحمد الزبيري، قال ثنا محمد بن شريك، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، وقُتِل بعض، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكرهوا فاستغفروا لهم، فنزلت (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) ... إلى آخر الآية؛ قال: وكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين هذه الآية لا عذر لهم، قال: فخرجوا فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنة، فنزلت هذه الآية (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ) ... إلى آخر الآية، فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا وأيسوا من كلّ خير، ثم نزلت فيهم (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) فكتبوا إليهم بذلك: إن الله قد جعل لكم مخرجا، فخرجوا، فأدركهم المشركون فقاتلوهم، ثم نجا من نجا، وقُتِل من قُتِل[1].

❁ ❁ ❁

(١) وله شاهد عند الطبري من مرسل قتادة.

وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ﴾.

ج: هؤلاء - والله أعلم-: قوم كانوا بمكة لم يهاجروا ففتنهم قومهم، وللفتنة صورتان:

إحداهما: أنهم عذبوهم وآذوهم حتى اضطروهم إلى الهجرة.

والثانية: أنهم صرفوهم عن إيمانهم إلى الشرك بالله، فقوله: ﴿﴾ أي: من بعد ما عذبوا أو من بعدما صرفوا عن دينهم وأكرهوا على ذلك، ثم هاجروا من بلادهم وآثروا مرضاة ربهم ﷻ على ملذات الدنيا، ثم اتبعوا الهجرة بالجهاد في سبيل الله لنصرة دين الله ﷻ، وصبروا على أقدار الله وعلى ما أصابهم وصبروا على أوامر الله ﷻ، وامتنعوا عما نهاهم عنه إن ربك من بعد هذه الفتنة التي وقعوا فيها وتوبتهم منها لغفور رحيم على ما بدر منهم وصدر، وقيل: من بعدها، أي: من بعد الهجرة والتوبة والجهاد والصبر، والله أعلم.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ثم إن ربك يا محمد للذين هاجروا من ديارهم ومساكنهم وعشائرهم من المشركين، وانتقلوا عنهم إلى ديار أهل الإسلام ومساكنهم وأهل ولايتهم، من بعد ما فتنهم المشركون الذين كانوا بين أظهرهم قبل هجرتهم عن دينهم، ثم جاهدوا المشركين بعد ذلك بأيديهم بالسيف وبألسنتهم بالبراءة منهم، ومما يعبدون من دون الله، وصبروا على جهادهم (إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) يقول: إن ربك من بعد فعلتهم هذه لهم لغفور، يقول: لذو ستر على ما كان منهم من إعطاء المشركين ما أرادوا

منهم من كلمة الكفر بألسنتهم، وهم لغيرها مضمرون، وللإيمان معتقدون، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إلى الله وتوبتهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة، مهانين في قومهم قد واتوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر الله تعالى أنه {من بعدها} أي: تلك الفعلة، وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم، رحيم بهم يوم معادهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ثم إن ربك الذي ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلى دياره وأمواله طلبا لمرضاة الله، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس.

فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم، فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ
وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ
يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ
ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١١٣ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ
ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤ إِنَّمَا
حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ
ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ
أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧ وَعَلَى
ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
يَظۡلِمُونَ ١١٨ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ
بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٩ ﴾

[النحل: ١١١-١١٩]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ تُجَـٰدِلُ - لَا يُظۡـلَمُونَ - رَغَدًا - فَكَـفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ - حَلَٰلًا - ٱضۡطُرَّ - غَيۡرَ بَاغٍ - وَلَا عَادٍ - يَفۡتَرُونَ - ٱلَّذِينَ هَادُواْ - ٱلسُّوٓءَ - بِجَهَٰلَةٍ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ تُجَـٰدِلُ ﴾	تخاصم - تدافع - تحاجج.
﴿ لَا يُظۡـلَمُونَ ﴾	لا يبخسون شيئًا من حقوقهم.
﴿ رَغَدًا ﴾	واسعًا.
﴿ فَكَـفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ﴾	فجحدت نعم الله، ولم تقدم لها شكرًا.
﴿ حَلَٰلًا ﴾	في حال كونه حلالًا أحلَّه الله ولم يكن مُحرمًا أو مغصوبًا.
﴿ ٱضۡطُرَّ ﴾	ألجأته الضرورة.
﴿ غَيۡرَ بَاغٍ ﴾	غير راغب في أكل الحرام.
﴿ وَلَا عَادٍ ﴾	ليس بآكل أكثر من حاجته.
﴿ يَفۡتَرُونَ ﴾	ينسبون إلى الله ما لم يقله.
﴿ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾	اليهود.
﴿ ٱلسُّوٓءَ ﴾	السيئات - المحرمات.
﴿ بِجَهَٰلَةٍ ﴾	جهلهم هو فعلهم المعاصي واستخفافهم بحق الله، فكل من عصى الله فهو جاهل.

❋ ❋ ❋

من مشاهد القيامة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: واذكر يوم تأتي كل نفس تدافع عن نفسها وتخاصم عن نفسها وتحاجج عن نفسها، فهي مشغولةٌ بنفسها، وعندها تأخذ كلُّ نفس حقها مستوفًى كاملًا من خير أو شرٍّ وهم لا يبخسون شيئًا من حقوقهم، لا ينقصون شيئًا من حقوقهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن ربك من بعدها لغفور رحيم (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ) تخاصم عن نفسها، وتحتجّ عنها بما أسلفت في الدنيا من خير أو شرّ أو إيمان أو كفر، (وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ) في الدنيا من طاعة ومعصية (وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) : يقول: وهم لا يفعل بهم إلا ما يستحقونه ويستوجبونه بما قدّموه من خير أو شرّ، فلا يجزى المحسن إلا بالإحسان ولا المسيء إلا بالذي أسلف من الإساءة، لا يعاقب محسن ولا يبخس جزاء إحسانه، ولا يثاب مسيء إلا ثواب عمله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

{يوم تأتي كل نفس تجادل} أي: تحاج {عن نفسها} ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة {وتوفى كل نفس ما عملت} أي: من خير وشر، {وهم لا يظلمون} أي: لا ينقص من ثواب الخير ولا يزاد على ثواب الشر (١) ولا يظلمون نقيرا.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

{تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا} كلٌّ يقول نفسي نفسي لا يهمه سوى نفسه، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير.

{وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ} من خير وشر {وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ} فلا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم {فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وضرب الله مثلًا لزوال النعم بالمعاصي، ضرب حال أهل مكة مثلًا لذلك، فمكة كانت آمنة مطمئنة، وأهلها آمنون مطمئنون تأتيهم الأرزاق والسعة طيبة من كل مكان، كما قال تعالى: ﴿﴾، وكما قال تعالى: ﴿﴾ فكفر أهل هذه القرية بنعم الله وجحدوها وأنكروا نبوة الرسول الأمين الذي أنعم الله عليهم ببعثته إليهم، فبدل الله أمنهم خوفًا، ورزقهم جوعًا بسبب صنيعهم الذي صنعوا، وكفرهم الذي كفروا وجحدهم الذي جحدوا.

ولقد جاءهم رسول منهم يعرفونه ويعرفون نسبه وصدقه فكذبوه فأخذهم الله بالعذاب وهم على شركهم وضلالهم، فعذِّبوا يوم بدر بقتل سادتهم وكبراءهم، وعذبوا بجوع تسلط عليهم حتى رأوا الدخان في السماء من شدة الجوع، وأكلوا الميتة والجيف والجلود، عياذًا بالله فليحذر المؤمن من مقابلة نعم الله بالجحود والنكران.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول الله تعالى ذكره: ومثل الله مثلا لمكة التي سكنها أهل الشرك بالله هي القرية التي كانت آمنة مطمئنة، وكان أمنها أن العرب كانت تتعادى، ويقتل بعضها بعضا، ويَسْبي بعضها بعضا، وأهل مكة لا يغار عليهم، ولا يحارَبون في بلدهم، فذلك كان أمنها. وقوله (مُطْمَئِنَّةً) يعني: قارّة بأهلها، لا يحتاج أهلها إلى النَّجْع، كما كان سكان البوادي يحتاجون إليها (يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا) يقول: يأتي أهلها معايشهم واسعة كثيرة. وقوله (مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) يعني: من كلّ فجّ من فِجاج هذه القرية، ومن كلّ ناحية فيها.

وقال آخرون: بل القرية التي ذكر الله في هذا الموضع مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقوله (فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) يقول تعالى ذكره: فأذاق الله أهل هذه القرية لباس الجوع، وذلك جوع خالط أذاه أجسامهم، فجعل الله تعالى ذكره ذلك لمخالطته أجسامهم بمنزلة اللباس لها. وذلك أنهم سلط عليهم الجوع سنين متوالية بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أكلوا العلهز والجِيَف. قال أبو جعفر: والعلهز: الوبر يعجن بالدم والقُراد يأكلونه؛ وأما الخوف فإن ذلك كان خوفهم من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت تطيف بهم. وقوله (بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) يقول: بما كانوا يصنعون من الكفر بأنعم الله، ويجحدون آياته، ويكذّبون رسوله، وقال: بما كانوا يصنعون، وقد جرى الكلام من ابتداء الآية إلى هذا الموضع على وجه الخبر عن القرية، لأن الخبر وإن كان جرى في الكلام عن القرية، استغناء بذكرها عن ذكر أهلها

لمعرفة السامعين بالمراد منها، فإن المراد أهلها فلذلك قيل (بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) فردّ الخبر إلى أهل القرية، وذلك نظير قوله (فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ) ولم يقل قائلة، وقد قال قبله (فَجَاءَهَا بَأْسُنَا) ، لأنه رجع بالخبر إلى الإخبار عن أهل القرية، ونظائر ذلك في القرآن كثيرة.

يقول تعالى ذكره: ولقد جاء أهل هذه القرية التي وصف الله صفتها في هذه الآية التي قبل هذه الآية (رَسُولٌ مِنْهُمْ) يقول: رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم، يقول: من أنفسهم يعرفونه، ويعرفون نسبه وصدق لهجته، يدعوهم إلى الحقّ، وإلى طريق مستقيم (فَكَذَّبُوهُ) ولم يقبلوا ما جاءهم به من عند الله (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ) وذلك لباس الجوع والخوف مكان الأمن والطمأنينة والرزق الواسع الذي كان قبل ذلك يرزقونه، وقتل بالسيف (وَهُمْ ظَالِمُونَ) يقول: وهم مشركون، وذلك أنه قتل عظماؤهم يوم بدر بالسيف على الشرك.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ) إي والله، يعرفون نسبه وأمره، (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) ، فأخذهم الله بالجوع والخوف والقتل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها آمن لا يخاف، كما قال تعالى: {وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا} [القصص: ٥٧] وهكذا (١) قال هاهنا: {يأتيها رزقها رغدا} أي: هنيئها سهلا {من كل مكان فكفرت بأنعم الله} أي: جحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم، كما قال تعالى:

{ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار} [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]. (٢) ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما، فقال: {فأذاقها الله لباس الجوع والخوف} أي: ألبسها وأذاقها (٣) الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغدا من كل مكان، وذلك لما استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سنة (٤) أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العلهز -وهو: وبر البعير، يجعل بدمه إذا نحروه.

وقوله: {والخوف} وذلك بأنهم (٥) بدلوا بأمنهم خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوة سراياه وجيوشه، وجعلوا كل ما لهم في سفال ودمار، حتى فتحها الله عليهم (٦) وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم في قوله: {لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم} [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: {فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا [يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور]} [الطلاق: ١٠، ١١] (٧) الآية وقوله (٨): {كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة} إلى قوله (٩): {ولا تكفرون} [البقرة: ١٥١، ١٥٢].

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بدل (١٠) الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنا، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم، وسادتهم وقادتهم (١١) وأئمتهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: (وضرب الله مثلا قرية) هذا متصل بذكر المشركين. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على مشركي قريش وقال:" اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف". فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام، ووجه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما ففرق فيهم. (كانت آمنة) لا يهاج أهلها. (يأتيها رزقها رغدا من كل مكان) من البر والبحر، نظيره" يجبى إليه ثمرات كل شيء «١» " الآية. (فكفرت بأنعم الله) الأنعم: جمع النعمة، كالأشد جمع الشدة. وقيل: جمع نعمى، مثل بؤسى وأبؤس. وهذا الكفران تكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم. (فأذاقها الله) أي أذاق أهلها. (لباس الجوع والخوف) سماه لباسا لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس. (بما كانوا يصنعون) أي من الكفر والمعاصي.

ثم قال:

وأذاقها الخوف. وهو بعث النبي صلى الله عليه وسلم سراياه التي كانت تطيف بهم. وأصل الذوق بالفم ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء. وضرب مكة مثلا لغيرها من البلاد، أي أنها مع جوار بيت الله وعمارة مسجده لما كفر أهلها أصابهم القحط فكيف بغيرها من القرى. وقد قيل: إنها المدينة، آمنت برسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم كفرت بأنعم الله لقتل عثمان ابن عفان، وما حدث بها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتن. وهذا قول عائشة وحفصة زوجي النبي صلى الله عليه وسلم. قيل: إنه مثل مضروب بأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذه القرية هي مكة المشرفة التي كانت آمنة مطمئنة لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم، والنعرة العربية فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها وكذلك الرزق الواسع.

كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم {وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذه الصفات المذكورة التي اتصفت بها هذه القرية تتفق مع صفات أهل مكة المذكورة في القرآن، فقوله عن هذه القرية {كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً} [١٦/ ١١٢]، قال نظيره عن أهل مكة؛ كقوله: {أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا...} الآية [٢٨/ ٥٧]، وقوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ...} الآية [٢٩/ ٦٧]، وقوله: {وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [١٠٦/ ٤]، وقوله: {وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [٣/ ٩٧]، وقوله: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا...} الآية [٢/ ١٢٥]، وقوله: {يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} [١٦/ ١١٢]، قال نظيره عن أهل مكة أيضًا؛ كقوله: {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} [٢٨/ ٥٧]، وقوله: {لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ

وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [١٠٦/ ١-٤]، فإن رحلة الشتاء كانت إلى اليمن، ورحلة الصيف كانت إلى الشام، وكانت تأتيهم من كلتا الرحلتين أموال وأرزاق؛ ولذا أتبع الرحلتين بامتنانه عليهم: بأن أطعمهم من جوع؛ وقوله في دعوة إبراهيم: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ...} الآية [٢/ ١٢٦]، وقوله: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ...} الآية [١٤/ ٣٧].

وقوله: {فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ} [١٦/ ١١٢]، ذكر نظيره عن أهل مكة في آيات كثيرة؛ كقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} [١٤/ ٢٨].

وقد قدمنا طرفاً من ذلك في الكلام على قوله تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا...} الآية[١٦/ ٨٣].

وقوله: {فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [١٦/ ١١٢]، وقع نظيره قطعاً لأهل مكة؛ لما لجوا في الكفر والعناد، ودعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: "اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنين يوسف"، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء، حتى أكلوا الجيف والعلهز، وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه، وأصابهم الخوف الشديد بعد الأمن؛ وذلك الخوف من جيوش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغزواته وبعوثه وسراياه. وهذا الجوع والخوف أشار لهما القرآن على بعض التفسيرات؛ فقد فسر ابن مسعود آية "الدخان"، بما يدل على ذلك.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: فكلوا أيها الناس مما رزقكم الله حلالًا، أي: مما أحلَّه الله ولا يكون مغصوبًا ولا مسروقًا وكذا في حال كونه مُستساغًا مستلذًّا واشكروا الله على هذه النعمة، إن كنت مفردين له بالعبادة والطاعة مُقرين بأنه المنعم المتفضل ﷻ، واعملوا أن الذي حرَّمه عليمك إنما هي الميتة والدم ولحم الخنزير، وكذا حرَّم عليكم ما ذُبح على غير اسم الله، وما توجه الذابح به إلى الأصنام وتقرب بذبحه لها أو لأي معبود غير الله ﷻ، أما ما يتقوله أهل الجاهلية من أن الله حرَّم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فهذا كله قول بالكذب، فقد قال تعالى: ﴿ ﴾.

ثم إن هذه المحرمات التي حرمها الله عليكم ﴿ ﴾ تباح لكم، ويباح لكم أكلها عند الاضطرار، الذي هو خشية الموت أو التلف، قال تعالى: ﴿ ﴾ أي: ألجأته الضرورة إلى الأكل ﴿ ﴾ غير مريد أكل الحرام، أي: أنه لا يريد أكل ما حرمه الله عليه إلا أن الضرورة ألجأته لذلك ﴿ ﴾ ولا متعد في أكله بأكل أكثر مما يحتاج إليه ﴿ ﴾ له إذا أكل، غير مؤاخذ له على أكله من المحرمات حال الضرورة، ﴿ ﴾ به إذا أحلَّ له عند الاضطرار الأكل من المحرمات.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فكلوا أيها الناس مما رزقكم الله من بهائم الأنعام التي أحلها لكم حلالا طيبا مُذَكَّاة غير محرّمة عليكم (وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ) يقول:

واشكروا الله على نعمه التي أنعم بها عليكم في تحليله ما أحلّ لكم من ذلك، وعلى غير ذلك من نعمه (إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) يقول: إن كنتم تعبدون الله، فتطيعونه فيما يأمركم وينهاكم. وكان بعضهم يقول: إنما عنى بقوله (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالا طَيِّبًا) طعامًا كان بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين من قومه في سِنِي الجدب والقحط رقة عليهم، فقال الله تعالى للمشركين: فكلوا مما رزقكم الله من هذا الذي بعث به إليكم حلالا طيبا، وذلك تأويل بعيد مما يدلّ عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن الله تعالى قد أتبع ذلك بقوله: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ) ... الآية والتي بعدها، فبين بذلك أن قوله (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالا طَيِّبًا) إعلام من الله عباده أن ما كان المشركون يحرّمونه من البحائر والسوائب والوصائل، وغير ذلك مما قد بيَّنا قبل فيما مضى لا معنى له، إذ كان ذلك من خطوات الشيطان، فإن كلّ ذلك حلال لم يحرم الله منه شيئا.

وقال في تأويل قوله تعالى: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥)}

يقول تعالى ذكره مكذّبًا المشركين الذين كانوا يحرّمون ما ذكرنا من البحائر وغير ذلك: ما حرّم الله عليكم أيها الناس إلا الميتة والدم ولحم الخنزير، وما ذبح للأنصاب، فسمي عليه غير الله، لأن ذلك من ذبائح من لا يحلّ أكل ذبيحته، فمن اضطرّ إلى ذلك أو إلى شيء منه لمجاعة حلَّت فأكله (غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) يقول: ذو ستر عليه أن يؤاخذه بأكله ذلك في حال الضرورة، رحيم به أن يعاقبه عليه.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ) ...

الآية قال: وإن الإسلام دين يطهره الله من كلّ سوء، وجعل لك فيه يا ابن آدم سعة إذا اضطرت إلى شيء من ذلك. قوله (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ) غير باغ في أكله ولا عاد أن يتعدّى حلالا إلى حرام، وهو يجد عنه مندوحة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب، وبشكره على ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له.

ثم ذكر ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم، من الميتة والدم، ولحم الخنزير.

{وما أهل لغير الله به} أي: ذبح على غير اسم الله، ومع هذا {فمن اضطر} أي: احتاج في غير بغي ولا عدوان، {فإن الله غفور رحيم}.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها. {حَلالا طَيِّبًا} أي: حالة كونها متصفة بهذين الوصفين بحيث لا تكون مما حرم الله أو أثرا عن غصب ونحوه. فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تَعَدٍّ. {وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ} بالاعتراف بها بالقلب والثناء على الله بها وصرفها في طاعة الله. {إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} أي إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا المنعم.

{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ} الأشياء المضرة تنزيها لكم، وذلك: كـ {الْمَيْتَةَ} ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسمك.

{وَالدَّمَ} المسفوح وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر.

{وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ} لقذارته وخبثه وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه. {وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ} كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها لأنه مقصود به الشرك.

{فَمَنِ اضْطُرَّ} إلى شيء من المحرمات -بأن حملته الضرورة وخاف إن لم يأكل أن يهلك- فلا جناح عليه إذا لم يكن باغيا أو عاديا، أي: إذا لم يرد أكل المحرم وهو غير مضطر، ولا متعد الحلال إلى الحرام، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة، فهذا الذي حرمه الله من المباحات.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: ولا تقولوا كذبًا عن الأشياء هذا حلال وهذا حرام بمجرد وصف ألسنتكم لها بأنها حلال وحرام، إنما الحرام ما حرَّمه الله والحلال ما أحله الله، فإذا تقولتم على الأشياء وحللتم وحرَّمتم فقد افتريتم على الله الكذب، ونسبتم إليه ما لم يقله كذبًا عليه، وحينئذٍ فاحذروا فإن الذين يفترون على الله الكذب، ينسبون إليه ما لم يقله ﴿ لا يفوزون بمطلوبهم ولا ينجون من مرهوبهم، وأعظم مطلوب هو الجنة ورضوان الله، وأعظم مرهوب هو النار – عياذًا بالله –وسخط الله ﷻ.

فالحاصل أن المفترين على الله الكذب لا يفوزون بمطلوبٍ ولا ينجون من مرهوب، بل ما ينالونه متاعٌ قليل ولهم عذاب مؤلم موجع.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري بعد أن اختار بعض القراءات في الآية الكريمة:

ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذبَ فيما رزق الله عباده من المطاعم: هذا حلال، وهذا حرام، كي تفتروا على الله بقيلكم ذلك الكذبَ، فإن الله لم يحرم من ذلك ما تُحرِّمون، ولا أحلّ كثيرًا مما تُحِلون، ثم تقدّم إليهم بالوعيد على كذبهم عليه، فقال (إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ) يقول: إن الذين يتخرّصون على الله الكذب ويختلقونه، لا يخلَّدون في الدنيا، ولا يبقون فيها، إنما يتمتعون فيها قليلا. وقال (مَتَاعٌ قَلِيلٌ) فرفع، لأن المعنى الذي هم فيه من هذه الدنيا متاع قليل، أو لهم متاع قليل في الدنيا. وقوله (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) يقول: ثم إلينا مرجعهم ومعادهم، ولهم على كذبهم وافترائهم على الله بما كانوا يفترون عذاب عند مصيرهم إليه أليم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين، الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما كان شرعا لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: {ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب} ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس [له] (٤) فيها مستند شرعي، أو حلل شيئا مما حرم الله، أو حرم شيئا مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهيه.

و "ما" في قوله: {لما} مصدرية، أي: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم.

ثم توعد على ذلك فقال: {إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون} أي: في الدنيا ولا في الآخرة. أما في الدنيا فمتاع (٥) قليل، وأما في الآخرة فلهم

عذاب أليم، كما قال: {نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ} [لقمان: ٢٤]

وقال: {إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون} [يونس: ٦٩، ٧٠].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

{وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ} أي: لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم، كذبا وافتراء على الله وتقولا عليه.

{لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ} لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيهم وإن تمتعوا في الدنيا فإنه {مَتَاعٌ قَلِيلٌ} ومصيرهم إلى النار {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

فالله تعالى ما حرم علينا إلا الخبيثات تفضلا منه، وصيانة عن كل مستقذر.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وعلى اليهود حرمنا ما قصصنا عليك من قبل هذه السورة، وذلك في سورة الأنعام، إذا الله قال: ﴿﴾﴿﴾ لما حرمنا عليهم ذلك، بل هم الذين ظلموا فلما ظلموا حرمنا ذلك عليهم كما قال تعالى: ﴿﴾ فهم الذين ظلموا أنفسهم، ومن ثم حرموا أنفسهم من طيبات كانت لهم حلال، فمن تعدى وأكل منها عذَّبه الله ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وحرّمنا من قبلك يا محمد على اليهود، ما أنبأناك به من قبل في سورة الأنعام، وذاك كلّ ذي ظفر، ومن البقر والغنم، حرمنا عليهم شحومهما، إلا ما حملت ظُهورهما أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ) بتحريمنا ذلك عليهم (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) فجزيناهم ذلك ببغيهم على ربهم، وظُلمِهم أنفسهم بمعصية الله، فأورثهم ذلك عقوبة الله.

وأورد عن عددٍ من أهل العلم في تفسير قوله تعالى: ﴿﴾ قالوا: المراد ما قصَّه الله في سورة الأنعام، إذ قال: ﴿﴾.. الآية.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة (١) والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وأنه (٢) أرخص فيه عند الضرورة -وفي ذلك توسعة لهذه الأمة، التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر- ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والحرج والتضييق، فقال: {وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل} يعني: في "سورة الأنعام" في قوله: {وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما [أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون] } [الأنعام: ١٤٦] (٣) ؛ ولهذا قال هاهنا: {وما ظلمناهم} أي: فيما ضيقنا عليهم، {ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} أي: فاستحقوا ذلك، كما قال: {فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا} [النساء: ١٦٠] .

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما الذين هادوا فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم، كما قصه في سورة الأنعام في قوله: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

ج: هذا -والله أعلم-: فيه فتحٌ لباب التوبة أمام مريد التوبة فالذين عملوا السيئات، وكل من أساء فهو جاهل- ثم تابوا من بعد عملهم هذا، أي: رجعوا إلى الله بعد أن كانوا بعيدين عنه، وأصلحوا أي: عملوا أعمالًا صالحة ﴿﴾ من بعد التوبة والإنابة والإصلاح ﴿﴾ لذنوبهم ﴿﴾ بهم إذ شرع له ما ييسر به عليهم وفتح باب التوبة لرجوعهم إليه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن ربك للذين عصوا الله فجهلوا بركوبهم ما ركبوا من معصية الله، وسَفُهوا بذلك ثم راجعوا طاعة الله والندم عليها، والاستغفار والتوبة منها، من بعد ما سلف منهم ما سلف من ركوب المعصية، وأصلح فعمل بما يحبّ الله ويرضاه (إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا) يقول: إن ربك يا محمد من بعد توبتهم له (لَغَفُورٌ رَحِيمٌ).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم أخبر تعالى تكرما وامتنانا في حق العصاة المؤمنين: أن من تاب منهم

إليه تاب عليه، فقال: {ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة} قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل.

{ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا} أي: أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات، {إن ربك من بعدها} أي: تلك الفعلة والذلة {لغفور رحيم}.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

وهذا حض منه لعباده على التوبة، ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءا بجهالة بعاقبة ما تجني عليه، ولو كان متعمدا للذنب، فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مفارقة الذنب. فإذا تاب وأصلح بأن ترك الذنب وندم عليه (١) وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها.

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا
لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا
كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٢٤
ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ
أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥
وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ
لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا
تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم
مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ ﴾

[النحل: ١٢٠-١٢٨]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ أُمَّةً - قَانِتًا لِّلَّهِ - حَنِيفًا - لِّأَنْعُمِهِ - ٱجْتَبَٰهُ - مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ - جُعِلَ ٱلسَّبْتُ - بِٱلْحِكْمَةِ - وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ - بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ - وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ - ضَيْقٍ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أُمَّةً﴾	إمامًا يقتدى به - مُعلما الناس الخير.
﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾	مُطيعًا لله - مُخبتًا له خاشعًا.
﴿حَنِيفًا﴾	مائلًا عن الشرك إلى التوحيد.
﴿لِّأَنْعُمِهِ﴾	لنعمه.
﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾	اختاره - اصطفاه.
﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾	دين إبراهيم.
﴿جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾	جُعل يوم السبت مُحرمًا فيه العمل.
﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾	قيل: بالكتاب والسنة، وقيل: المراد بالحكمة وضع الشيء في موضعه.
﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾	الكلام الطيب اللين.
﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾	بالطرية التي هي أحسن الطرق.
﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾	لن تستطيع أن تصبر إلا إذا صبرك الله، وما صبرك إلا من الله.
﴿ضَيْقٍ﴾	حرج - غمٌّ - همٌّ.

❃ ❃ ❃

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: إن خليل الله إبراهيم عليه السلام كان إمامًا يُقتدى به في الخير، وكان أيضًا مُعلما الناس الخير، مُطيعًا لله عز وجل خاشعًا مُخبتًا له تبارك وتعالى، مَائلًا عن الشرك حَائدًا عنه ولم يكن أبدًا شركًا عليه الصلاة والسلام، ولم يكن شركًا كما يدعي مشركوا العرب، أي نوع من أنواع الشرك، بل كان حنيفًا مسلمًا شاكرًا لنعم الله عليه، فمن ثمَّ فتلوحيده وطاعته لله وإخباته وشركه اصطفيناه واخترناه من بين خلقنا في زمانه، بل واتخذناه خليلًا، وكذا وقضاه لسلوك الطريق المستقيم المقرب من الله عز وجل، الطريق الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وآتيناه في الدنيا حسنة، وهذه الحسنة تشمل الرزق الحسن والزوة الصالحة الحسناء، والذرية الصالحة والثناء الحسن عليه بعد موته، ومن ذلك كوننا نصلي عليه وندعو له بالبركة في كل صلاة نصليها، ومن ذلك أخلاقه الكريمة المرضية المحمودة، ثم هو يوم القيامة له كذلك المنازل العلية في الجنان الفسيحة الرحيبة، له منازل المقربين من الصالحين الذي صلحت أحوالهم وشؤونهم مع ربهم عز وجل وصلحت قلوبهم ونواياهم فجوزوا بذلك أفضل الجزاء وأحسن الجزاء، ثم أمرناك يا محمد أن تتبع ملة إبراهيم التي كان عليها، وهي التوحيد الخالص لله عز وجل، تتبع دينه دين الإسلام مستقيمًا عليه، مائلًا مبتعدًا عن طريق المشركين فقد كان إبراهيم عليه السلام كذلك، كان

حنيفًا مُسلمًا ولم يك من المشركين.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن إبراهيم خليل الله كان مُعَلِّم خَيْر، يأتمّ به أهل الهدى قانتا، يقول: مطيعًا لله حنيفا: يقول: مستقيما على دين الإسلام (وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) يقول: ولم يك يُشرك بالله شيئا، فيكون من أولياء أهل الشرك به، وهذا إعلام من الله تعالى أهل الشرك به من قريش أن إبراهيم منهم بريء وأنهم منه برآء (شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ) يقول: كان يخلص الشكر لله فيما أنعم عليه، ولا يجعل معه في شكره في نعمه عليه شريكا من الآلهة والأنداد وغير ذلك، كما يفعل مشركو قريش (اجْتَبَاهُ) يقول: اصطفاه واختاره لخُلته (وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) يقول: وأرشده إلى الطريق المستقيم، وذلك دين الإسلام لا اليهودية ولا النصرانية.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: إن مُعاذا كان أُمَّة قانتًا لله، قال: فقال رجل من أشجع يُقال له فروة بن نوفل: نسي إنما ذاك إبراهيم، قال: فقال عبد الله: من نسي إنما كنا نشبهه بإبراهيم، قال: وسُئِل عبد الله عن الأمَّة، فقال: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله(١).

وقال في تأويل قوله تعالى: {وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) }.

يقول تعالى ذكره: وآتينا إبراهيم على قنوته لله، وشكره له على نعمه، وإخلاصه العبادة له في هذه الدنيا ذكرًا حسنا، وثناءً جميلا باقيا على الأيام

(١) وقد روي ذلك من وجوه متعددة عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) يقول: وإنه في الدار الآخرة يوم القيامة لممن صلح أمره وشأنه عند الله، وحَسُنت فيها منزلته وكرامته.

ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ثم أوحينا إليك يا محمد وقلنا لك: اتبع ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة (حَنِيفًا) يقول: مسلما على الدين الذي كان عليه إبراهيم، بريئًا من الأوثان والأنداد التي يعبدها قومك، كما كان إبراهيم تبرأ منها.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يمدح [تبارك و] (٤) تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين، ومن اليهودية والنصرانية فقال: {إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا} فأما "الأمة"، فهو الإمام الذي يقتدى به. والقانت: هو الخاشع المطيع. والحنيف: المنحرف قصدا عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: {ولم يك من المشركين}.

ثم قال:

وقوله: {شاكرا لأنعمه} أي: قائما بشكر (٦) نعم الله عليه، كما قال: {وإبراهيم الذي وفى} [النجم: ٣٧]، أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به.

وقوله: {اجتباه} أي: اختاره واصطفاه، كما قال: {ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين} [الأنبياء: ٥١].

ثم قال: {وهداه إلى صراط مستقيم} وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي.

وقوله: {وآتيناه في الدنيا حسنة} أي: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة، {وإنه في الآخرة لمن الصالحين}

وقال مجاهد في قوله: {وآتيناه في الدنيا حسنة} أي: لسان صدق.

وقوله: {ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا} أي: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء: {أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين} كما قال: في "الأنعام": {قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين} [الأنعام: ١٦١]، ثم قال تعالى منكرا على اليهود.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عما فضل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فقال:

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} أي: إماما جامعا لخصال الخير هاديا مهتديا. {قَانِتًا لِلَّهِ} أي: مديما لطاعة ربه مخلصا له الدين، {حَنِيفًا} مقبلا على الله بالمحبة، والإنابة والعبودية معرضا عمن سواه. {وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} في قوله وعمله، وجميع أحواله لأنه إمام الموحدين الحنفاء.

{شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ} أي: آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة [ص:٤٥٢] وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن {اجْتَبَاهُ} ربه واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين.

{وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} في علمه وعمله فعلم بالحق وآثره على غيره.

{وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} رزقا واسعا، وزوجة حسناء، وذرية صالحين، وأخلاقا مرضية {وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} الذين لهم المنازل العالية والقرب العظيم من الله تعالى.

ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم أن يتبع ملة إبراهيم، ويقتدي به هو وأمته.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، أثنى الله جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين على نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصَّلاة والسلام: بأنه أمة؛ أي إمام مقتدى به، يعلم الناس الخير؛ كما قال تعالى: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [٢/ ١٢٤]، وأنه قانت لله، أي: مطيع له، وأنه لم يكن من المشركين، وأنه شاكر لأنعم الله، وأن الله اجتباه، أي: اختاره واصطفاه، وأنه هداه إلى صراط مستقيم.

وكرر هذا الثناء عليه في مواضع أُخر؛ كقوله: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} [٥٣/ ٣٧]، وقوله: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [٢/ ١٢٤]، وقوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} [٢١/ ٥١]، وقوله: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} [٦/ ٧٥]، وقوله عنه: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [٦/ ٧٩]، وقوله: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [٣/ ٦٧]، وقوله: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [٣٧/ ٨٣، ٨٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في الثناء عليه.

وقد قدمنا معاني "الأمة" في القرآن.

قوله تعالى: {وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} الآية [١٦/ ١٢١]، قال بعض

العلماء: الحسنة التي آتاه الله في الدنيا: الذرية الطيبة، والثناء الحسن، ويستأنس لهذا بأن الله بين أنه أعطاه بسبب إخلاصه لله، واعتزاله أهل الشرك: الذرية الطيبة. وأشار أيضًا لأنه جعل له ثناءً حسنًا باقيًا في الدنيا؛ قال تعالى: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا} [١٩/ ٤٩-٥٠]، وقال: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [٢٩/ ٢٧]، وقال: {وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} [٢٦/ ٨٤].

وقال الشنقيطي أيضًا:

قوله تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه أوحى إلى نبيِّنا صلى الله عليه وسلم الأمر باتباع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين.

وبين هذا أيضًا في غير هذا الموضع؛ كقوله: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [٦/ ١٦١]، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} - إلى قوله- {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ...} الآية [٢٢/ ٧٧-٧٨]، وقوله: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ...} الآية [٦٠/ ٤]، إلى غير ذلك من الآيات. والملة: الشريعة. والحنيف: المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق.

❀ ❀ ❀

تحريم العمل يوم السبت على بني إسرائيل

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: إنما جُعل تعظيم يوم السبت وعدم الاعتداء فيه وتحريم الصيد وعدم العمل فيه، وكما قال تعالى: ﴿﴾ على بني إسرائيل فقط، كلُّ هذا ليس له تعلقٌ بكم يا أمة محمد ﷺ، وكذا لم يكن له تعلق بمن هم قبل بني إسرائيل الذين كانوا في زمن نبي الله موسى عليه السلام، فلم يُحرم العمل في السبت في شرعة إبراهيم عليه السلام، إنما جعل تعظيمه وتحريم العمل فيه على بني إسرائيل الذين اختلفوا فيه أما صورة اختلافهم فيه، فمن العلماء من قال إنهم عُرض عليهم تعظيم يوم الجمعة فرفضوه وصرفهم الله عنه، فاختاروا السبت فَشُدِّد عليهم فيه، كما قال النبي ﷺ: «**أَضَلَّ اللهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَنْ كَانُوا قَبْلَنَا**»، وقد قال تعالى: ﴿﴾.

وثمَّ أقوال أُخر – تأتي في ثنايا أقوال العلماء، وما ذكرته عن بعضهم هو الظاهر لي، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: في كل الأشياء التي اختلفوا فيها في دنياهم فيجازي الصادق المحسن المؤمن بإحسانه وصدقه وإيمانه، ويعاقب الكافر المسيئ الكاذب لكذبه وافترائه وإساءته.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ) يقول تعالى ذكره: ما فرض الله أيها الناس تعظيم يوم السبت إلا على الذين اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هو أعظم الأيام، لأن الله تعالى فرغ من خلق الأشياء يوم الجمعة، ثم سَبَتَ يوم السبت.

وقال آخرون: بل أعظم الأيام يوم الأحد، لأنه اليوم الذي ابتدأ فيه خلق الأشياء، فاختاروه وتركوا تعظيم يوم الجمعة الذي فَرَض الله عليهم تعظيمه واستحلوه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه أي لم يكن في شرع إبراهيم ولا في دينه، بل كان سمحا لا تغليظ فيه، وكان السبت تغليظا على اليهود في رفض الأعمال وترك التبسيط في المعاش بسبب اختلافهم فيه، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم الجمعة فقال: تفرغوا للعبادة في كل سبعة أيام يوما واحدا. فقالوا: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا، فاختاروا الأحد. وقد اختلف العلماء في كيفية ما وقع لهم من الاختلاف، فقالت طائفة: إن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وعينه لهم، وأخبرهم بفضيلته على غيره، فناظروه أن السبت أفضل، فقال الله له: " دعهم وما اختاروا لأنفسهم". وقيل: إن الله تعالى لم يعينه لهم، وإنما أمرهم بتعظيم يوم في الجمعة فاختلف اجتهادهم في تعيينه، فعينت اليهود السبت، لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق. وعينت النصارى يوم الأحد، لأن الله تعالى بدأ فيه بالخلق. فألزم كل منهم ما أداه إليه اجتهاده. وعين الله لهذه الأمة يوم الجمعة من غير أن يكلهم إلى اجتهادهم فضلا منه ونعمة، فكانت خير الأمم أمة. روى الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فيه فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له- قال يوم الجمعة- فاليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد

للنصارى" فقوله:" فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه" يقوي قول من قال: إنه لم يعين لهم، فإنه لو عين لهم وعاندوا لما قيل" اختلفوا". وإنما كان ينبغي أن يقال فخالفوا فيه وعاندوا. ومما يقويه أيضا قوله عليه السلام:" أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا". وهذا نص في المعنى. وقد جاء في بعض طرقه" فهذا يومهم الذي فرض الله عليهم اختلفوا فيه". وهو حجة للقول الأول. وقد روي:" إن الله كتب الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا تبع". قوله تعالى: (على الذين اختلفوا فيه) يريد في يوم الجمعة كما بيناه، اختلفوا على نبيهم موسى وعيسى. ووجه الاتصال بما قبله أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر باتباع الحق، وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدد عليهم كما شدد على اليهود.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوما من الأسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت [الناس] (١) فيه وتمت النعمة على عباده. ويقال: إنه تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى، فعدلوا عنه واختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئا من المخلوقات الذي (٢) كمل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم (٣) تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعة محمد صلى الله عليه وسلم إذا بعثه. وأخذه (٤) مواثيقهم وعهودهم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: {إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه}

قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة.

ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به، حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حولهم إلى يوم الأحد. ويقال إنه: لم [يترك (٥) شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها وإنه لم] (٦) يزل محافظا على السبت حتى رفع، وإن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقا عن الصخرة، والله (٧) أعلم.

وأورد من حديث أبي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ". لَفْظُ الْبُخَارِيِّ[١].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَحُذَيْفَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَضَلَّ اللهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢].

وقال ابن الجوزي (زاد المسير):

وفي معنى اختلافهم فيه قولان:

أحدهما: أن موسى قال لهم: تفرَّغوا لله في كل سبعة أيام يومًا، فاعبدوه في يوم الجمعة، ولا تعملوا فيه شيئًا من صنيعكم، فأبَوا أن يقبلوا ذلك، وقالوا: لا نبتغي إِلاَّ اليوم الذي فرغ فيه من الخلق، وهو يوم السبت، فجعل ذلك عليهم،

---

(١) البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥).

(٢) مسلم (٨٥٦).

وشدِّد عليهم فيه، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: لما أمرهم موسى بيوم الجمعة، قالوا: نتفرغ يوم السبت، فان الله لم يخلق فيه شيئًا، فقال: إِنما أُمرت بيوم الجمعة، فقال أحبارهم: انتهوا إِلى أمر نبيِّكم، فأبَوا، فذلك اختلافهم، فلما رأى موسى حرصهم على السبت، أمرهم به، فاستحلوا فيه المعاصي. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: رأى موسى رجلًا يحمل قصبًا يوم السبت، فضرب عنقه، وعكفت عليه الطير أربعين صباحًا. وذكر ابن قتيبة في «مختلف الحديث»: أن الله تعالى بعث موسى بالسبت، ونسخ السبت بالمسيح.

والثاني: أنه بعضهم استحلَّه، وبعضهم حرَّمه، قاله قتادة.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ} أي: فرضا {عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ} حين ضلوا عن يوم الجمعة وهم اليهود فصار اختلافهم سببا لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذي هدى الله هذه الأمة إليه.

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} فيبين لهم المحق من المبطل والمستحق للثواب ممن استحق العقاب(١).

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: ادع إلى طريق الله سبحانه وتعالى وإلى اتباع كتابه وسنة رسوله ﷺ بالحكمة المتمثلة في كتاب الله وسنة رسول الله، وبالطريقة

الطيبة السهلة اللينة المحببة إلى القلوب، ليست المنفرة، ادع بالكلمة الطيبة كما قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام لما أرسلهما لفرعون: ﴿﴾، وكما قال: ﴿﴾، وكما قال تعالى: ﴿﴾، وكما قال: ﴿﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

أما الأحاديث عن رسول الله ﷺ الواردة في هذا الصدد فمنها:

قول النبي ﷺ: «أَطِبِ الكَلَامَ وأَفْشِ السَّلَامَ»[(١)].

وقوله ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَة، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَة»[(٢)].

وقال ﷺ: «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَة»[(٣)].

أما قوله تعالى: ﴿﴾ أي: والموعظة المؤثرة في القوب، الموعظة التي هي الكلام الطيب اللين المؤثر الحسن.

أما قوله: ﴿﴾ أي: وناقشهم لإقامة الحجة عليهم بالطريقة التي هي أحسن الطرق وأسلم الطرق، وكل ذلك يُستقى من كتاب الله ﷻ ومن سنة رسوله ﷺ وقوله: ﴿﴾ حاصل معناه: عليك يا رسول الله أن تدعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن تجادلهم بالتي هي أحسن، وربك سبحانه وتعالى هو أعلم بالذين سبقت لهم منه الحسنى، وأنهم سيُسلموا ويؤمنوا، وكذلك فهو أعلم بمن كتبت عليهم الشقاوة، الذين حادوا عن طريق الحق والصواب.

وبنحو ما ذكر قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

(١) أحمد (٢/ ٤٩٣) بإسنادٍ حسن لشواهده.

(٢) البخاري (٦٠٢٣)، ومسلم (٧٠٤).

(٣) البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (ادْعُ) يا محمد من أرسلك إليه ربك بالدعاء إلى طاعته (إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ) يقول: إلى شريعة ربك التي شرعها لخلقه، وهو الإسلام (بِالْحِكْمَةِ) يقول بوحي الله الذي يوحيه إليك وكتابه الذي ينزله عليك (وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) يقول: وبالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه، وذكّرهم بها في تنزيله، كالتي عدّد عليهم في هذه السورة من حججه، وذكّرهم فيها ما ذكرهم من آلائه (وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) يقول: وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك.

وقوله (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إن ربك يا محمد هو أعلم بمن جار عن قصد السبيل من المختلفين في السبت وغيره من خلقه، وحادّ الله، وهو أعلم بمن كان منهم سالكا قصد السبيل ومَحَجة الحقّ، وهو مُجازٍ جميعهم جزاءهم عند ورودهم عليه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى آمرا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق إلى الله {بالحكمة}

قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه (٣) من الكتاب والسنة {والموعظة الحسنة} أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم (٤) بها، ليحذروا بأس الله تعالى.

وقوله: {وجادلهم بالتي هي أحسن} أي: من احتاج منهم إلى مناظرة

وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم} [العنكبوت: ٤٦] فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون، عليهما السلام، حين بعثهما إلى فرعون فقال: {فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى} [طه: ٤٤].

وقوله: {إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين} أي: قدم علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم (٥) حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ، وعلينا الحساب، {إنك لا تهدي من أحببت} [القصص: ٥٦]، (٦) و {ليس عليك هداهم} [البقرة: ٢٧٢].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة. فهي محكمة في جهة العصاة من الموحدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين. وقد قيل: إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة. والله أعلم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح {بِالْحِكْمَةِ} أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده.

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب

إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به.

وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان [المدعو] يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعيه إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلا ونقلا.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها.

وقوله: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ} علم السبب الذي أداه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلالته وسيجازيه عليها.

{وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم ثم منَّ عليهم فاجتباهم.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة: أن يجادل خصومه بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة: من إيضاح الحق بالرفق واللين. وعن مجاهد

{وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [١٦/ ١٢٥]، قال: أعرض عن أذاهم، وقد أشار إلى هذا المعنى في قوله: {وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} [٢٩/ ٤٦]، أي: إلا الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجادلهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

ونظير ما ذكر هنا من المجادلة بالتي هي أحسن قوله لموسى وهارون في شأن فرعون: {فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [٢٠/ ٤٤]، ومن ذلك القول اللين، قول موسى له: {فَقُلْ هَل لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} [٧٩/ ١٨-١٩].

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه أعلم بمن ضل عن سبيله؛ أي زاغ عن طريق الصواب والحق، إلى طريق الكفر والضلال.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله في أول "القلم": {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ} [٦٧/ ٧-٨]، وقوله في "الأنعام": {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [٦/ ١١٧]، وقوله في "النجم": {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى} [٥٣/ ٣٠]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وإن أحدٌ ظلمكم وأردتم أن تعاقبوه على ظُلمه الذي ظلمكم، فعاقبوه بالقدر الذي ظلمكم لا تزيدوا على ذلك، فهذا قوله:

﴿﴾، وقال تعالى: ﴿﴾، وقال تعالى: ﴿﴾، وقال تعالى: ﴿﴾.

وقال ﷺ: «**المُسْتَبَّان مَا قَالَا مَا لَمْ يَعْتَدِ المَظْلُوم**»، أما قوله تعالى: ﴿﴾ فحاصل معناه: أنكم إذا صبرتم ولم تعاقبوا من عاقبكم بل عفوتم عنه وصفحتم ابتغاء مرضاة الله فصبركم خيرٌ لكم، كما قال تعالى: ﴿﴾.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين: وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة، ولئن صبرتم عن عقوبته، واحتسبتم عند الله ما نالكم به من الظلم، ووكلتم أمره إليه، حتى يكون هو المتولي عقوبته (لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) يقول: للصبر عن عقوبته بذلك خير لأهل الصبر احتسابا، وابتغاء ثواب الله، لأن الله يعوّضه مِنَ الذي أراد أن يناله بانتقامه من ظالمه على ظلمه إياه من لذّة الانتصار، وهو من قوله (لَهُوَ) كناية عن الصبر، وحسن ذلك، وإن لم يكن ذكر قبل ذلك الصبر لدلالة قوله: (وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ) عليه.

وقد اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله نزلت هذه الآية. وقيل: هي منسوخة أو محكمة، فقال بعضهم: نزلت من أجل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أقسموا حين فعل المُشركون يوم أُحد ما فعلوا بقتلى المسلمين من التمثيل بهم أن يجاوزوا فعلهم في المُثْلة بهم إن رزقوا الظفر عليهم يومًا، فنهاهم الله عن ذلك بهذه الآية وأمرهم أن يقتصروا في التمثيل بهم إن هم ظفروا على مثل الذي كان منهم، ثم أمرهم بعد ذلك بترك التمثيل، وإيثار الصبر عنه بقوله (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللهِ) فنسخ بذلك عندهم ما كان

أذن لهم فيه من المُثلة.

وأورد الطبري بإسنادٍ صحيح عن عامر[١]، قال: لما رأى المسلمون ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أُحد، من تبقير البطون، وقطع المذاكير، والمُثلة السيئة، قالوا: لئن أظفرنا الله بهم، لنفعلنّ ولنفعلنّ، فأنزل الله فيهم ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللهِ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

وقال آخرون: نسخ ذلك بقوله في براءة: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ قالوا: وإنما قال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ خبرًا من الله للمؤمنين أن لا يبدءوهم بقتال حتى يبدءوهم به، فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

وقال آخرون: بل عنى الله تعالى بقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللهِ﴾ نبيّ الله خاصة دون سائر أصحابه، فكان الأمر بالصبر له عزيمة من الله دونهم.

وقال آخرون: لم يُعْنَ بهاتين الآيتين شيء مما ذكر هؤلاء، وإنما عُنِيَ بهما أن من ظُلِم بظُلامة، فلا يحلّ له أن ينال ممن ظلمه أكثر مما نال الظالم منه، وقالوا: الآية محكمة غير منسوخة.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمر من عوقب من المؤمنين بعقوبة أن يعاقب من عاقبه بمثل الذي عوقب به، إن اختار عقوبته، وأعلمه أن الصبر على ترك عقوبته، على ما كان منه إليه خير وعزم

(١) وهو الشعبي، وهو تابعي فالسند إليه صحيح، ولكنه مرسل، وأورد الطبري نحوه عن غير واحد من التابعين وفي أسانيدها مقال.

على نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصبر، وذلك أن ذلك هو ظاهر التنزيل، والتأويلات التي ذكرناها عمن ذكروها عنه، محتملها الآية كلها. فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن في الآية دلالة على أيّ ذلك عنى بها من خبر ولا عقل كان الواجب علينا (١) الحكم بها إلى ناطق لا دلالة عليه؛ وأن يقال: هي آية محكمة أمر الله تعالى ذكره عباده أن لا يتجاوزوا فيما وجب لهم قِبَل غيرهم من حقّ من مال أو نفس، الحقّ الذي جعله الله لهم إلى غيره، وأنها غير منسوخة، إذ كان لا دلالة على نسخها، وأن للقول بأنها محكمة وجهًا صحيحًا مفهوما.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله: {وجزاء سيئة سيئة مثلها} ثم قال {فمن عفا وأصلح فأجره على الله} [الشورى: ٤٠]. وقال {والجروح قصاص} ثم قال {فمن تصدق به فهو كفارة له} [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآية الكريمة: {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به} ثم قال {ولئن صبرتم لهو خير للصابرين}.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى -مبيحا للعدل ونادبا للفضل والإحسان- {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ} من أساء إليكم بالقول والفعل {فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم.

{وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ} عن المعاقبة وعفوتم عن جرمهم {لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} من الاستيفاء وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة كما قال تعالى: {فمن عفا

وأصلح فأجره على الله}.

❀ ❀ ❀

الحث على الصبر والاستعانة بالله في ذلك

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: واصبر يا رسول اله على ما لحقك من أذى قومك، واسال الله أن يُصبِّرك فلن تستطيع أن تصبر إلا إذا صبَّرك الله ﷻ ولا تحزن على قومك إذا أعرضوا عن الإيمان، والمراد بالحزن الحزن الشديد المهلك، كما قال تعالى: ﴿﴾، وكما قال: ﴿﴾.

أما الحزن المعتاد فهذا لا ينفك عنه بشرٌ، ومعلوم أن الشخص يحزن إذا كفر شخصٌ عزيز عليه، فالمنهي عنه من الحزن، الحزن المُهلك.

وقوله: ﴿﴾ أي: ولا تكن في غمٍّ وهمٍّ وحرجٍ وضيق صدر من تكذيبهم لك ومكرهم بك ومحاولتهم إلحاق الأذى بك، فالله حافظك فإن الله معك، مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأنت بفضل الله إمامهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واصبر يا محمد على ما أصابك من أذى في الله. (وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللهِ) يقول: وما صبرك إن صبرت إلا بمعونة الله، وتوفيقه إياك لذلك (وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) يقول: ولا تحزن على هؤلاء المشركين الذين يكذّبونك وينكرون ما جئتهم به في آن ولوا عنك وأعرضوا عما أتيتهم به من النصيحة (وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) يقول: ولا يضق صدرك بما يقولون من الجهل، ونسبتهم ما جئتهم به إلى أنه سحر أو

شعر أو كهانة، مما يمكرون: مما يحتالون بالخدع في الصّد عن سبيل الله، من أراد الإيمان بك، والتصديق بما أنزل الله إليك.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: {واصبر وما صبرك إلا بالله} تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك إنما ينال بمشيئة الله وإعانته، وحوله وقوته.

ثم قال تعالى: {ولا تحزن عليهم} أي: على من خالفك، لا تحزن عليهم؛ فإن الله قدر ذلك، {ولا تك في ضيق} أي: غم {مما يمكرون} أي: مما يجهدون [أنفسهم] (٤) في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك، ومؤيدك، ومظهرك ومظفرك بهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

{وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ} هو الذي يعينك عليه ويثبتك. {وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولا لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئا. {وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ} أي: شدة وحرج {مِمَّا يَمْكُرُونَ} فإن مكرهم عائد إليهم وأنت من المتقين المحسنين.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾.

ج: هذه الآية - والله أعلم-: لها تعلقٌ بما قبلها فقوله تعالى: ﴿﴾ له تعلق بما بعده، أي: فلا تك في ضيق من مكرهم وكيدهم فالله معك، فانت يا رسول الله تقيٌّ ومحسنٌ، بل أنت إمام المتقين، وإمام المحسنين من البشر، فمن ثَمَّ فالله معك، معك بنصره وتأييده وحفظه معك أيضًا يراك ويسمعك ويعلم ما

بك من همّس ومن غمٍّ ولن يُضيعك.

وعمومًا فإن الله ﷻ مع أهل التقوى وأهل الإحسان جعلنا الله منهم وحفظنا الله والمسلمين بحفظه ونصرها بنصره وأيدنا بتأييده.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره (إِنَّ اللهَ) يا محمد (مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا) الله في محارمه فاجتنبوها، وخافوا عقابه عليها، فأحجموا عن التقدّم عليها (وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) يقول: وهو مع الذين يحسنون رعاية فرائضه، والقيام بحقوقه، ولزوم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وقوله: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه معية خاصة، كقوله: {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا} [الأنفال: ١٢]، وقوله لموسى وهارون: {لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى} [طه: ٤٦]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم للصديق وهما في الغار: {لا تحزن إن الله معنا} [التوبة: ٤٠] وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: {وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير} [الحديد: ٤]، وكقوله تعالى: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا} [المجادلة: ٧]، وكما قال تعالى: {وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا [إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا

في كتاب مبين] } [يونس: ٦١] . (٥)

ومعنى: {الذين اتقوا} أي: تركوا المحرمات، {والذين هم محسنون} أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم، وينصرهم ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

والله مع المتقين المحسنين، بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه.

نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ}، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه مع عباده المتقين المحسنين، وقد تقدم إيضاح معنى التقوى والإحسان. وهذه المعية خاصة بعباده المؤمنين، وهي بالإعانة والنَّصر والتوفيق، وكرر هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [٢٠/ ٤٦]، وقوله: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ} [٨/ ١٢]، وقوله: {لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا} [٩/ ٤٠]، وقوله: {قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [٢٦/ ٦٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما المعية العامة لجميع الخلق فهي بالإحاطة التامة والعلم، ونفوذ القدرة، وكون الجميع في قبضته جل وعلا؛ فالكائنات في يده جل وعلا أصغر من حبّة خردل، وهذه هي المذكورة أيضًا في آيات كثيرة؛ كقوله: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ

وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ...} الآية [٥٨/ ٧]، وقوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} الآيـة [٥٧/ ٤]، وقولـه: {فَلَنَقُصَّـنَّ عَلَـيْهِمْ بِعِلْـمٍ وَمَـا كُنَّـا غَـائِبِينَ} [٧/ ٧]، وقوله: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ..} الآية [١٠/ ٦١]، إلى غير ذلك من الآيات.

فهو جل وعلا مستو على عرشه كما قال، على الكيفية اللائقة بكماله وجلاله، وهو محيط بخلقه، كلهم في قبضة يده، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

تم بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة النحل.

❁ ❁ ❁